الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

الآثار الكاملة لأدب ذي النون أيوب

المجلد الثالث

الروايات

ذو النون أيوب

الدكتور ابراهيم

حياته ومآثره

الطبعة الاولى ١٩٣٩
الطبعة الثانية ١٩٦٠
الطبعة الثالثة ١٩٧٨

تمهيـــد

الفصل الأول

دعامة في برج بابل[1]

« على عدد من هذه الدعائم ينهض برج الخطيئة والآثام . ويوم تمتد يد الآله الجبار لتقويض بعضها سينهار البرج ويدك المجرمين الاشرار تحت انقاضه دكاً . »

دوى صوت صافرة القطار تنذر المسافرين بالرحيل ، وكان لذلك الدوى اثر جميل في اذن ابراهيم ، فهو اشارة الانتقال في حياته ، من دور الدراسة والتلمذة الى دور الرجولة والعمل . انتقال من دنيا المتاعب والسهر على الدروس الى دنيا الراحة والسهر في المنتديات والملاهى . ولم يخطر في باله أن الحياة العملية قد تكون أكثر من حياة الدراسة مشقة واحفل منها بالمتاعب والآلام . انه في طريق العودة من لندن الى بغداد بعد حيازته على أعظم شهادة علمية في فن الزراعة من أرقى جامعات بريطانيا . وقد حرص أن تكون شهادته الاولى من نوعها ، وأرقى شهادة علمية حصل عليها طالب عراقي حتى الآن . لقد انتهى دور الزراعة وأتى دور الحصاد على حد تعبيره . لقد صب من العلم في رأسه قدراً يفوق كل ما يحويه عقل عراقي حتى الآن ، وذلك بشهادة جامعته الرسمية، وهي مستند لا غبار عليه ، لا يمكن أن يعترض معترض على صحته ، أو يشك في قيمتـه .

---

(1) ان هذا الفصل هو اقصوصة نحو القمة في المجموعة الخامسة من اقاصيص المؤلف (برج بابل) وهو الذي كان سبب المشادة التي حدثت بين المؤلف ووزارة المعارف آنذاك .

ما أغرب حياة الدراسة ! وما أحفلها بالذكريات ! ان من الكلمات والاقوال ما ينطبع في عقل الصغير ، ويبقى ذا أثر فى توجيه حياته والتأثير فى أعماله طيلة حياته ، ولو سأله سائل هل يتذكر المعلم غضبان افندى ، وهو يكرر كلمته التى اعتاد أن يقولها لكل تلميذ كسول « ابقَ كسلان وسوف لا تكون فى مستقبل حياتك أكثر من شرطى » أو قوله لكل تلميذ مجتهد ، وقد كان هو أحدهم : « عفارم ابني ، ستكون وزيراً في المستقبل ، ولا تنس أن تنظر بعين العطف الى رفيقك الكسول فتعينه خادما في دائرتك » ضحك ملء شدقيه، واعترف بأنه يتذكرها جيداً كأنه قد سمعها البارحة ، ولكن لو قلت له بأنه ما زال تحت تأثير هذه الكلمات ، خاضعاً لقانونها ، لأنكر بشدة ، لا لسبب الا لأن غضبان افندى ، وأمثال غضبان افندى أحط من أن يؤثروا في حياة رجل عظيم مثله •

واختفت لندن عن نظره مع غرف الدراسة والكتب والكراريس ، كما اختفت تلك الحياة المملة • حياة الدراسة الطويلة المتعبة ، وها هو يستقبل حياة العمل التى لا تتعدى في نظره تقديم شهادته الى وزارة الزراعة ، ليكون مرشحاً لتبوء أكبر منصب حكومى في وزارة الاقتصاد بحق • سيفرض على الناس أن يسموه دكتوراً ، ويحبر المقالات بتوقيع دكتور من جامعة (••••) وقد يغار منه بعضهم فيسعى للحصول على مثل شهادته ، ولكنه سيكون الأسبق، فيحتل المركز المهم قبل غيره ، وعندها يشرع في اتخاذ التدابير الكافية ، ويضع خطة دفاع محكمة لصيانة نفسه ومركزه من المنافسين •

وكانت هذه الآمال ، كما يرى القارىء ، حلوة معسولة لا يشوب صفاءها كدر ، فطبعت على وجهه أثراً جميلا ، فكان يكثر من الابتسام غير حافل بغيره من المسافرين • وكان في عربته مسافران دفعهما الفضول الى مراقبة هذا (الذى يظهر من سحنته ولونه الشديد السمرة انه عربى أو هندي) وقال أحدهما لصاحبه مازحاً :

« ما أسعد هذا الشاب ! لابد أن يكون ابن أحد راجوات الهند • انه في طريقه الى وطنه لتسلم مهام امارته بعد موت أبيه • ألا تراه يحلم بالجواهر والحريم ومحفات الذهب ؟ » فأجابه رفيقه : « اراهن على أنك مخطيء فيما ذهبت اليه، فهو من برابرة شمال افريقيا، عائد الى امارته وحريمه بعد نزهة في اوربا » • واعتزما أن يسألاه ، وانتهزا فرصة للخوض معه في الحديث • ولما سألاه عن جنسيته وهويته أجابهما متباهياً بأنه قد حاز على شهادة الدكتوراه في العلوم الزراعية ، وهو عائد الى وطنه العراق • وكانت كلمة (عراق) غريبة على مسامعهما ، فقال أحدهما ، وكان سكيراً عتيقاً : « انى أتذكر مسكراً بهذا الاسم ، ولعله يصنع في بلادكم ؟ » فأضحكه جوابه ، وأراد أن يفهمه أهمية بلاده بطريقة أخرى فقال : « هي (ميزوبوتيميا) بلاد النفط » فأجاباه معاً : «ولماذا لم تقل ذلك أولا» وأضاف أحدهما : « لابد أن تكون بعض أراضي شركة النفط من أملاكك » • فأجابه مازحا « لا ، ولكن قسما من وارداتها سيؤول الي ، اذ سأكون موظفاً كبيراً في حكومة العراق وأتقاضى مرتباً ضخماً » •

★ ★ ★

انكب الدكتور ابراهيم فوق اناء الطعام ، ومضى ينقل الملعقة بين فمه والأناء بسرعة لا تسمح له بالمضغ ، وتذوق الطعام ، وكان يأكل كمن يقوم بعمل مكروه لا مناص من القيام به • ولم يكن للاكل في نظره قيمة اذا قورن بالاجتماع الذى سينعقد في داره ذلك اليوم •

لقد تأخر في الدائرة اكثر من المعتاد ، ولم يتأخر لانجاز أشغاله المتراكمة ، وانهاء واجباته المتأخرة ، بل قضى الوقت في الاحتفاء ببضع شخصيات بارزة ينتظر أن يكون لها شأن في المستقبل • وقد تعرف اليوم على شخصيتين خطيرتين ، زيادة على الشخصيات الكثيرة الاخرى • وما كانت زيارة هؤلاء لامور تتعلق بوظيفته ، بل كانت زيارة شخصية للمحادثة ، وبث الاشواق ، واحتساء القهوة ، وتدخين السكاير ، والخوض في الامور السياسية والاجتماعية،

ورواية الاخبار العالمية ، وابداء الآراء الشخصية في كل ما يتعلق بذلك • وقد ينشب جدل في مثل هذه الجلسات ، فيعلو الصخب ، ويتكلم كل خمسة منهم مرة واحدة ، ويفوز منهم من يعلو صوته على أصوات الباقين ، يجرى كل ذلك والباب محجوز دون أرباب المصالح والمراجعين ، وكل ذى عمل رسمي • ويقوم الحاجب بواجبه في مثل هذه الظروف قياما يرضى البيك • فعندما يزور رئيسه ذوو الوجاهة الذين يعرفهم جيداً من كروشهم ونظاراتهم وملابسهم الغالية الثمن المبهدلة الهندام ، ولهجاتهم المملوءة غطرسة وكبرياء، يحجز الباب دون بقية المراجعين • وقد تواعد مع زواره على الالتقاء في بيته في ساعة معينة من ذلك اليوم لأمر هام • وها قد مضى الوقت ولم يبق على موعد زيارتهم غير بضع دقائق •

وقدموا أخيراً فاستقبلهم من الباب مرحباً ، وكانوا عشر شخصيات بارزة بينهم ثلاثة محامين ، وصحافي واحد ، وثلاثة وزراء سابقين ، وثلاثة نواب ، ولابد أن يكون القارىء قد أدرك أن اجتماعاً كهذا هو أحد الاجتماعات الخطيرة ، وكانت علنية آنذاك ، ولكنها أصبحت سرية في الوقت الذى تعطلت فيه الاحزاب ، وشلت حركات المعارضة ، فاستحالت الى مؤامرات بصورة زيارات لا يصل خبرها الى جاسوس ، ولا الى رقيب ، تعقد في المنازل بدل المنتديات ، وتدون محاضرها في العقول بدل السجلات ، ويظهر أن الحكومة لم تعلم حين عطلت الاحزاب أن غرف الاستقبال في منزل كل شخص بارز ستكون داراً لحزب سرى مستقل •

ودار الحديث حول السياسة والساسة ، ودار الحديث حول أعمال الحكومة ، فاذا بها نقائص ومثالب • وتناولوا سيرة الوزراء ، فاذا هم لا يزيدون عن أرعن وأحمق ، أو خائن غدار ، أو سارق كذاب ، أو منافق خبيث ، أو أناني لعين ؛ ولما بحثوا في أمر الاصلاح اتفقوا جميعاً « على أن العلة هي الوزارة التي يجب أن تسقط ، ويجب أن تحل اخرى محلها ليتم

هذا الاصلاح المنشود » • أما الوزارة التي ستحل محلها فقوامها أصدقاؤهم، والرجال الذين يتصلون بهم ويعملون لهم • وقرروا أن يشنوا غارة شعواء على تلك الوزارة بغية اسقاطها • ووزعوا الاعمال بينهم •

وكان من نصيب صاحب الجريدة أن يكرس صحائف جريدته لكل ما يكتب في مدح المعارضة وذم الحكومة • وأخذ كل على عاتقه القيام بالهجوم من ناحية • وكان أكثر الجميع اهتماما بالدور الذى اسند اليه الدكتور ابراهيم ، فقد شرع بتنفيذ مهمته فور خروج زائريه ، فحبر مقالة ضافية ينتقد بها شؤون الزراعة • ولم يعتمد على احصاء أو تقرير أو بحث أو تحر ذاتي • فهو أكبر من أن يعتمد على مثل هذه الامور • والا فما فائدة الشهادة العالية ! ولم يكتف بمقال واحد بل كتب مقالة اخرى يتهم الحكومة فيها بالتقصير والاهمال ، الأمر الذى أدى الى حدوث الحادثة الفلانية والفلانية ، ولم يكتف بالكتابة في تلك الصحيفة بامضاء مستعار ، بل مضى يتحدث في كل مجلس بلهجة خطيب مصقع ، شارحاً نقائص الحكومة ، وتقصيرها ، وعدم اعطائها المجال للاخصائيين وحملة الشهادات للخدمة ، بحيث يترك السامع مرتاحاً الى فصاحته وبلاغته ، معتقداً أن عهد العراق الذهبي لابد أن يكون قريباً • وكثيراً ما يندفع رجل متحمس طيب القلب من السامعين الى التعليق على كلامه فيقول : « ها هم اولادنا قد عادوا من الغرب حاملين ثمرات العلم والثقافة لينهضوا بالبلاد نهضة مباركة » •

★ ★ ★

فرغ الدكتور ابراهيم ، المدير العام للشؤون الزراعية في وزارة الاقتصاد والمواصلات ، من كل واجباته اليومية التي لا تتعدى التوقيع على بضع رسائل رسمية ، فاتكأ على كرسيه ، واستغرق في تفكير عميق ، وعلى وجهه امارات الغبطة والانشراح والهدوء • لقد وثب وثبتين رائعتين في مدة وجيزة لا تتجاوز الاربعة أشهر ، وأصبح مديراً عاماً ، خطير الشأن ، ذا راتب يحسده

عليه كل أقرانه في السن والتحصيل ، ولم يكن لديه مـن الغـرور ما ينسيه الكيفية التى نال بها ذلك المنصب ، فلولا الوزارة التي اشتغل لها كثيراً لما كان يحلم بمثل هذا المنصب ، فكان حتماً عليه أن يفكر بأخذ الحيطة من غدر الايام وتقلبات الزمان ، فلو قدر لهذه الوزارة أن تسقط لسقط معها ، وذهبت كل مساعيه أدراج الرياح ، اذن فيجب عليه أن يحتاط للمستقبل ، ويحسب حساباً للمنافسين ممن سيتخرجون من مدرسته نفسها ، حائزين على نفس شهادته ، ويجب أن يحسب حساباً لأعدائه الذين اغتصب مراكزهم ؛ وداس على حقوقهم أثناء ركضه السريع نحو القمة ، فكان من الطبيعي أن يفكر في وضع خطة محكمة تقيه شر المفاجآت ، وينتهز كل فرصة لاحكام تدابيره ، وملافاة النواقص في خطته .

أما خطته فتنحصر في التعرف على أصحاب الشخصيات البارزة ، والاكثار من زيارتهم ، والكلام في حضرتهم ليحدث له أثراً محسوساً في عقولهم وأفئدتهم ، ثم الانتماء الى كل الجمعيات والمؤسسات الخيرية ، من وطنية او دينية او ثقافية ، ودراسة الانغام التي تطرب القوم ، ليضرب عليها في الاوقات الملائمة ، فيكون خطيب الساعة المصقع ؛ وكان من خطته المحكمة أيضا أن يكتسب ثقة اصحاب الصحف والجرائد المحلية ، وكانت طريقته في ذلك أن يشترك في كل تلك الصحف وينشر المقالات الضافية على صفحاتها ويوزع الاعلانات عليها توزيعاً عادلا ، وكانت اولى المواضيع التي كتب فيها تدور حول احترام اصحاب الشهادات ومنحهم الثقة المطلقة . ثم انتقل الى مشاريعه الجبارة لتلافى النواقص الزراعية ، تلك المشاريع التي يعلم هو وكل الناس انها ليست الا حبراً على ورق ، ولا يقصد منها سوى اقناع السذج بأن الرجل قد شرع ينفذ ما وعد بتنفيذه قبل تسنمه ذلك المنصب ، تلك المشاريع التي كان هو أول العارفين باستحالة تنفيذها . ولم يكتف بذلك بل كان يسرع في خدمة أصحاب هذه الجرائد عندما تتاح له الفرصة ،

كتوظيف قريب ، او ترفيع نسيب • وهكذا أصبح (خوش ولد) عند كل أصحاب الصحف • لا يخلو عدد من أعدادهم من التنـــويه بذكره ، وبث الدعاية له • وتوج كل هذه التدابير بالسيطرة على البعثات لدراسة فـن الزراعة ، بحيث لا تبعث الحكومة أحداً لهذه الدراسة دون اذنه وموافقته •

وبعد ان عرف القارىء تفاصيل خطة الدكتور ابراهيم ، لن يستغرب أن يراه عضواً فعالا في جمعية الشبان المسلمين لانه مسلم غيور على دينه ، وفي جمعية الشبان المسيحيين لان زوجته انكليزية متدينــة ، وفي جمعيــة (الفريمسن) لانه رجل ذو أخلاق عالية ، وفى نادى المثنـــى بن حارثــة الشيبانى لانه قومى صميم ، ويحمل حملات شعواء على الشيعة ويلقبهــم بالاعجام أمام المتعصبين من السنة ليكسب ثقة طائفته ، ويعترف أمـــام الشيوعيين بأنه كان شيوعياً عندما كان تلميذاً ، وقد تجرأ وسأله أحدهم مرة كيف يستطيع أن يوفق بين كل تلك المبــادىء المتضاربة المتناقضـــة ، والنوادى والجمعيات المختلفة الغايات • فأجاب وهو يبتسم : « ان ولى عهد انكلترة (البرنس اوف ويلز) كان يفعل كل ذلك » •

وسوف لن يستغرب ايضا ان يرى المرشحين للبعثات يمتازون بغباوتهم وقلة تحصيلهم وضعف بنيتهم ، فيذهبون ويعودون كما اتوا بعد ان يكبدوا خزينة الدولة مبالغ طائلة ، وبذلك يقوم البرهان على ان الدكتور ابراهيم عبقري فذ ، والا لما تمكن من تحصيل تلك الشهادة بمثل تلك السهولة •

وحدثت في أحد الايام حادثة أثارت سخط الدكتور ابراهيم وأخرجته عن طوره ، فقد تقدم اليه شاب يحمل شهادة تماثل شهادته بل تفوقها درجة، ومن نفس مدرسته ، طالباً عملا في دائرته • واستغرب أن يخترق هذا الشاب كل مصائده ويفلت من حبائله وهو غافــل ، وأراد ان ينحى عــلى نفســه باللائمة لولا ان عرف ان الشاب قد درس على نفقته الخاصة • فشعر كــأن كابوساً قد ازيح عن صدره اذ ليست الحكومة مجبرة على توظيفه في مثــل

هذه الحالة ، فاخبر الشاب ، وهو آسف ، بأن كـل المناصب في دائرتـه مشغولة بموظفين أكفاء ، ولم ينس ان ينصحه بتقديم طلب الى وزارة المعارف لتعيينه مدرساً للغة الانكليزية مثلاً •

وخرج الشاب غير يائس ، فهو عراقي صميم يعلم كيف يصبح المستحيل ممكنا ، والممنوع متبوعا ، وما هو ضد القانون قانونيا مشروعا • فالتجأ الى اهله واقاربه ، وأثارهم للبحث عن رجل كبير يتوسط بينه وبين هذا الدكتور الدكتاتور • ولم يصعب على هؤلاء ان يجدوا زعيمـا طيب القلب هو من اصدقاء الدكتور وممن يحسب لهم حساباً •

وغضب الدكتور عندما رأى ان علاقته برجل كبير على وشك التوتر بسبب هذا الاحمق الملحاح ، فلم يتورع من أن يكذب عليه ويقول : « لو أتيتني في غير هذا الطلب ، أو في ماهو أعظم منه لما ترددت في خدمتك،ولكن هذا الشاب شيوعى ملحد يريد الاتصال بالفلاحين لبذر الشيوعية بينهم ، فتعيينه في وظيفة زراعية ليس الا تمهيد الامر له ، ووضع سلاح قوى في يـده » •

وأصاب سهمه الهدف ، فقد كان الرجل شديد الكره لهذه الكلمة ، ولكل ما يتصل بها ، فخرج غاضبا وهو يقسم أن يطرد من كلفه بهذا التوسط طـرداً شنيعاً •

واضطر الشاب الى البحث عن رجل آخر لا يسهل خداعه ولا تنطلي عليه الاكاذيب بسهولة ليقوم بالمهمة التي فشل فيها الزعيم • فتوسط بصديق، وتوسط الصديق بصديق ، وتوسط الصديق الاخير بصديق آخر من عائلة ارستقراطية بارزة ، فكلف هذا أباه بالمهمة ، ولم ير الاب بأساً من القيام بهذه المهمة الخيرية لوجه الله • فقصد صاحب السعادة ، وطلب منه أن يفسح المجال لهذا الشاب الذكي ليحتل منصبا في دائرته • وعندها حنق الدكتور ابراهيـم ولعن الساعة التي ولد فيها هذا الشاب ، ورد على التماس زائره بقوله :

« وكيف اصطادك هذا الشيطان ؟ انه محتال ينتمي الى جمعية طائفية تسعى لفصل الجنوب عن الشمال والحاقه بالعجم ، فهل تريد مني ان اعطيه فرصة لنشر سمومه ؟ » .

وكان ذلك الرجل سنياً متعصباً ، يكره اتباع المذهب الجعفرى لاسباب كانت دينية ، ثم اصبحت قومية ، ولا نعلم ما ستصبح في المستقبل ، فانقلب على ذلك الشاب المسكين بدلا من أن يكون عوناً له .

وفهم الشاب أية أساليب دنيئة يكافحه بها هذا الرجل ففار الدم في عروقه وأقسم أن ينتقم لنفسه ، وأسرع الى دائرة الدكتور وقد اعماه الغضب، فدخل عليه بدون استئذان ورفعه عن كرسيه كما يرفع جرواً ، ورمى بـه الارض ، وأخذ يكيل له الصفعات والرفسات ، ولم ينقذه من يده الا أربعة من حجاب دائرته (المحترمة) . والقى الشـاب في غيـاهب السجن جزاء ما جنت يداه ، وقدم صاحب السعادة تقريراً مسهباً الى وزيره يشرح فيـه سبب هذا الاعتداء ويدعى ان حرصه وغيرته على صالح دائرته قد عرضاه لمثل هذه الاهانة ، وان هذه الحادثة ستزيد في صلابته ودفاعه عـن الحق ، وانه لا يبالى حتى بالموت في سبيل اداء واجبه ، وان التضحية لابد منها على كل حـال .

وأوحت له تلك الحادثة طريقة جديدة في التوفيق بين ارضاء النـاس والتخلص من المسؤولية ، فاذا تقدم منه رجل قوى الجانب يطلب خدمة فيها خطر على صالح دائرته ، ويشك في اغفال الحكومة لها ، يكلف أحد مرؤوسيه بانجاز المهمة بطريقة لا تلقى تبعاتها على عاتقه ، فاذا مرت الحادثة بسلام نال شكر صاحب المهمة وتقديره ، واذا افتضحت فالويل للمرؤوس المقصر .

هكذا اصبح صاحب السعادة ممن يضحون حتى بكرامتهم الشخصية، ويعرضون أنفسهم لاشد الاخطار في سبيل صالح الوطن ، مثال الدقـة والنشاط في عمله . يعلم الكل بأغلاطه ، ولكن لا صحيفة تنتقده ، ولاموظف

يحاسبه ، ولا جمعية تهاجمه ، ولا زعيم يسعى ضده • وعلى الرغم من تلك الانتصارات الباهرة التي احرزها الدكتور ابراهيم ، حامل اول شهادة في فن الزراعة ، في ميدان السياسة ، فقد بقيت حادثة اهانته والاعتداء عليه تنغص حياته • اذ دلته على ان كل تلك الاحتياطات لم تجعل منه رجلاً مهيباً مرهوب الجانب • فالراتب الضخم ، والمركز المحترم ، والسطوة ، قد تحيطه بالمداهنين والمتملقين الذين سرعان ما ينكشف زيفهم عند زوال النعمة وحلول النقمة ، ولكنها لا تكسبه شخصية محترمة • فأدرك انه يستحيل عليه أن يكون محبوباً ومحترماً ، وصاحب منصب عال في الوقت نفسه ، ففضل الامر الثاني • وكان بكل شخصيته وأعماله وسلوكه مثالاً حيا لبرج بابل من الرأس الى أخمص القدم •

الفصل الثاني

الدكتور ابراهيم يبعث حيا

« قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ،ثم ادعهن يأتينك سعياً .

تنسمت بغداد وقت العصر نسيماً ، رقيقاً ، رطباً ، منعشاً ، بعد أن كانت مختنقة في حر ظهيرةٍ مرهق .

واستقل زبائن المقاهى الخلوية في البساتين المنتشرة في الضواحى هذه الانفاس المباركة بارتياح وسرور ، فانبسطت نفوسهم ، وازدادوا ثرثرة وضجيجاً .

وراق لى ان اشارك الناس في هذه النعمة النادرة ، فقصدت احد هذه المقاهي ، وجلست تحت شجرة تفاح مورقة ، ذات ظل موروف ، جلسة استرخاء ، واغمضت عينى نصف اغماضة . وكان الجو رائقاً لا يعكره سوى ضجيج لاعبى النرد وصخبهم ، ولولا ذلك لكان المقهى احسن بقعة للشعراء والفنانين يستنزلون تحت أشجارها الوحي والالهام .

أنا ممن يؤمنون بان الكاتب يستطيع ان يستوحى كل ما تقع عليه عيناه ، فهو ناجح دائماً حيث يخيب الشعراء والموسيقيون والرسامون ، اولئك الذين لا يلهمون الا في ظروف نادرة ، وفي اجواء خاصة ، وتحت شروط معينة . واعجبنى أن أراجع هذه الفكرة وأمحصها ، اذ لست ممن يتعصبون لآرائهم . وما أسهل ان انبذ قاعدة ، كنت اعتمد عليها قبل يوم ، عندما يظهر لي بطلانها .

وبدا لي ان أناقش هذه الفكرة ، واهاجم أسسها . فقلت لنفسى :

« هو ذا جو منعش ، ومقهى عمومى ، وعدد كبير من المتحدثين لاعبى النرد . فما هو الموضوع الذى يلهمنيه هذا المشهد ؟ فلنجرب ، ونرهف السمع ، ولنر ما يكون » . ومرت بأذنى عبارات مبتذلة . وكلمات سخيفة،

وآراء مضحكة ، وحماقات مزعجة ، وشتائم مؤلمة قارصة • « أين انت ايها الوحي ، لتخلق من كل هذا الهذيان موضوعاً أدبياً ، او أقصوصة واقعية ، او رواية خيالية ؟ » • وتذكرت ذلك العـدد من الاقاصيص الصغيرة التي كتبتها ، والتى احدثت ضجة ، لست ادرى أهي ضجة استحسان ام ضجة استياء ؟ لقد كانت من جملة ما حصلته من وحى المحيط والواقع • صور كريهة منفرة قد جمعت اشتاتاً مما خلق الله من مسـاوىء ، وممـا ابتكرته الشياطين من شرور وآثام •

ولم تخل اجمل الصور فيها من منفرات تشوه جمالها وتكون قـذى في صفاتها • ولكن ما ذنبى أنا ؟ انى استوحى الواقع ، فيحق لى ان اعتذر كما اعتذر زولا الى من ذكر مثل هذا العيب في قصصه بقوله : « وما ذنبى انا اذا كنت اصوركم ؟ اعطونى محيطاً كاملاً اعطكم قصصاً جميلة خاليـة من كل شائبة » •

ولكن لماذا لا أناقش زولا ايضا ؟ اتراه قد أحسن بانزاله فن القصة من سماء الخيال الى أرض الواقع ؟ والواقع انى قذفت زولا ، ولست أعـلم أأحسنت ام اسأت ! فانا من المغالين في اتباع هذا المذهب ، لا اكاد اضع تصميم اقصوصة حتى اتذكر الحادثة الفلانية والفلانية ولا أهيء الاصباغ لرسم بطل من الابطال حتى أكون قد سرقت صفات فلان ، ووجه فـلان ، وقامة فلان ، وفلسفة فلان ، وعقلية فلان ، وكم حاولت ان انتزع نفسى من عالم الواقع لأطير في اجواء الخيال ولكن عبثاً ، كنت احاول ، اذ لا اكاد ابتعد عن الواقع حتى يهتف منطقى العلمى في وجهى ساخراً ولا يزال بى حتى يقنعنى بانى سأبلغ ذروة السخف بارتفاعي هذا • وعندئذ أميل الى ان ألعن زولا !

ولكن هل الذنب ذنب زولا وحده ؟ أم ذنب نشأتي العلمية ، وقضائي زهرة عمرى ، في دراسة نظريـات فيثاغورس ، واقليدس ، وارخميدس ،

وبويل ، ومن لف لفهم ؟ لقد كانت دراسة متقنة عن رغبة وولع ، فيها ثقة وايمان . اما كان الاجدر بى ، ما دمت مولعاً بالقصص الى هذا الحد ، أن أتفرغ لدراسة الادب ؟ وهنا نهض منطقي يرد علي : « أحمق . أحمق انت. لو فعلت لكنت واحداً من اولئك الادباء المساكين الذين يفكرون بعقول ادباء الجاهلية ، ويترنمون بالصحراء والغزو ، ويتباهون بالدعوة الى ثريد ، ويضعون الملاحم لوصف حروب طاحنة كانت اسبابها بقرة او جملاً ، او ممن يحذقون الكذب والمبالغة ، ويحطمون كل مقياس شريف للاخلاق ، وفوق ذلك كنت تموت جوعاً . هذا اذا فرضنا المستحيل وتمكنت من ان تخرج ما تسمى به أديباً » . وشعرت بالمضايقة والنفور من هذا المنطق المقنع ، وتمنيت لو استطيع ان انساه ، وفي مثل هذه الظروف تتنبه غريزة الخوف من المجهول . الكامنة في أعماق نفسي فترد على المنطق : « انك تمهد له طريق اقتباس كل شيء من الواقع : الصفات ، والاسماء ، والالوان ، والحوادث ، دون أن تبالى بامكان وجود من تنطبق عليه بالصدفة صفات بطل من الابطال ، فيثور هذا لكرامته ويقاضيه بتهمة التشنيع والتشهير بالناس ، مستنداً الى اقصوصة انتقادية ، بعد ان يبرهن على انه هو المقصود ، لان الصفات تنطبق عليه ، دون زيادة او نقصان . كم تكون ورطة جميلة حينذاك ! وكم سيضحك القضاة والمحامون والمشاهدون عندما يرون هذا الذى يستطيع ان يكتب القصص ، وينال اعجاب البعض ، وقد انعقد لسانه فلا يحير جوابا ، لأنه يعلم انه لو قال ان الامر حدث صدفة لكانت سخرية الاجيال ، ونكتة لا تنسى . انك تكون قد برهنت حينذاك على أنك جدير بأن تكون في جمجمة حمار ، لا في رأس انسان ، ويجيبه المنطق : « من حسن حظه انك خامل منزو في نفسه لا تسمعه صوتك الا في القليل النادر ، ولولا ذلك لما استطاع ان يكتب سطراً . انت ايها الخوف اكبر نكبة على بنى البشر » .

ومضى المنطق والخوف يتجادلان ويتشاتمان حتى وقفا فجأة ، وكان ذلك عندما اتنبهت الى رجل قد سدد خطاه نحوى ، يظهر من هيأته انه يقصدني ، شديد السمرة ، مدبب الانف ، اسود العينين براقهما ، اسود الشعر ، أنيق الهندام ، نحيف البنية في ميل الى الطول ، يسير بخفة وحذر ، ويراقب الناس بزاويتى عينيه دون ان يظهر عليه انه يراهم ، ترى ظل ابتسامة دائمية خفيفة على وجهه • وسكت المنطق وصاح الخوف منتصرا : « انك تعرف من هذا ، أليس كذلك ؟ لقد كان في رأسك عندما وضعت احدى أقاصيصك • انك تعرفه جيداً » • يا الهى ، هو بعينه ، بكل أوصافه وحركاته • وكدت أتوهم ان الخوف قد صور لى هذا الرجل تشفياً ونكاية ، ولكنى سمعت الرجل يحيينى : « مساء الخير » • وتحركت في مجلسى ثم رددت تحيته ، وطلبت اليه ان يتفضل بالجلوس ، فجلس وقال :

« ما كنت ادرى ان انساناً يعرف عنى اكثر مما اعرف أنا عن نفسى ، قبل أن أقرأ اقصوصة (نجوم القمة) في مجموعة (برج بابل) » • ورأيت يده تمتد الى جيبه فتخرج منه بنسخة من برج بابل • وسألته متلعثما : « لا أظنك الا مازحاً ؟ فلم يكن لى شرف رؤيتك قبل الآن » • فضحك عن اسنان ناصعة بيضاء وقال : « رغم ان الاقصوصة مقتضبة مختصرة ، الا انها كافية الدلالة عليّ • ان كل ما فيها من وصف ينطبق عليّ تمام الانطباق » •

ورأيت من لهجته انه لا يمزح ، فسألته : « لم اتشرف بمعرفة اسمكم الكريم ؟ » • فقال : « ولماذا تسأل عنه وانت تعرفه ؟ » • أنا الدكتور ابراهيم ! ابراهيم اسماعيل دكتور في العلوم الزراعية من جامعة لندن ، وقد تزوجت هناك ، ولي طفلان » • فقلت : « ولكنك لم تكن مدير الزراعة العام » فضحك وقال : « انك لا تستطيع التملص حتى بهذا ، فقد كنت في سنة ١٩٣٤ مديراً عاماً للزراعة ، وكنت اسلك عين الطريق الذى ذكرته ؛ وقد ضربنى احدهم مرة ، وان كنت لا تصدق فهاك قصاصة من جريدة قد

نشرت الخبر في حينه » وتناولت القصاصة ، وقرأت النبذة الآتية : « اعتدى المدعو محمد عارف على الدكتور ابراهيم ، في دائرته ، بسبب مشادة حدثت بينهما ، من جراء عدم اجابة سعادة الدكتور ابراهيم هذا الشاب الى طلبه وتوظيفه في دائرته » • ونظرت الى وجهه فرأيته يضحك ويقول : « ولكنك تعرف اكثر من صاحب الجريدة ، فقد رويت حتى الحديث الذى كان يدور بينى وبين الذين كانوا يتوسطون للشاب لتعيينه في دائرتى • ومن هذا الحديث فقط علمت انك كنت تكتب اقصوصة خيالية ، وأن الصدفة الغريبة هي التى ساقتك الى ذكر تفاصيل الحادثة ، وذلك لان أحد الذين توسطوا بينى وبين هذا الشاب مات عند خروجه من الدائرة ، فقد اصطدمت سيارته باحد اعمدة الشارع فارتطم رأسه بزجاج السيارة وجرح جرحاً بليغاً ، ثم اغمى عليه ولم يفق الى الابد • أجل لقد مات دون ان يطلع احداً على نص المحادثة التى جرت بيننا والتى نقلتها بنصها تقريباً » ، وكان موقفى مضحكاً، وكنت في حال لا احسد عليها ، ولم يسعنى الا ان اقول : « يا سيدى لا اعرف كيف اعتذر اليك ، فيا لها من ورطة غريبة ! انك لا تريد ان تتخذ شيئاً من الاجراءآت ضدى ، اليس كذلك ؟ » • فضحك وقال : « انك تكتب عنى ، وتحلل اخلاقي ، وتصف فلسفتى في الحياة ثم تلقى عليّ من الاسئلة ما يدل على انك اجهل الناس باخلاقي • هل تظن ان الدكتور ابراهيم، وهو الحاذق الماهر في حبك الدسائس ، يفضح نفسه بمثل هذه الطريقة السخيفة ؟ وفيما عدا ذلك ، ما الفائدة من مقاضاتك ؟ لقد تركت الوظيفة بعد ان توافر لدى من المال ما يفوق ثلاثة امثال مجموع رواتبى في مدة خدمتي• وامثالك لا يجهلون الطرق التى يحصل بها الانسان على أمثال هذه المبالغ • ولدي مساحة كبيرة من الارض أعمل في زراعتها ، فتدر عليّ دخلاً وافراً• انك لم تذكر ذلك ، لانك تكتب اقصوصة لا قصة كبيرة ، والا لفضحت ذلك أيضا • ومع انك لم تذكر كلمة سوء جارحة ضدى في كل اقصوصتك سوى كلمة « جرو » فقد غاظنى ان تفضح اسلوبى وفلسفتى في الحياة وتشرحهما

بمثل هذه الدقة • وقد اغضبنى ذلك لسببين : اولهما ان نجاح مثل هــذا الاسلوب يتوقف على جهل الناس به ، فيسهل وقوعهم في المصائد ، وثانيهما انك قد اعطيت درساً يغرى الآخرين باستعمال عين السلاح • فترى من هذا انك قد اسأت الي" والى امثالى القلائل • ولابد من الانتقام منك • وانت تعلم كيف ينتقم الدكتور ابراهيم ! ولكى أوفر عليــك مؤونــة التفكير سأخبرك كيف انتقم • ان الدكتور الجمالى ، وهو احد كبار موظفى الدائرة التى تعمل فيها ، قد اعتُدِي عليه ايضا • سأذهب اليه وأقول له : « ان هذا الشاب قد اغتاظ من عدم اسناد وظيفة مهمة في وزارة المعارف اليه ولهذا فقد سبك قصة ذكر فيها حادثة يعرفها الناس عنك ، وسبك معها حوادث اخرى تحط من قدرك وتمس كرامتك ، فيجب أن تؤدبه » • فاعترضت عليه بقولى : « وهل تظن الرجل ساذجاً الى هذا الحد ؟ وهل يمكن ان يقوم بالاجراءآت تنبه الناس اليه ، وتسوقهم الى الاعتقاد بأنه هو المقصود بهــذه الاقصوصة ؟ • لو فعلتها لأسأت الي" اساءة عظيمة ، ولكان انتقامك شــر انتقام ، لأنك ستفضح رجلاً (فاضلاً محترماً) « فأجابنى ، وهو يتأهب للقيام : « وبذلك أكون قد انتقمت ، وبرهنت للناس على ان الدكتور ابراهيم هو الدكتور الجمالى وليس أنا ، وبهذا فقط يقوم الدليل عندك على أنى انا الدكتور ابراهيم بكل صفاته واخلاقه » • فقلت له : « ولكنه سيكون دليلاً قاطعاً على أن الدكتور الجمالى ليس هو الدكتور ابراهيم ، فهــذه الحادثة ستبرهن للناس على انه رجل ساذج يقع في المصيدة بكل سهولة ، وليس ذلك من صفات الدكتور ابراهيم الدساس الحاذق » فأجابني : « أن هذا المنطق لا يفهمه غيرك • سأراك غداً في هذا المكان وفي مثل هذه الساعة • وداعاً والى اللقــاء » •

وانسل الرجل ، كما أتى ، بخفة وحذر لم يثر انتباه أحد ، ومضــى يفحص الجالسين بزاويتى عينيه ، كأنه لا يراهم ويبتسم دون ما ســبب ، ابتسامة الواثق بنفسه المطمئن الى قوته •

الفصل الثالث

الدكتور ابراهيم ينتقم

« احمق هو ذلك الذي يحقد على الحية لانها
تلدغ ، وعلى العقرب لانها تلسع »

وفي عصر اليوم الثاني ، وفي تلك الساعة التي انبعث فيها الدكتور ابراهيم ، من عالم الخيال الى عالم الحقيقة ، بشراً سوياً ، كنت جالساً في عين المقهى ، أنتظره بشوق ملح • وفي عين لحظة ظهوره في اليوم السابق لمحته مقبلاً بخفة ، وعلمت انه ينظر الى ناحيتى ، وما كان في وسع غيرى ان يلاحظ ذلك • وتلقيته باشاً مرحباً ، وقد بدأت أشعر بشيء من الارتباط بهذا المخلوق الذى يخيل الي انى قد خلقته خلقاً • وسألته : « لعلك تحب ان تعرف نتيجة مسعاك ؟ »

فتألق وجهه ، وبرقت عيناه ببريق الانتصار ، وقال : « طبعاً ، اذا لم يكن في ذلك ما يسوؤك » •

واخرجت من جيبى تحريري وزارة المعارف الرسميين ، اللذين تلقيتهما صباح ذلك اليوم ، ومددت يدى بهما اليه ، فتناولهما بلهفة ورفع صوته يقرؤهما : « ••• بناء على نشر السيد ذنون ايوب ، المدرس في المدرسة المركزية المتوسطة ، ما يمس بكرامة كبار موظفى هذه الوزارة ، وان هنالك من الاسباب ما يجعل سلوكه غير مرضٍ ، فقد قررنا توبيخه وفق الفقرة (أ) من المادة الثامنة من قانون انضباط موظفي الدولة • رقم (٦٩) لسنة ١٩٣٦ » • ثم قرأ التحرير الثاني بنفس النبرة : « ••• وافق معالى الوزير على نقل السيد ذنون ايوب ، المدرس فيالمدرسة المركزية المتوسطة الى كويسنجق براتبه الحالى وقدره (٢٥) ديناراً ، اعتباراً من تاريخ صدور هذا الامر » • ثم تطلع نحوى وقال : « هذا فقط ؟ » •

فأجبته مستغرباً : « وماذا كنت تنتظر اكثر من هذا يا سيدي ؟ » •

فأجاب : « في استطاعتهم ان يفعلوا اكثر من هذا بكثير • فمن حقهم

اخراجك من وظيفتك لمدة مؤقتة او دائمية ، حسب قـانون الذيـل ، بدون محاكمة ولا سؤال ولا جواب . ولو كنت في محلهم لما اكتفيت بهذا التحويل والتوبيخ ، ففى استطاعتى حينئذ أن اتهمك بشتى التهم ، وارمى بك في السجن. من المؤسف ألا يكون امثالى مسيطرين على الوظائف الكبيرة في الدولة ، فى مثل هذه الظروف . ان في استطاعتى ، بمعونة عشرة من امثالى ، ان انقذ الدولة ممن يتعبونها ، ويثيرون القلاقل فيها ، وينبهون الناس الى اغلاطها . ان الحكومة تتوق كثيرا الى الاستقرار . انها تستعمل طرقا شريفة للوصول الى غايات دنيئة أو طرقاً دنيئة للوصول الى أغراض شريفة . انها في فوضى . حتى الشر في هذه البلاد لم ينظم على قاعدة ، وكثيرا ما يأتي بنتائج حسنة » .

وسألته : « خبرني بربك ، هل قرأت ميكيافيللي ؟ » فأجابني : « ومن ميكيافيللى هذا ؟ انى لم أقرأ شيئاً بعد انهاء دراستي . ولـن أقـرأ شيئاً في المستقبل ، ولولا وجود ما يخصنى ويخص امثالى في كتبك لما قرأتها ايضا . لقد نلت اعجابى لانك قد فهمت هذه الاساليب ، وتحدثت عنها باسلوب يدل على انك قد قتلتها درساً وتمحيصاً ، وعلى الرغم من لهجتك العلمية في روايتها وتشريحها ، فانى اشم رائحة الكره والنفور مما تسميه مساوىء . انك تسوق الحديث بطريقة تجعل القارىء ينفر من البطل الفلاني ولا يعلم لماذا ينفـر ، ويحب الشخص الفلاني ولا يعرف لماذا يحبه . ولو خدم امثالك الشر لنالوا ما يحسدون عليه » .

فسألته : « اتعنى ان اكون فناناً فاخدم الشر » ؟ » فاجاب : « أجل . اريد منك ان تتبع نفس هذه الطريقة في مدح اساليبي » .

فقلت : « وهل تظن ذلك ممكناً ؟ ان الفن اذا خلا من غاية سامية ، ومقصد انساني ، واصطبغ بالانانية والاغراض الشيطانية فَقدَ ميزته » .

فقال : « انى لا افهم هذا المنطق . ان العالم في نظرى ميدان للكفاح والصراع يفوز فيه من كان أقوى من غيره سلاحاً وأوسع حيلة . وسلاح الانسان عقله وقابلياته ومواهبه ، ومن الواجب عليه ان يسـتعملها كلهـا

للوصول الى أهدافه ، والا كان ناقصاً او مريضاً • لقد استخدم البشر أسمى الغايات وأحط المبادىء • استخدموا الدين والآلهة وفكرة الخير نفسها في سبيل الوصول الى اهدافهم ، وما المثل العليا والفضيلة الا اسلحة ماضية بها يستولى الحاذق على زمام السذج والضعفاء ويقودهم الى حيث يريد » •

فسألته : « ولكن ما هي غايتك ، وما هو هدفك في الحياة ؟ » •

فضحك وأجاب : « غايتى كما ترى ، ثروة طيبة وزوجة مخلصة واسرة هادئة واسم كبير استطيع به أن أوقف من يريد مهاجمتى واغتصاب ما بيدى عند حده ، واذا استطعت ان أنال اكثر من هذا فلست بالمقصر » •

فقلت : « ألا خبرنى ، هل تعتقد بان كل الناس على شاكلتك لهم في الحياة عين آرائك ونفس اهدافك ؟ » •

فاجاب : « لا ، طبعاً ، هناك كثيرون يضحون ويقاسون ليحصلوا على التعاسةأو الموت، وهؤلاء ليسوا الا مجانينفي نظري• وقد تكونانتاحدهم»•

فسألته : « وماذا تسمى اولئك الذين يعتقدون بأن الدنيا مسرح للذائذ والخيرات ، وأن في استطاعة البشر جميعاً أن يعيشوا مكتفين من المأكل والمشرب والملبس وغيرها من الضروريات ، دون حاجة الى اتعاب اذهانهم ، واجهاد اعصابهم بابتكار طرق الشر واثارة الاحقاد ، وان الجشع في الحاجيات كالنقص فيها كلاهما مضر ، فكلما امعن الانسان في احدهما قرب من الهلاك ، وان السعادة كل السعادة في نيل المقدار الطبيعي منحاجيات الحياة دون زيادة او نقصان ، والسعى بصورة عامة لتقليل ساعات العمل ، وتكثير الانتاج ، ليجد الانسان من الفراغ ما يسمو به الى ذروة الكمال ويبعده عن حياة الوحوش ؟ وماذا تسمي اولئك الذين خلقوا وفى طبيعتهم ميل الى التضحية ، في سبيل تحقيق هذا المبدأ ، وغايتهم الوصول الى هذا الهدف السامي ؟ واذا ماتوا في الطريق ماتوا وعلى شفاههم ابتسامة سعادة لا يحلم بها أمثالك طوال حياتهم ؟ » •

فأجاب ساخراً : « هؤلاء هم الحمقى والمجانين ، الذين يسمون انفسهم أنبياء ومصلحين • ان هؤلاء قد أفنوا حياتهم في خدمة امثالى في الحقيقة لا في خدمة البشرية • لقد رفعوا نفوس الناس فوق الواقع حتى أفقدوهم ميزة التدبر ، وبعد النظر ، وعلموهم القناعة والرضا باليسير والتضحية في سبيل المبادىء • فتركوا امثالنا يحكمون الدنيا ويحركون كل هذه القطعان باشارة من اصابعهم ، وهم مستترون وراء هذه الآراء السامية • وكلما زاد البشر قناعة وتضحية ازددنا بطراً ورفاهاً » •

فقلت : « واقتربتم من نهايتكم » •

فقال : « انت حالم مثلهم » •

فقلت : « وانا مؤمن بهذا الحلم » •

فضحك وقال : « اذن فلا تضارب بين مصالحنا مطلقاً • انت تدعو الى المثل العليا والفضيلة وفي ذلك لذتك في الدنيا • وأنا اسمى عملك سخفاً• ولكن فيه فائدة لى • فلا اعتراض لاحدنا على الآخر ولا تضارب بين مصالحنا، فمن الممكن ان تكون صديقين حميمين ، فالمصادقة الوحيدة في نظري لا تكون الا بين اثنين لاتضارب بين مصالحهما ولا يسعيان الى هدف واحد• فما رأيك؟» •

فاجبته : « رأيى كرأيك ، ولكنى لا اعتقد أن صداقتى لك غير قائمة على مصلحة فيما يخصنى لانك انسان عجيب جداً ، أنا أدعى بأنى فنان • وهذا الادعاء يجعلني اعتبر امثالك لقطة ثمينة لا تجود بها الصدفة الا نادرا » •

فمد يده ومددت يدى وتصافحنا وكأننا قد التقينا لاول مرة •

وأعاد الي ّ التحريرين فأعدتهما الى جيبى وعاد يقول : « عقوبتك اذن عقوبتان : عقوبة تحويل ، وعقوبة توبيخ ، والاخيرة منهما تؤخر ترفيعك سنة واحدة • انها عقوبة مؤذية حقاً ، ولو انها غير كافية » •

فضحكت وأجبت : « اما التوبيخ فغير قانونى وسيفقد اهميته بعد سنة اذا لم ترفعه عنى الدائرة ، واما التحويل فلى فيه مآرب كثيرة ، اذ سيرغمني على ترك بغداد وضوضائها ويخلصني من مشاكل البيت ومزعجات

الاطفال • وسأكون في هذه البقعة الجبلية في اتم الاستعداد لارضاء روح الفن • وارجو أن اكتب هذه المرة شيئاً يرضيني اكثر مما يرضى الناس • ولكن الاساءة الوحيدة في كل هذه الوشاية هي انك قد اوهمت بعض السذج والحمقى بأني خبيث مثلك ، اكتب لاغراض تستتر وراء الكلمات والسطور• وستكون هذه الحادثة سبب افتضاح انسان لا ناقة له في الموضوع ولاجمل، وستكون مصدر ضرر كبير له • ومع انك كنت السبب • فان فنى كان هو الواسطة ، كما لا يخفى عليك • وانا انسان اسعى للاصلاح ، لا لزيادة المشاكل وتعقيد الامور » •

فقال : « بهذا تبرهن لى على انك فنان ، كما برهنت لك على انى انا هو الدكتور ابراهيم • ولكن لماذا لا تتخذ منى ومن حياتى نموذجاً لقصة كبيرة ، وسأساعدك جهد المستطاع ؟ » •

فقلت : « ولكنك تخشى ان تفضح اساليبك » •

فقال : « لم تبقِ شيئاً مستوراً منها في اقصوصتك • ولكن هذا الاقتضاب في الاقصوصة ليس من صالحى فقد يكون في التفاصيل ما يقلب اتجاه اقصوصتك او يكون فيها مجال للدفاع عنى ، وما دمت مجنوناً بتتبع الحقائق فانى واثق بانك لن تتحزب ضدى • وقد تكون في النتيجة من صفى • سأسرد لك الحوادث ولك أن تستعمل قلمك في ترتيبها وتنسيقها ومزجها بالفن ، فهل ترضى ؟ » •

فأجبت : « أنا ممن يعتقدون أن كل شخصية وكل حادثة يمكن ان تكون مصدرا للالهام في فن القصة او الاقصوصة ، وأنت شخصية غير اعتيادية ، ففى الامكان انتكون نموذجا لقصة جميلة ترضى ذوقي وخيالى »•

فقال : « اذن اتفقنا • انى ادعوك الى العشاء هذه الليلة بمناسبة هذا التفاهم الذى تم بيننا • وسأقدمك الى زوجى وطفلىّ سترى اسرة الدكتور ابراهيم وتعرف بعض ما يتعلق بالدكتور ابراهيم الحالى قبل ان تخوض في سيرته ، وتروى تاريخ حياته • هيا يا صديقي » •

الفصل الرابع

اسرة الدكتور ابراهيم

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

اختفت سيارة الدكتور ابراهيم في منعطف من الطريق كأنها تتقى نظرات الحاسدين وكيد الماكرين ، وكانت سيارة أنيقة من طراز جميل . وقلت له ونحن نتبوأ مقاعدها الوثيرة : « لعلك لا تريد أن يرى الناس مخائل النعمة عليك ؟ » فاجاب : « ان النعمة توقظ الحسد في النفوس وتعرض ذويها لمناوأة الخائبين في الحياة وأذاهم وليس من الحزم ان يكثر الانسان من أعدائه ، لمجرد هذه الرغبة السخيفة في الظهور . انى مثرٍ وعندى سيارة فخمة وقصر منيف وانا اتمتع بها كلها ، فما فائدة اعلان كل ذلك للناس ؟ ان الانسان العاقل لا يحاول امراً دون ان يرجو من ورائه نفعاً، او يتقى به ضرراً » .

ووصلنا الى دار الدكتور ابراهيم او قصر الدكتور ابراهيم . وكان في ضاحية جميلة ، لا يدل ظاهره على ما يحويه داخله من اسباب النعمة والرفاه . ويظهر ان كل ما يتصل بالدكتور ابراهيم ، او يدخل تحت سلطانه يكتسب صفة التستر وعدم الظهور . وتلقانا قرب الباب طفلان لا يزيد عمر اكبرهما على الثماني سنوات وعمر اصغرهما الخمس . وما كدنا نستقر فوق المقاعد الوثيرة في غرفة الاستقبال الفخمة حتى دخلت صاحبة الدار ، زوجة الدكتور ابراهيم . فنهضنا لاستقبالها وقدم لى الدكتور زوجته فمددت

يدى أصافح يدها الناعمة البيضاء . والقيت على وجهها في تلك اللحظة نظرة خاطفة فالتقت نظراتى بنظراتها الرقيقة المنبعثة من حدقتين زرقاوين ذواتى لون فاتح . وكان وجهها رقيقاً وشفتاها رفيعتين في طول لا يتناسب مع رقة الوجه ، وصغر الانف . وكانت رشيقة القامة لا تزيد في الوزن عن الدكتور ابراهيم ولكنها أطول منه قامة . وكانت تتكلم بقوة وتنظر في عين الانسان رأساً وتسوق الحديث بصراحة ودون تستر ، وبذلك تبرهن على انها ليست من اتباع الدكتور ابراهيم والراغبين في فلسفته . ورغم رقتها وأدبها ، فقد كان في مظهرها ما يدل على اعتزازها بجنسيتها ، واحتقارها لجنسية زوجها . وكانت لهجتها عند توجيه كلامها الى زوجها وطفليها أشبه بالاوامر الصارمة. وجلست بجانبي وافتتحت الحديث : « اذن فأنت مولع بكتابة القصص ؟ » .

فأجبتها : « ولعاً يكاد يصل الى درجة الغـرام ، وأميـل الى النوع الواقعي منها . »

فابتسمت وقالت : « هذا جميل ولكنه خطر في بلادكم . ان ارقاكم هنا متعصب ضيق الصدر لا يزال تحت تأثير الخرافات والاوهـام ، حتى ابراهيم لا زال رغم قضائه مدة كبيرة في انكلترا وبقائه معى عـدة سنين ، متعصباً بعض الشيء لعاداته وتقاليده . انه يخاف من انتقاد اهله ورجعية المحيط . وقد يضحكك ان تعلم انه اراد أن يفرض عليّ لبس العباءة عند وصولي الى هذه البلاد ولكنى اوقفته عند حده . وقد كان واهماً في حدسه اذ لم يخسر شيئاً من جراء هجوم اعدائه عليه من هذه الناحية ، فقد حمته السلطة الانكليزية واخذت بيده في كثير من المواقف ، ولا زال يتمتع بثقـة عدد كبير من كبار موظفى الانكليز في العراق وصداقتهم . ان الاحوال في بلادكم ليست على ما يرام ، واعتقد ان السياسة في بلادكم تسير من سيء الى أسوأ ، ويوم نشعر بالخطر سنرحل الى انكلترا ، ونعيش هناك . واظن ان انكلترا ستكون وطننا الحقيقى في نهاية الامر . اننا نقتصد كثيراً وندخر مقداراً كبيراً من الدراهم لهذا اليوم العصيب » .

وكانت باندفاعها ذاك في الكلام قد فضحت الكثير من عواطفها نحو وطن زوجها وقومه . وفضحت قسماً مهماً من خطة الدكتور المتستر ، ورأيته ينظر نحوها مستاءً وأراد أن يتلافى ما احدثه كلامها في نفسي من اثر سيء فقال : « لا تصدقها يا استاذ في كل ما تقول . ان سبب كرهها الموقت لهذه البلاد هو ما لاقته من تعصب أبي واسرتي وعدائهم . انها لا تحتمل رؤيتهم فقد حملوا عليها حملة شعواء ، وأنت ادرى الناس بنظرة رجل متدين متعصب يلبس الجبة والعمامة الى امرأة انكليزية . لقد قاطعونا بتاتاً ، واني لمسرور بمقاطعتهم هذه، فقد انهت المشاكل بيننا . انها ذات طبائع غريبة كقومها الانكليز ، فلم تكد تضع قدمها هنا حتى بدأت تدور في الاحياء المنحطة كأنها كولومبس يكتشف العالم الجديد . وقد اسمعها بعض العامة في احد هذه الاحياء كلمات قارصة وهم يظنونها تجهل العربية ، وبصقت عليها طفلة مرة اخرى . وكان عليها ان تتجنب هذه المحلات الموبوءة فتكفي نفسها مؤونة الحقد على هذه البلاد » .

ورغم ما في كلامها وكلامه من امتهان لكرامة هذا الشعب فلم اشعر بغيظ نحوهما بل وجدت في ذلك برهانا على حمق الاثنين واعوجاج نفسيتيهما .

وأردت ان افحمهما فقلت للسيدة : « لو فرضنا ان عربياً يرتدي الكوفية والعقال ، ويسير حافي القدمين متنكبا هراوته يدخل أحد محلات الرعاع في لندن Slums فماذا يفعل به اطفالها ؟ » .

فضحكت وقالت : « ولماذا تذهب به الى محلات الرعاع ؟ لو عثر به شرطي في اى محل كان لذهب به الى حديقة الحيوانات » .

فاجبت : « ها قد اعترفت باننا نحن العرب اكثر منكم معشر الانكليز ايماناً بالحرية الشخصية والحقوق الطبيعية واوسع منكم عقلاً » . فبهتت وقالت : ولكن « كيف اعترفت ؟ » .

فأجبتها : « ان اعرابياً في لندن لا يبدو غريباً اكثر من انكليزية شقراء جميلة مثلك تسير عارية الساقين والذراعين مكشوفة الرأس والوجه في

هذه الاوساط التي يحرم بها على المرأة ان تكشف وجهها ، وقد اعترفت بأن الاعرابي يساق الى حديقة الحيوانات في بلادكم ولكن أحداً لم يسقك هنا الى حديقة الحيوانات ، وحتى في أحقر اوساطنا » .

وقاطعني طفلها الصغير ، وكان يصغى الى حديثنا بانتباه : « ولكـــن لا يوجد في بغداد حديقة للحيوانات » وضج الاب بالضحك وقال : « لقد افحمك الصغير » والتفتت الام اليهما مستاءة وقالت : « لابد ان يرث الطفل شيئاً من صفات ابيه » .

ودخل في تلك اللحظة رجل انكليزى طويل القامة عريض المنكبين جميل الوجه ، وهتف الطفل الكبير عند رؤيته : « هلــو كولونيل ماكدونالد ، ستكمل لى قصة مخاطراتك في صيد النمور في الهند . أليس كذلك ؟ » .

وحيا الكولونيل الحاضرين ، وقدمتنى اليه ربة البيت : « صديق زوجى . انه من طراز يعجبك ؛ يدافع عن العرب ويكتب القصص . هــو يشبهك في ذلك » .

وانبسطت اسارير الكولونيل وقال وهو يضغط على يدي بيده القوية : « مسرور برؤيتك » .

واضافت ربة البيت : « لقد ظننته انكليزيا لاول وهلة خصوصاً وهو يرتدى القبعة . ولكن سرعان ما تبدد وهمي بعد ان رأيته يدافع عن أبناء قومه بحرارة » .

وقال الكولونيل : « ولكن لماذا تحلق شاربك وتلبس القبعة ما دمت مولعــاً ببنى قومك ؟ » .

فاجبته ضاحكا : « حتى ابرهن على ان الفرق بين الانكليزى الذى يدعى التمدين والعربى ، المتهم بالهمجية ، ليس الا قبعة وشارباً » .

وصادف كلامي هوى في نفس الكولونيل فصاح ضاحكا : « ارى انك موفق في برهانك » • ثم اندفع مستطرداً : « لقد عشت بين بعض القبائل البدوية مدة من الزمن ، وبين العشائر الكردية ايضا ، كما عشت بين قبائل كثيرة من الهنود والزنوج والصين واقسم لك انى لم ار في حياتى ابسل من الفرد الكردى او العربى من سكان هذه المنطقة • ان نشر الحضارة والتعليم في هذه البقاع كفيل بجعل هذه الاقطار من أرقى اقطار العالم • ولكن الغريب ان كبار رجال هذه البلاد يجهلون ما أعرفه أنا ، ولا يؤمنون بهذا الشعب بقدر ما أومن به أنا » •

فاجابت السيدة : « ذلك لانهم اكثر خبرة به منك » •

فاعترضت : « لا ياسيدتي ان بين هؤلاء وبين الشعب هوة عظيمة لا يمكن اجتيازها انهم يحتقرون الشعب العراقي اكثر مما تحتقرينه انت ، ويحتجون لتبرير كراهيتهم بحجج أوهى من حججك • انهم يكرهون الشعب ، ولكنهم يتبجحون دائماً بالدفاع عنه ، وكلامهم في الحالتين لايتعدى الكلمات الجوفاء التى لا تحوى معنى » •

وقال الدكتور ابراهيم : « لقد قدم الكثيرون من الزعماء خدمات كبيرة للبلاد فقوبلوا بالجحود • فمن حقهم الا يثقوا بالشعب ومن حقهم أن يتوقعوا اضمحلال هذه البلاد ومصيرها الى الزوال » •

فقلت : « ان هؤلاء لم يخدموا غير انفسهم ، ولم يقدموا خدمة ما للشعب • انهم لا يعرفون قابليات هذا الشعب ، انهم لا يختلفون عن المستعمر الا في كونهم يحسبون انفسهم من ابناء البلاد ، وفي كونهم يجهلون طباع اهلها جهلاً مطبقاً • ان وجودهم نعمة على من يريد استعمار هذه البلاد • لقد اساؤا الى الشعب اكثر من هذا • لقد وضعوا كل العراقيل امام من يبغى خدمة صحيحة ، ويتوق الى رؤية هذه الاقطار ترفل في حلة من الرقى والسعادة » •

وابتسم الدكتور ابراهيم ابتسامة خبيثة وقال بعربية فصيحة وبصوت خافت : « انك تبدي ثقة بالدكتور ابراهيم وانت تهاجم كبار رجال الدولة بمثل هذه الجرأة . وانك تعلم ان نقل هذه العبارات الى من يهمهم الامر يكفى لزجك في اعماق السجون » .

فقلت : « لا تنس ان بيننا هدنة . وفوق ذلك فـان الدكتور ابراهيم لا يعمل ما لا فائدة له فيه . ان الحية لا تنفث سمومها في كل مكان ، والعقرب لا تلسع الا عندما تدافع عن نفسها او تقتنص فريسة ، وتلك نظريتك » .

فضحك وقال : « اشكر اطراءك » .

وعندما طلبت الاذن بالخروج سـألنى بشيء من الشـماتة : « متى تسافر الى منفاك ؟ » .

فأجبته بدون مبالاة : « قريباً جداً ، ربما مساء الغد . وسأعمل بجد في كتابة قصتك فلا تنسى وعدك .. » .

فاجابنى مؤكداً : « سأكتب لك ما تحتاجه من المعلومات بصورة رسائل متسلسلة . وستصل اليك الواحدة بعد الاخرى ، لتعينك عـلى وضـع قصتك » .

الفصل الخامس

الشر الازلي

« قال انظرني الى يوم يبعثون ، قال انــك مــن
المنظرين ، قال فبما اغويتنى لاقعدن لهم صـــراطك
المستقيم ، ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن
ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين »

لا أعتقد ان بين شعوب العالم شعباً يهتم بشؤون افراده ، وبما يحدث في بلاده كالشعب العراقى ؛ فقد تصل درجة الاهتمام عنده الى تنسم الاخبار، والى كثرة المراقبة حتى حد المضايقة • في هــذه البلاد يتناقــل (الناس) الاحاديث كما يمشون ويأكلون ويشربون ، وفي هذا القطر تقوم الاشاعات مقام الصحف المحلية ، وتؤدي مهمتها تمام الاداء • وكلما كانت هذه الاخبار اكثر خطورة ، كانت الاشاعات اكثر ذيوعاً واسرع انتشاراً • وقد استفحل الامر في الآونة الاخيرة عندما فرضت الوزارات المتعاقبة على الصحف أن لا تنقل من الاخبار الا ما يوافق مصلحتها ، ويتلاءم مع رغائب المتنفذين فيها • واعتقد ان ذلك يدل على أن رجال الحكم في هذه الاقطــار يهتمون بكل شيء الا بما يخص دراسة عقلية الشعب وتفهم طباعه• فلو أعاروا هذه المسألة الحيوية شيئا من الاهتمام لتجنبوا اغلاطا عديدة ، ولكفوا انفسهم مؤونة الكثير من المتاعب والمشكلات ، ولما زادوا في سياسة البلاد تعقيدا أو اشكالا• سمعت مرة وانا في سيارة عمومية (باص) احد الركاب يهمس في اذن رفيقه

خبراً سياسياً مهماً ، وعندما وصلت الى منزلى تلقانى صديقى ، وكان قد تجشم القدوم اليّ وأضاع وقتاً ثميناً في انتظارى ، كل ذلك ليقوم بواجبه في نقل ذلك الخبر اليّ • ولو طلبت من هذا الصديق اداء خدمة شخصية اخرى غير هذه لا تكلفه بعض تلك المشقة لتبرم بي ، اما والامر يتعلق (بشغب) اى بنقل اخبار حكومية ممنوعة فهو اسرع من البرق ، وانشط من الفهد • ولكن ليس آمن من الكلب • فلكل شخص في العراق ، وخصوصاً الموظفين منهم ، رأي خاص في كل ما يحدث وعلاقة خاصة بكل ما يقال • فاذا كان الناقل من انصار الحكومة حذف من الخبر ما يشين ، ورواه منقحاً مهذباً ، واضاف اليه من التوابل ما يجعله طيب الوقع حسناً في المسامع ، يوحي التفاؤل والفرح • واذا كان عدواً لها حذف المحسنات وزاد السيئات • وما يزال بك حتى يجعلك تشعر بأن الخطر لابد مداهمك ، وان من واجبك ان تأخذ الحيطة ، وتستعد للخطوب قبل ان تنزل بك النوازل • وهكذا تكتسب الحكومة انصاراً واعداءً ، دون أن يكون لها يد في الامر • وفي مثل هذه الظروف تكون كفة الاعداء هي الراجحة دائماً لان روح الحذر والخوف من المجهول صفة شائعة هنا • وهكذا ترى الحكومة نفسها وهي امام الامر الواقع ، فتعتزل الحكم وهي تتساءل متعجبة : « ألم اخضع كل الجرائد ؟ أمم املأ السجون بالمشاغبين؟ ألم أطرد من الوظائف كل من يشم فيهم رائحة خطرة ؟ ألم ابعد انصار اعدائي ؟ اذن فكيف حدث الامر ؟ » • وقد يقتنع رجال السياسة بكل شيء عندنا الا بأن اطلاق الحرية للصحف في نقل هذه الاخبار مع مراقبتها ومعاقبة الكاذبة منها كفيل بالقضاء على كل تلك الحوادث الشاذة غير المنتظرة ، وما تحدثه من فوضى وتبلبل ووساوس ، تجعل من الحبة قبة ، ومن أهون الامور قضايا خطرة ذات عواقب وخيمة •

وحين نفيت بسبب « برج بابل » على حد تعبير بعض الاصدقاء لم تر وزارة المعارف لزوماً لنشر الخبر في الصحف المحلية ، ولم تهتم هذه الصحف بالامر كثيراً ولا قليلاً • ولكن صيادي الاخبار كانوا بالمرصاد ، فلما وصل اليّ أمر وزارة المعارف وصلت اليّ أخبار متناقضة مضحكة • فبعضهم يسألني هل قبض عليّ وحوكمت كما بلغه ؟ وكم هي مدة السجن ؟ والبعض يقول : لقد عينت مديراً للمعارف ، ولكنه يجهل المنطقة ! والبعض يقول بأن الذيل قد طوقني فما انا صانع ؟ اما « برج بابل » فقد تخاطفته الايدى واتتشر انتشاراً ما كنت احلم به رغم اهمال اغلب الجرائد ، والرائجة منها بصورة خاصة • وقد بلغني ان صحافيا ، معروفا بالتذبذب ، قد ضم صوته الى صوت الدكتور ابراهيم في وجوب معاقبتى وسعى سعيه في ذلك ، فقد وضع نفسه موضع « توما » بطل اقصوصة « العاصفة » ويقال ان حمى قد انتابته عند قراءتها فأخذ يرتجف غيظاً بدلا من ان يرغي ويزبد • وذلك طبيعي • فالذين يرغون ويزبدون ليسوا على شاكلته • وقد أقسم أن ينتقم مني كما انتقم من غيري ، وان يشردني كما شردهم او يتهمني بما اتهمهم به ، ولكن لا على صفحات جريدته النزيهة طبعاً • أما ناقلو هذا الخبر فكلهم من أعداء هذا السيد « توما » • فللرجال اعداء من طراز عجيب ، وهذا ما يجعلني اقدر لهذا الخبر من القيمة ما قدرت لغيره • وقد يدهش القارىء ان يعلم ايضا ان كيد الدكتور ابراهيم قد فضح رغم شدة تكتمه • فعلم كل الناس بالدور (الشريف) الذى لعبه على مسرح الدس والمكر • والاغرب من هذا انهم علموا بأنى سأكتب قصة عن الدكتور ابراهيم ايضا ، وهكذا وجدت نفسى عندما وصلت الى كويسنجق امام عدد كبير من الرسائل كلها من اعداء الدكتور ابراهيم ، وقد عجبت ان يكون لهذا الرجل هذا العدد الضخم من الاعداء ، يحملون

له الحقد ويتمنون له الشر • ووجدت اغلب هؤلاء ممن قضوا فترات مختلفة مع الدكتور في المدرسة او فى الحياة العملية • وكلهم يشتكون من خبثه ، ودناءته ، واساليبه المنحطة • ثم يعودون فيلعنون الظروف التي جعلت من هذا الرجل في فترة من الزمن شاذة صاحب سطوة وحول • ثم يروون كيف لعب دوره ونشر شروره • ولم اكن في الحقيقة منتظراً مثل هذه المساعدة • فقد تكاملت عندى كل المواد الاولية للقصة ولم يبق عليّ الا ان اقرأ تلك الرسائل بامعان وبحياد تام ، ولاجل ان أعزل عنها المبالغات • التى تنشأ عن الامعان في الحقد ، كنت اقارنها برسائل الدكتور ابراهيم نفسه ، لارى درجة اعترافه بصحتها • وقد ادهشنى ان اجده في كثير من الاحوال يعترف بما اسند اليه بكل صراحة واستهتار ، ولكني سرعان ما ادركت ان سبب جرأته تلك هو بعده عن الوظيفة ، واكتفاؤه بما لديه ، واعتزازه بخطته وفلسفته في الحياة ، ورغبته في التدليل على انه هو صاحب الحق • وعلى الرغم من استهتاره بكل القوانين الاخلاقية والواجبات وعدم اعترافه بالضمير وسيطرته ، وجدتـــه يراوغ في رواية بعض الاخبار التى تدل على منتهى اللؤم والخبث •

وأخيراً وجدت ان بطل قصتي سيكون الشيطان بنفسه ، وان القصة سوف لا تكون جميلة كما كنت اود واتمنى ، ولكنها ستكون لذيذة ومفيدة• وهنا عليّ ان انبه القارىء الى ان الفرق بين هذه القصـــة وســيرة الدكتور ابراهيم ، كالفرق بين المثال الحي والصورة الزيتية الفنية ، وقد رويت عــلى لسانه بصيغة المتكلم • وقد يعترض البعض بان الانسان لا يمكن ان يتكلم عن نفسه بهذه الطريقة • ولكن ليتذكر أن الشيطان لم يتردد عن تحدي الله واعلانه بكل ما في نفسه من خطط ومكائد • وما كان هذا الدكتور ابراهيم سوى شيطان يدب على الارض ، او رسول الشيطان نفسه • وسيرى القارىء

بأني قد أنصفته ولم احاربه بالسب والشتم واختلاق المثالب ، ولكنى شرحت تربيته وحللت عقليته ، واظهرت الاسس التى بنى عليها شخصيته ، وسيجد القارىء باني قد فعلت ذلك بأمانة علمية ، وحياد تام ، وانى قد وضعت واجب الفن فوق كل اعتبار . على اني لن اعدم من يقول حسداً بأني اكتب للانتقام من الدكتور ابراهيم غاضاً النظر عن طريقتي في وضع اللوم كل اللوم ، على تربيته وظروفه ، لا على فطرته وبذرته . ولن أعدم شيطاناً من حزب الدكتور يموه بقوله : « انك تعلم الناس سبل الشر في قصتك هذه » . وجوابي الى هؤلاء ان يعيدوا تلاوة قول الدكتور ابراهيم : « ان في فضح هذه الاساليب ضررين لامثالى : معرفة الناس بها ليحاربونا بها ، واطلاعهم على تفاصيلها ليتجنبوا السقوط في حبائلها » . ولكنى اعتقد أن اولئك الذين في قلوبهم رحمة ، وفي نفوسهم شرف ، لن يقاوموا الدكتور بمثل أساليبه ، وانما يقاومونه باعلان اساليبه . وليس احسن لتطهير الاشياء مما يلوثها من الجراثيم من نشرها وتعريضها لاشعة الشمس والهواء النقى . اما اخفاؤها في الظلام وسترها عن المطهرات فيمهدان لجراثيمها أن تنمو وتتكاثر ، حتى يستفحل شرها ، ولا يعود في الامكان تطهيرها والاستفادة منها فيكون نصيبها عند ذلك الحرق .

القسم الأول

عهد الطفولة

الفصل الاول

كان أبي

« ان الفتى مـن يقـول هـا انـذا
ليس الفتى مـن يقـول كـان ابي »

في قرية نائية من قرى الموصل في شمال العراق ولدتُ ، وبين اطفالها القذرين الذين لا يختلفون عن الارض في الوانهم وألوان البستهم ترعرعت • كان أبي شيخ القرية وكاهنا ولكنه لم يكن في مبدأ امره رئيسها ومالكها ، وكنت أرهب عمامة أبى الخضراء الكبيرة ، ووجهه المورد ، وعينيه الواسعتين البراقتين ، ولحيته الكبيرة البيضاء التى تغطى صدره • وما كان لأبى بين كل سكان القرية مثيل في زيه ووقاره • اما امي فكانت بدوية شديدة السمرة، ترهب أبي كما ارهبه انا ، ويرهبه اخوتي الخمسـة • وكانت امي رقيقـة الحاشية ، شديدة العطف على بنيها الستة ــ انا واخوتى ــ تعمل من الصباح الى المساء بدون كلل ولا ملل في ادارة البيت وقضاء حوائجنا وتحضير طعامنا• وعندما تفتحت عيناي جيداً وصرت اقرأ بعض معاني النظرات والسحنات ادركت ان هذه البدوية السمراء التي كنت اسميها امي تحمل من الهموم والآلام ما لايمكن التعبير عنه • وعندما تمكنت من النطق وفهـم العبارات والكلمات فهمت اسباب ذلك ، فقد كـان لأبى اربعـة بيوت كبيتنا ذاك ، وعلمت ان عنده اربعاً من النساء كأمى احداهن شـقراء مكتنزة اللحـم ، والاخرى سمراء خفيفة اللون ساحرة العينين ، واخرى صغيرة السن لاتكبرني الا بخمس سنين • كان ابى لا يزور بيتنا الالماما ، ويظهر ان نصيب امى من

عطفه كان أقل من نصيب بقية نسائه • وكنت أصغر اخوتي سناً ، بيني وبين الذي يليني في السن خمس عشرة سنة • وما كنت ادري سبب هذه الفترة الطويلة التى أتيت في نهايتها ، ولكني عرفت ذلك بعد أن اصبحت في سن افهم فيها مثل هذه الامور • لقد تزوج أبي خلال هـذه الفترة ثلاث نسـاء أخريات ، ولدت أولاهن ولداً وبنتين ، والثانية طفلـة واحـدة ، ولم تنجب الثالثة نسلاً • وهكذا أصبحت امى أعلى من الباقيات مرتبة فهى أم خمسة رجال وسادسهم أنا ، ولكنها كانت أقلهن نصيباً من حب أبي • وكنت احب من هذه العشيرة الكبيرة امرأة ابي الصغرى ، واحدى اختيّ • وكانت هذه الاخت شقراء جميلة لها لون ابى وشعر امها • وقد كانت امى تحظر عليّ ان ازورهما ، لأن الكراهية مستحكمة بين نساء ابى الأربع • وكانت امى تلقننا كراهية نساء ابى الباقيات ، وتوغر صدور اخوتى عليهن • وقد اخذنى ابى لاول مرة الى كوخ صغرى نسائه فلما علمت هذه بأنى ابن زنوبة (امي) ضرتها قرصتنى قرصة مؤلمـة في غفلـة من ابى وكـان نائمـا ، فصـرخت باكياً فخافت ان يوقظه صراخي فأعطتنى قطعة من الخبـز ، واخذتنى بـين ذراعيها ، وشعرت بجسمها وثدييها ملتصقين بى ، وشعرت بشفتيها الحارتين وهما تغمران وجهى بالقبل لتهدئة ثائرتى ، ولكنها لم تتركنى حتى بعد ان سكت فقد اثارت فيها تلك الضمات غير المقصودة عواطف الامومة والحنـو فارقدتنى بجانبها واحتضنتنى الى صدرها • وقد وجدت في عملها ذاك شيئاً من السرور فاستكنت لها • وقد رأيت في ذلك التدليل امراً غريباً لم اعتده من امى اللاهية بشؤون اخوتى من الصباح الى المساء ، فلست اتذكر انهـا قبلتنى كل حياتي • وكانت تحب اخوتى الخمسة اكثر منى ، والكبير منهـم على الاخص ، ومن يومها اصبحت وسكينة (الزوجـة الصغرى) صديقين حميمين • وكانت ترضعنى من ثديها في بعض الاحيان مزاحاً ، او تلعب معى العابا اخرى تدخل النشوة والسرور الى قلبى • ولما شعرت أمى بولعي الجديد بضرتها صاحت مولولة « لقد سحرت للصبى كما سحرت لأبيه هذه الفاجرة »

وهددني اخوتي بقطع اذني وذبحي ان ذهبت اليها مرة اخرى ، فلم يفد ذلك معي ، ولم يمنعني من الهرب الى احضان سكينة كلما سنحت لي الفرصة •

أما اختي الشقراء فلقد التقيت بها في مزار أبي ذي القبة العالية المزينة بالقطع الخضراء ، تلك التي تحمل كفاً خضراء كأنها نبتة غريبة الشكل رهيبة • وقد اخذني ابي الى هذا المزار لأول مرة وعمري سنتان • فلما دخلت تلك القبة المربعة الصغيرة ذات الباب المنخفض ، ورأيت القبر المستطيل في وسطها يكتنفه الظلام وتغطيه قطعة خضراء غامقة اللون شعرت بالرهبة والرعب • وكدت اصرخ واستنجد فزعاً لولا ان وجود أبي بجانبي هدأ من روعي • ثم شرعت أدور في أطراف تلك الغرفة الغريبة زهاء ساعتين بعد أن زالت عني الوحشة • وقرب الظهيرة قدمت اختي الشقراء تحمل غداء ابي ، فسررت بالطعام وأقبلت عليه مع أبي فاكلنا بشراهة ، وقد شبعت قبله ونهضت ألعب مع تلك الطفلة الشقراء • وما كنت ادري وأنا في تلك السن معنى تلك القبة وذلك القبر ؟ ولماذا كانت القبة مظلمة ؟ ولماذا يقيم أبي فيها أغلب وقته جالساً على قطعة من الحصير او متمدداً عليها • وكبرت حتى بلغت حب الاستطلاع في الاطفال ، وصرت اسأل عن كل شيء ومن كل الناس الا ابي ، سألت لماذا يرتدي أبي لباساً يختلف عن ألبسة بقية الناس ، وحتى ألبسة أخوتي وأقاربي؟ ولماذا كانت له تلك اللحية البيضاء الكبيرة مع ان شيخ العشيرة نفسه لم تكن لحيته الا بطول الاصبع في أسفل ذقنه ؟ ولماذا يرتدي أبي تلك العمامة الخضراء ، في حين ان الجميع يرتدون الكوفية والعقال ؟ وسألت عن القبة والقبر وعن كل شيء ، وحينما بلغت سن العاشرة وجدت الجواب على كل شيء • ما كان أبي بدوياً من قبيلة امي وبقية نسائه بل وما كان عربياً مطلقاً • لقد قدم من ايران فاجتاز جبال كردستان الشمالية درويشاً متجولاً يقتات على الصدقات ، ويترنم بمحامد النبي المصطفى بصوت شجي ، او يتلو آي الذكر الحكيم بصوت رهيب فيه رطانة اعجمية تزيده حرمة ووقاراً • ويوم

حل في تلك القرية اجتمع اهلها حوله مأخوذين بمدائحه النبوية ، وبصوته الشجي ولحيته الجميلة الشقراء • وكان يتكلم عربية فصحى كلغة القرآن ، ومع أن ألفاظه كانت أعجمية ركيكة يصعب فهمها ، فان اولئك البدو السذج ما كانوا يميزون بين العربية الفصيحة وبين الاعجمية الفصيحة ، لان كلتا اللغتين بالنسبة الى لغتهم غريبة غير مألوفة • وبقى الدرويش (أبي) مدة ثلاثة أيام يفتح الفال ويقرأ الاوراد ، ويذكر الله ويتلو القرآن فتنهال عليه الصدقات من كل صوب •

وكانت أمى من جملة من زار الدرويش اسماعيل لفتح الفال ومعرفة المستقبل ، فعلقت بوجهه الاحمر ، ولحيته الشقراء ، وعينيه الخضراوين ، وعندما رأى الشيخ ان امى تهتم به اعلن نسبه وحسبه وكان لفافة من الورق في اسطوانة من الصفيح مقفلة معلقة الى جانبه ، وأخرج من اسطوانة اخرى قطعة من القماش خضراء بلون الزرع في موسم الربيع ، فقبلها الجميع وادركوا انه سيد من عترة الرسول ، ولم يجد بعد ذلك صعوبة تذكر في خطبة امى ونيل يدها ، وقد دفع مهراً لها ليرة تركية صفراء أخرجها من صرة كانت مخبوءة بين ثيابه ، وقد تقاطر الفلاحون لرؤية الليرة ، وتباهى جدى بان يكون له مثل هذا الصهر ، ولابنته مثل هذا الصداق • ووضع أبى عصا الترحال من ذلك الحين ، وفي مدى خمس سنين أنجب اخوتى الخمسة •

الفصل الثاني

شيخ القرية اولا ، ثم وليها

« ومهما كان الـــدين الذي به يـدينون ، فاله
السذج والجهال هو ابدا اله كاذب ، رســله الدجالون
والسحرة والكذابون »

ولعل قصة اكتشاف ابى لولى الله الذى يرقد تحت القبة الرهيبة ذات الكف الخضراء هي من اهم القصص التى سمعتها في ايام الطفولة ، وأشدها وقعاً في نفسى ، وتأثيراً فيّ • روتها لى زوجة أبي الصغرى في ليلة من ليالى الشتاء مكفهرة الجو شديدة البرد ، وكنا وحيدين ، اذ تركنـا ابى وذهب لزيارة احدى نسائه ، على ان يعود بعد ساعة • ولكن المطر هطل فجأة ، وثارت العاصفة واشتدت الرياح ، فكانت تولول وتئن كأنها ارواح حبيسة معذبة • وكان باب الكوخ يرتجف تحت ضغط الرياح ، ويكاد ينخلع من مصراعيه • ودفعنى الخوف الى الالتصاق بزوجة ابى ، واخفاء رأسى بين ثدييها الصغيرين، وما ان رأت خوفي الصبيانى حتى طمأنتنى بقولها : « ان اكثر الشياطين شراً لا يجسر ان ينال السيد ابراهيم ابن السيد اسماعيل بسوء • ان ولى الله ابا الحسن يحميك من كل شر وان القرية كلها في حماه • ان لأبيك فضلاً عليه فلولاه لبقى قبر الولى بقعة من الأرض كغيرها يبول فيها القوم ويدنسونها دون ان يدروا ان تحت ثراها ولياً عظيماً ذا بأس شديد وفتك ذريع • ومر على ابيك في هذه القرية اربع سنوات قبل ان يزوره الولى في المنام ويقول له :

« ايها الشيخ اسماعيل لقد بعثك الله الى هذه القرية لتري اهلها مرقدي وتمنعهم من الاساءة الي وترفع عنهم العقاب الذى ينالهم من جراء اعمالهم تلك غير المتقصدة • لقد بال على قبرى احدهم يوماً فنكبت القرية بانقطاع المطر حتى ذوى الزرع وجف الضرع ، فقام أبوك صباحا ووقف في وسط القرية ، فلعلع صوته بين القوم ينذرهم بعذاب الدنيا وجحيم الآخرة ، وقد كنت في سنك يومذاك ، وقد رأيته بنفسي وسط السوق وحوله القوم خاشعون وهو يصيح بملء صوته : « يا عباد الله ان في قريتكم ولياً وانتم عن هذا الشرف غافلون، لقد جاءنى في المنام يشكو من مرور الحيوانات فوق قبره ، وعدم احترام الناس لثراه » وصاح القوم : « اظهره لنا لنبنى فوق جثمانه قبة ونستعين به على الملمات » فقال أبوك : « سأصلى في هذه الليلة واتهجد لعل الله يرشدنا اليه » وباتت القرية تلك الليلة تترقب طلوع الشمس بفارغ الصبر ، وكان ابوك يقضى وقته مصلياً ، وكان بين آونة وأخرى ، يخرج الى الحقل في منتصف الليل ، فيقف هنا وهناك يهلل ويكبر • وفي صباح اليوم الثاني اجتمع بباب داره كل أهل القرية ليسألوه عما تم بشأن الولى وهل ارشده الى قبره فخرج مكبراً صائحاً : « من كان منكم سيداً وابن سيد من ابناء الزهراء فليتقدم معي لحفر القبر فقد وجدته • وحذار ان يتقدم غير السيد والا عمي بصره وشلت يده • من منكم السيد ؟ » • وما كان في القرية سيد غير أبيك ، فتقدم لوحده الى بقعة تبعد عن القرية مائة خطوة ، وهنالك وقف ورفع مجرفته ، وصار يضرب بها الارض وهو يقول : « لا اله الا الله » • وبعد ان حفر نصف ذراع رفع بيده حربة يلمع نصلها في ضوء الشمس ومعها قطعة خضراء ، فارتفع صياح الجماهير عند رؤيتها الى عنان السماء ، واسرع القوم الى البقعة بعد ان اعاد ابوك التراب الى محله خوفاً من ان تبهر انوار الولى ابصار الناظرين اليه فتعميهم ، وسرعان ما أقاموا على القبر تلك القبر التي تراها ، ووضعوا في قمتها تلك الكف الخضراء التي جلبوها للولى من مدينة الموصل• وفى غداة ذلك اليوم هطلت الامطار بعد ان كاد القوم ييأسون من نزولها ،

فامتلأت الوديان ، ونما الزرع ، وكانت سنة ولا كالسنين ، سنة خير وبركة، وفي تلك الليلة اصبح أبوك المقيم على قبر الولى يتعهده بالخدمة ، يصلى ويتهجد فيه ، ويستلم النذور باسمه ، واصبحت قريتنا مركزاً للقرى المجاورة يحج اليها القوم ، ويقدمون النذور والقرابين الى الولى ، وقد نذر احدهم اجمل بناته للولى اذا انجب ولداً ذكراً ، وكانت امرأته لا تلد غير البنات ، وقد حبلت امرأته وولدت ذكراً بعد ان نامت قرب القبر ليلة واحدة ، فقدمت البنت قرباناً الى الولى ، وهي زوجة ابيك الثانية . واما زوجته الثالثة فقد اهداها له أحد شيوخ العرب بعد أن عزم على عينيه فأبرأهما من الرمد . أما زواجى من أبيك فتعود الى كرامة دونها كل كرامات الولى ، وتفصيل الامر ان ابى رأى مرة في الحلم ان ولى الله أبا الحسن اتى ليلا الى دارنا ، فانفتح الباب امامه ، وما زال يسير حتى وقف قرب فراشي واومأ لى بيده ، فارتفعت في الهواء وطرت وراء الولى ، وركض أبى وراءنا مرتاعاً ، حتى وصلنا الى المرقد المقدس وهناك اشار الولى الى ابريق الشيخ ، وامرنى ان املأه من العين ، وكان ابوك في تلك اللحظة يتلو الاذكار والاوراد بصوت جهورى ، وقد تدفق الزبد من شدقيه ، وعندما عدت بالابريق اختفى الولى في مرقده وعاد بي ابي الى المنزل ، ولاحظ اثناء العودة ان أذيال ثوبي كانت مبتلة بماء العين . وفى الصباح أيقظني أبي وجسّ ذيل ثوبي فرآه مبللاً ، فبكى فرحاً وأيقظ أمي وقصّ عليها رؤياه ، واسرعا بي الى مرقد الولي ، وهنالك رأيا الابريق مملوءاً من عين البقعة التي تركته فيه ، واستقبلنا أبوك مرحا وقال «اهلا وسهلا بمن أتوا دعوة الولي» فبكى أبي وقدمني اليه قائلا : «خذها زوجة لك ، فقد اختارها لك الولي» . فقال أبوك : «أجل لتملأ ابريقي وقت الوضوء» فبكى أبواي وانكبا على يديه يقبلانهما . وبعد أن خرجا من حضرته ، أخذا يدوران في كل القرية ، ويقصان القصة في كل مكان ، وذاع صيت أبيك ، وطار في القرى المجاورة . وقبل مولدك بسنة تضاعف سكان القرية وكثرت الهجرة اليها حتى أصبحت بالشكل الذى تراه . وقد كانت قبل مجيء

أبيك مقفرة ، قليلة السكان ، عديمة الاهمية » وبقيت تقص عليّ مآثر الشيخ والولي حتى انقضى هزيع من الليل • ثم اطفأت السراج وأخذتني الى الفراش الوحيد في ذلك الكوخ فرقدت فوق تلك الحشية الخشنة مكان أبي ، ورقدت الى جانبي فالتصقت بجسمها اللين ابتغى الدفء • وأحسست بذراعيها تضمان جسمي الى صدرها الدافىء فانتشيت واخذت أفكر للمرة الاولى كيف اني أحب هذه المرأة المحرومة من الاولاد أكثر من أمي ، وسرعان ما تذكرت فظاظة أمي ، وحنو هذه ، وشراسة أخوتي ومضايقاتهم وضربهم المبرح فزدت التصاقا بذلك الجسد الدافىء ، وتمنيت لو كانت هذه المرأة الصغيرة أمي ، ولكن علام التمني أليست هي أمي فعلاً ؟ وما الفرق بينها وبين أمي ما دامتا زوجتين لابي ؟ واذا كان أبي لا يفضل من زوجاته واحدة على أخرى فاني أفضل هذه على أمي ، فهي أجمل من أمي واصغر ، واكثر عطفاً عليّ ، وكم تحملت في سبيل هذا التفضيل من رفسات أخوتى وصفعاتهم ، وقرصات أمي ولعناتها ! وقد تآمروا مرة عليّ ، وطلبوا من أبي أن يرسلنى الى الحقل للعمل معهم مدعين اني بلغت سن العمل وان قرنائي من أطفال القرية يعملون بنشاط فيه خير لهم وبركة على أهلهم فزمجر ابي في وجوههم : « ان أمره لا يخص أحداً غيري وانتم غير مكلفين بقوته واعالته • انى أملك من فضل الله مايمكنني من القيام بأود خمسة من أمثاله ، فلا تتدخلوا في أموره بعد الآن » •

وقد سرني كلام أبي كثيراً ، وتمنيت لو استطيع أن أقبل لحيته عند ذاك • لقد كان أبي يحبني حبا عظيما لانني أصغر اخوتى ولانى أحب زوجته الصغيرة التي ليس لها طفل • وهكذا كنا نحن الثلاثة أنا وهو وزوجته الصغيرة على وفاق تام •

الفصل الثالث

الكاهن الجديد

« يا ايها المتنحنحون ، لكم العشرة ولنا العشرون ،
واذا سئلتم عنا فقولوا خطيبكم نعم الخطيب ، سبحان
من جعل لكم في العشرة نصيب » ؟

كنت في سن الثامنة عندما رأيت شرطياً لاول مرة ، وكان ذلك حين أصبح للقرية من الاهمية ما اضطر الحكومة العثمانية الى النظر اليها بعين الاعتبار • فأرسلت لها مديراً ، وثلة من الدرك « الجاندرمة » وحين وصل النبأ الى القرية خرج الكبار والصغار للتفرج على بزاتهم الرسمية وأوسمتهم الغريبة • ونزل الافندى في منزل شيخ القرية ، وكان احسن بيت فيها ، فأمه المتنفذون واهل الجاه • وكان أبى في المقدمة ، وكان يرتدى احسن ثيابه ، وكانت عمامته النظيفة الخضراء فوق وجهه النيّر بلحيته البيضاء الكثة تكسبه منظراً مهيباً • فنهض الموظف الجديد عند رؤيته وانكب على يده فقبلها ، وقدّم له من بمعيته • وكنت مع كثير من صبية القرية نلاحظ اولئك القوم متربعين فوق الابسطة ، وكنا مزدحمين على باب الديوان ، يدفع بعضنا بعضاً ليمتع نظره بذلك المشهد ، ودار همس بين الاطفال بأن هؤلاء سيلبسون بعض الرجال مثل تلك الالبسة الضيقة ليجعلوهم كأولئك الجندرمة وتمنيت لو كنت كبيراً لاحظى بمثل ذلك اللباس فأختال به على بقية السكان ، وأفرض عليهم ان يهابونى •

واسترعى اهتمامي رجل يرتدى مثل زي أبي ، ويزيد عليه جبة بيضاء نظيفة ، وكانت عمامته بيضاء كالحليب • اما لحيته فكانت سوداء بلون الغراب الاسحم • ونقلت نظرى الى أبي فرأيته ينظر الى قرينه شزراً وقد عقد ما بين حاجبيه ، ولم أعلم بادىء بدء سر هذه الكراهية بين رجلين لم يحدث بينهما نزاع ، ولكن هيئة الرجل اعجبتنى رغم ذلك ، وسمعته يسأل أبى « ايـن يتعلم اطفال القريـة كـلام الله ؟ ومـن يعلمهـم الصـلاة والفـرائض ؟ » فاجابه أبى بانهم يتعلمون الصلاة والفرائض من آبائهـم ، ولا حاجة لهـم بمعرفة القراءة وغيرها ، وانه يلقنهم القصائد في مدح النبي ، فقد أمره بذلك الولى ابو الحسن ، ولم يأمره بغير ذلك ، وان مخالفـة اوامـر أبى الحسن معناها انقطاع المطر ، وجفاف الزرع وليس بعد ذلك غير القحط والهلاك • وكان جميع أهل القرية ينظرون الى أبى بخشوع حين كان يتكلم ، وكأنه يلقى اوامر شديدة صارمة ، ولا ريب ، فان سلطته عليهم قد اصبحت اكثر من سلطة روحية ، اذ آل اليه نصف اراضى القرية تقريباً املاكا خاصة ربعاً باسم الولى وربعاً باسمه •

ويظهر أن الكاهن الجديد قد ادرك ذلك لأول وهلة ، فاجاب على الفور: « لا شك ان أبا الحسن من اعظم اولياء الله رضى الله عنه ، وقد اختارك وصياً على أملاكه وعلى أبناء قريته ، ومتكلماً باسمه • وان اول فرض أقصده من القدوم التبرك بثراه وتقديم خدماتى له ولك انت الذى تنطق باسمه ، ولست اجهل ان أبا الحسن لا يرضى بان يقوم بخدمته سوى صفيه المختار ، ولكنى قد ألهمت ان أبا الحسن يريد خادماً لك في القرية ، يعلم ابناءها قراءة المصحف والحديث النبوى • وهانذا قد اتيت ملبياً نداء أبى الحسن • » •

ونهض الرجل بعد انتهائه من الكلام ، فقبل يد أبى بخشوع وهو يقول: « جعلنا الله من خدام اوليائه ومشائخه الصالحين » •

ورأيت اسارير ابى تنبسط وسمعته يقول : « لابد قبل الموافقة من استشارة الولى • سأصوم غداً ، ثم أنام بعد ان اصلى اربعين ركعه ، وأتضرع لأبى الحسن ان يلهمنى ارادته » •

وبعد لأي نهض الجميع لزيارة مرقد الولى يتقدمهم أبى ووراءه الرجل ذو اللحية السوداء وعندما دخلوا القبة المظلمة انكبوا يقبلون ستار القبر الاخضر • وبعد ان قرأوا الفاتحة انصرفوا جميعاً الا أبى وصاحب العمامة البيضاء • وقد سمعت ابى يناديه (بالملا محمد) • وقد طالت الخلوة بينهما في ذلك اليوم • وفي اليوم الثاني اعلن ابى ارادة الولى في اختيار الملا محمد لخدمة جامع الولى وتعليم صبية القرية القرآن والحديث وعلوم الدين ، وكنت اشد الجميع فرحاً بذلك النبأ •

وتقاطرنا في اليوم التالى على الملا الجديد ونحن نمنى انفسنا برؤية اشياء جديدة • وبعد ان قبلنا يده وجلسنا حوله اعطى كل واحد منا ورقاً عليه علامات سوداء ، وكنت اسرع الجميع في فتحه ، ورأيت في داخله رسوماً تشبه الحشرات والثعابين الصغيرة ، بعضها ملتف وبعضها قائم • وأمرنا الملا بان نعمل كما يعمل ، ونفتح اول صحيفة من الورق ففتحناها ، ثم اشار الى اول حشرة وقال : « الف » وطلب منا ان نردد الكلمة ، فرددنا الكلمة دهشين مسرورين • وقضينا في ذلك الدرس عدة ساعات وكنت اول الجمع في حفظ ذلك الدرس : الف باء • الخ » وحتى بدون الشيء الذى سماه الملا « الجزء » فطار الملا سروراً ، وأسرع الى أبى فأتى به يجره جراً ، وطلب منى أمامه أن

أعيد الحروف ، فأعدتها متباهياً • فتبسم أبى سروراً وربت على ظهرى وهو يقول : « هذا من فضل معجزات ابى الحسن • لقد رأيت في المنام انه سيكون رجلا عظيما ، يعز دين الله ، ويفتح الامصار ، وينشر لواء ابى الحسن فـوق الربـوع » •

وانتشر الخبر في كل القرية واسرعت امى تهلل ، ولم يضربني اخوتى في ذلك اليوم ، وأعدت لى سكينة حلاوة طيبة أكلتها هنيئاً • وكان رفاقي اطفال القرية ينظرون الي بعين الحسد ، ولكنهم كانوا يخافون من توجيه كلمـة سوء الي • وعند العصر حينما كنا نلعب سمعت أحدهم يقول : « ان حاجم ايضا ، وهو اصغر مني سناً ، قد تعلم ان يقول ألف باء بدون (جزء) وانبرى حاجم فعلاً يتلوها أسرع مني • وقرأ آخر وآخر الدرس ايضا بنفس السهولة فاغتظت وذهبت الى أبي باكياً • ولما رأى عبراتي قال مواسياً : « لقد علمهم ذلك الشيطان لكى يغيظ أبا الحسن • أما انت فقد ألهمك الله معرفتها بواسطة ابى الحسن ، فقلتها قبلهم • وسأعلم الملا محمد طريقة يطرد بها الشيطان من قلوب هؤلاء الصغار » •

وفي اليوم التالى رأيت مع (الملا) عصا غليظة ، وبعد أن أجلسنى بجانبه قال لرفاقى الصغار : « لقد حل الشيطان في قلوب بعضكم وحرضكم عـلى مناوأة أبى الحسن ، ولابد من اخراجه ، فليقل من اضربـه بهـذه العصا : « اللهم انقذني من اللعين » • وبدأ بالصغير الذى قرأ الحروف اسرع منى وصار يخفقه بالعصا والصغير يردد تلك العبارة باكياً ثم انتقل الى الآخرين • وبعد ان انهى عملية اخراج الشيطان ، عاد يقول : « فليعلم كل منكم ان من يحفظ الدرس قبل ابن الشيخ اسماعيل بأن الشيطان قد علمه ذلك لاغاظـة الولى ، وانه لو استمر تحت سيطرة الشيطان فسيدخل جهنم وبئس المصير » •

من ذلك اليوم صاروا لا يجرأون على اظهار ما يشير الى انهم قد حفظوا الدرس قبلي او أحسن مني ، وحتى لو حفظه بعضهم أحسن مني (بواسطة الشيطان) فهو مجبر على ان يرتكب بعض الاغلاط عمداً ، خوفاً من تلك العصا الغليظة ومن نار جهنم •

واستمرت تلك الدروس • ولا اعتقد ان في المدن من يفوق أطفال القرى رغبة في العلم وفي سرعة الفهم • وانتهى ذلك الجزء واتى دور آخر • وفي نهاية السنة كنا نتلو بعض آيات القرآن في مصاحفنا ، والاصح اننا كنا نتلوها غيباً والدليل على ذلك ان احدنا ما كان يستطع ان يقرأ شيئا في مصحف رفيقه لمجرد وجود فرق في الطبع والشكل • وبعد ثلاث سنين أعلن الملا بأني ختمت القرآن • وطالب بالجائزة ، وتهيأ للاحتفال بالختمة • أما ذلك الاحتفال فكان من جملة تلك الحوادث ذات المناظر التى انطبعت في اعماق ذاكرتي :

اجتمع صبية القرية في صباح أحد الايام ، وقد ارتدوا أجمل ثيابهم فرتبهم الملا صفاً واحدا وسار أمامهم بين علمين أخضرين ، وهو ينقر على دف بيده ، ويتلو بعض الدعاء والصبية من ورائه يرددون دعاءه وصلواته ، وكنت سائراً بجانب الملا وعليّ كسوة جميلة قد جلبت لي خصيصا من مدينة الموصل ، فيها نقوش مذهبة ، وصور جميلة • وبعد أن درنا في كل القرية توجهنا الى منزل امي ولما اقتربنا منه وجدت ان أحد اخوتى في الانتظار ، ومعه خروف سمين ، نحره تحت قدمى ، ودخلنا البيت بين أصوات الاغاريد حيث اديرت علينا كؤوس الشاى والماء المحلى بالسكر ، ثم تقدم أبي من الملا ووضع في يده صرة من المال ، ثم وزع على الاطفال بعض الهدايا ثم مدت الاسمطة وأكل الجميع هنيئاً ثم انصرفوا •

وفي ذلك اليوم رأيت لاول مرة سكينة زوجة أبي الصغرى وأمي (ضرتها) جالستين جنباً الى جنب ، ويظهر ان اشتراكهما في عاطفة السرور التي غمرتهما لحصولى على هذا الشرف قد اكتسحت كل ما بقي في نفسيهما من حقد وموجدة . وكانت امي تبالغ في اعزازها ، وتلك تبالغ في اظهار السرور بها وتفرط في خدمتها . وقال أخي الكبير لأبي متباهياً : « سوف يخلفك في المشيخة ، ويقوم بخدمة ولي الله بعدك » فهز أبي رأسه وقال : « ان مهمته أكثر من هذه ، سوف لا تكون هذه القرية مقامه ، وسيقدر له أن يزور المدن الكبيرة ، ويصبح رجلاً عظيماً ، هكذا أخبرني ولي الله . لقد اختار ولي الله عبدالسميع خليفة لي » .

كان عبدالسميع هذا أخي من الزوجة الثالثة ، وكان بليداً يحسن الصلاة والصوم ، اكثر مما يحسن القراءة وقد حفظ اوراد أبي ، وطريقته في المشيخة، ولم يشترك معنا في دروس الملا ، لانه عد ذلك تحقيراً له ، اذ كيف يجلس مع فتيان القرية الصغار عند الملا ، وهو الذى يلبس (السيدية) ويصلي الاوقات الخمسة ويحفظ كل التسابيح والتراتيل التي يتلوها أبي ؟ وسررت لكلام أبي فقد كنت في أشد الشوق الى رؤية المدن الكبيرة التي يكثر الفلاحون من الحديث عن خاناتها الكبيرة وحوانيتها الواسعة واسواقها الطويلة المسقفة التي يمشى الانسان تحت سقوفها نصف ساعة دون أن يرى الشمس ، وعن مآكلها ومشاربها .

الفصل الرابع

كل ما اسمع يسمى حقائق ولكن النصر دائما للجديد

« ان الاشياء في حندس الظلام ليست هي نفسها
في ضوء القمر ، وهي في ضوء الشمس اشياء جـديدة
تلوح والانوار تنعكس عنها اجلى وابهر »

لم تكن فكرة ارسالى الى المدينة لدخول احـدى المدارس الاميريـة الرسمية هناك من أفكار أبي ؛ فقد علمت ، بعد ان تم ذلك ، ان قائمقـام القضاء ــ عند زيارته قريتنا ــ وضع الفكرة في رأس ابي وحبب اليه الامر ، وقد راقت لابي الفكرة عندما علم أن ذلك يمهد لي طريق المستقبل ويعدني لان أكون موظفاً ادارياً كبيراً كهذا الذى يحكم كل القضاء ، ويهابه كل الناس وقد كادت الامور تسير سيرا حسنا لولا تدخل الملا محمد ، فقد ثار هذا عندما سمع الخبر ، وأسرع الى أبي يحاول ان يثنيه عن عزمه ، وقد هول له الامر ، فصور له مدارس الحكومة دوراً مظلمة قذرة يلقن فيها التلميذ الكفر ، وانكار الله ، وسب النبيين والاولياء ، واحتقار القرآن ؛ وتحرض على ترك الصلاة ، وشرب الخمرة ، وغير ذلك . واقسم له بأنني سأرجع بعد أن اقضى سـنة هناك ملحداً زنديقاً احتقر تقاليد القرية واسب الولي ، واقنعه بأن في استطاعته أن يلقنني كل ما احتاجه من العلوم ، ووعد أن يلقنني الجفر ، وعلم استحضار الارواح والجلجلوتية ، ويعلمنى حتى السـحر . ومـا زال بأبي حتى قنع واستكان ، ورضى أن أكمل تحصيلي على يده ، واعلمني ابي بما قر عليه قراره، فشعرت بأن حلماً جميلاً كان على وشك التحقق يتبدد هبـاء ، ورجعت الى

الملا كارها ، فلم يخف عليه استيائي فصار يحاول أن يدخل السرور الى فؤادي بشتى الطرق . فبدأ يعلمني أسرار الملكوت الاعلى واسماء الملائكة ، ووظيفة كل منهم . فعلمني كيف تشرق الشمس وتغيب ، وكيف يسوق ميكائيل الغيوم ، وكيف تحمل المياه بعد أن تمتلىء من بحر القدرة، وكيف أن بعوضة هائلة تسحب تلك الغيوم يسوقها ميكائيل بالبرق فيزمجر الرعد ... الى آخر ما هنالك . ولكن كل ذلك لم ينسني منظر المدينة الغامض ، بأسواقها وشوارعها وبقى ألم الحرمان يحز في نفسى ، ولم يكن عندى من أبثه شكواى فيفهم بلواى غير سكينة . ورقت هذه لحالى فنقلت شكواى الى امرأة القائممقام في احدى المناسبات ، ونقلتها تلك الى زوجها . وانتهز الاخير فرصة زيارة أحد أقاربه وكان معلماً في احدى مدارس المدينة فأرسل في طلب أبي وبمساعدة المعلم بدد من رأس أبي كل ما أحدثه الملا ، واتفق مع أبي أن يرسلني الى المدرسة صحبة قريبه ذاك ، وقد وعد أبي بدوره أن يقطع المعلم قطعة أرض خصبة بعد أن اكمل دراستي في مدرسته مكافأة له على عنايته بي .

تأهبت للذهاب وأنا أطير فرحاً ، وكنت انتظر ساعة الرحيل بفارغ الصبر .

وفي نهاية الاسبوع حلت ساعة الرحيل المباركة ، فأردفني غضبان افندى وراءه فوق حصانه الرشيق ، وترك البغل الذى كان يحمل المتاع والهدايا في عهدة فلاح من فلاحي أبي خصصه لخدمتي في المدينة . وبعد مسيرة يوم كامل وصلنا المدينة ولم أتمالك نفسى من اطلاق تهاليل الفرح والسرور عندما بدت لي قبابها ومنائرها . وعندما وصلنا ذلك النهر الذي بدا لى حينذاك عظيما رائعا ، واروع منه جسره الخشبى ، كان قلبي يدق سروراً كما تدق سنابك الحصان فوق سطح الجسر الخشبى ، فعبرناه الى سوق عظيم مزدحم بالمآكل والمشارب والخضراوات والفواكه ، وكان صياح الباعة ذا صدى جميل

في أذني • وضحك غضبان افندى لما التفت الي ورآني ــ فاغر الفم ، تبرق عيناى دهشة ــ وقال : « لقد صعقك المنظر ايها الصغير • انك تلوح كمن قد أتى الى الدنيا من جديد ، ماذا يحدث لك يا ترى لو رأيت السيارة والقطار والمدن العظيمة ؟ » فسألته دهشاً : « وأين أرى كل هذا ؟ » •

فأجاب : ستراها كلها لو اجتهدت في دروسك ونجحت • ان أباك مثر ، وسيرسلك للدراسة في البلدان الاجنبية اذا أبديت نشاطا في الدرس ، فأرنا شطارتك •

فأقسمت في سري أن أرى كل ذلك • وعندما أوغلنا في المدينة مررنا بالجوامع فرأينا قبابها الهائلة الحجم ومناراتها الشاهقة عن كثب ، وسألت غضبان افندى : « أيرقد تحت هذه القباب اولياء ايضا ؟ » •

فقال : « أجل هم اولياء ولكنهم أكبر من ولي قريتكم ، ونسبتهم الى واليك كنسبتي اليك ، وكنسبة المدينة الى قريتك ، وكالنسبة بين قبابهم وقبة وليك • ويتبعهم أناس كثيرون يعيشون عليهم كما يعيش أبوك على ذلك الولي ، ويثرى من ورائه » •

ولم انتبه الى لهجة غضبان افندي الخبيثة حينذاك ولكني تذكرتها بعد حين •

ودخلت المدرسة ووضعت في « دورتنجي صنف » أى الصف الرابع ، وقد نسبت ذلك ادارة المدرسة لاني ختمت القرآن ، ولاني أعرف شيئاً من القراءة والكتابة ، وكان ذلك في الحقيقة بمسعى غضبان افندى لرغبته الاكيدة في انهاء تحصيلي وحصوله على قطعة الارض الموعود بها •

وكانت أولى ساعاتى في الصف لا تختلف كثيراً عن أول ساعة رأيت فيها حروفاً وكتاباً • وكنت في أول عهدى بالمدرسة مثار سخرية التلاميذ بجهلى نظام الصف والتدريس ، وبتقصيرى الفاضح في الدرس • وكانت سخرية التلاميذ تغيظنى وتولد في نفسى كرهاً لهم • وكم تمنيت أن يقوم غضبان افندى بما قام به الملا في القرية ليبرهن لهؤلاء التلاميذ الانجاس على ان الولي

يلهمنى ولا يلهم غيرى • وقد تساءلت لماذا لا يلهمنى الولي في المدينة • وقد فاتحت غضبان افندى بما يزعجنى واخبرته بأني لا أطيق أن أكون في مؤخرة التلاميذ ، وسألته أيضا عن سبب تخلي الولي عني ، فأجاب مقهقهاً كعادته : « يا بني ان وليكم لا يجرؤ على التدخل في شـؤون اوليـاء المدينـة ، وحتى اولياء المدينة لايستطيعون ان يتدخلوا في شؤون المدرسة • ان كل هؤلاء الاولياء يجهلون التركية لذلك فهم لا يدرون بما يجرى في المدرسة ولايعرفون كيف يتدخلون في شؤون المدرسة • وفى استطاعتى أن أعمـل أكثر ممـا يستطيع ان يعمله كل هؤلاء الاولياء » •

فارتعت لهذا الكفر الذى ينطق به غضبان افنـدى وايقنت ان الارض ستزلزل زلزالها ، وتخرج اثقالها • ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ولم اجد مناصا في نهاية الامر من الخضوع لنصح غضبان افندى الذى اكد لي بان لا ألحق بالتلاميذ اذا لم انكب على الدرس ليلاً ونهاراً • وهكذا اقبلت عـلى الدرس وصرت أقضي الليل والنهار في الحفظ بصبر وجلد حتى استطعت ان ألحق بتلاميذ الصف وافهم الدروس معهم • وبنتيجة ذلـك اصبح الدرس عندي عادة ، وتحولت المشقة الى متعة ، وما زالت رغبتي في الدرس تزداد حتى بدأت أتقدم على غيري من التلاميذ ، وبدأت سخريتهم بي تقـل شيئاً فشيئاً حتى اصبحوا ينظرون الي نظرة فيها شيء مـن التقدير • فالفتهـم وألفونـي •

وفي يوم من الايام حدثنا أحد التلاميذ ، وكان أمهر تلميذ في الصف ، وأشدهم ذكاءً ، حديثاً غريباً فقال : « ان جدتي تقول ان المطر بول الملائكة ، وأبي يقول انه من بحر القدرة • وقد أضحكني قولهم فسخرت بهم وبجهلهم بسائط العلم • لقد قرأت الدرس القادم الذى سيلقيه علينا المعلم ، فعلمت أن المطر يتكون من تكاثف البخار ، فكما ان غطاء القدر يقطر ماءً عند رفعه في الهواء ، كذلك يحدث المطر • وان الغيوم ليست الا بخاراً يسوقه الهواء » •

فصحت به « كذبت يا كافر . لقد أخبرني الملا بان المطر يأتي من بحر القدرة ، ولو كان بخاراً كما تقول فكيف تعلل حدوث البرق والرعد ؟ ان الغيم يأتي من بحر القدرة تجره بعوضة يلهبها ميكائيل بسوطه » .

وكان بقية التلاميذ بجانبي لانهم حسبوا كلامي معقولا اكثر من كلامه ولم اكتف بهذا الانتصار بل اسرعت الى المدير لاخباره بما نطق به التلميذ وكفر . وكم كانت خيبتي مرة عندما وجدت المدير يضحك مني ويبين بأن رفيقي على صواب ، ويطلب مني أن اتمهل حتى يشرح لنا المدرس ساعة الدرس .

وأتى المدرس ، وكان مدرساً ماهراً استطاع ببضع تجارب بسيطة أن يقنعنا بصحة قول رفيقي الذى كان ينظر الى ناحيتي منتصراً متشفياً متباهياً كلما امعن المدرس في الشرح ، وكم تمنيت لو كان الملا حاضراً في تلك اللحظة ليعلم هذا الاحمق ان من يحميه ولي الله لا يمكن ان يسخر به أمثاله ؛ وانهى المدرس كلامه بقوله : « اما ما يخص الرعد والبرق فستتلقون عنه درساً مسهباً في حينه . واوصيكم بان لا تصدقوا هذه الخرافات التى تتعلق بالبعوضة وغيرها اذ كيف تستطيع بعوضة أن تسحب كمية كبيرة من المياه وكيف يمكن ان تصرخ عند ضربها بالسوط . ان بعض المشعوذين يقولون ذلك ليخدعوا العامة ويبتزوا الدراهم بدعوى العلم والتقى . وعندما تكبرون ستكتشفون الكثير من دعاوى هؤلاء وحيلهم الباطلة . وكنت حانقاً على ذلك المدرس ، لا لحطة من قيمة ابي والملا ، بل لاني فشلت وظهرت بمظهر الاحمق فقلت في نفسي : « حقاً ان الملا على حق . ان المدارس تعلم الكفر وتقتل الدين: وذهبت الى غضبان افندى اسره نجواى فردعني وطلب مني ان اطرد خرافات القرية وأكاذيب المشعوذين من رأسي ، والا فلا يرجو لي نجاحاً في المستقبل وقال ناصحاً : اذا اردت ان ترى عجائب الدنيا وتكون موظفاً كبيراً وشخصا عظيما فيجب ان تفتح ذهنك لهذه الحقائق ، وستتأكد يوما بان كلام

الملا ، وحتى كلام ابيك كذب • ولكن اياك ان تطلع احداً على هذا السر والا كان ذلك سببا في حرمانك من المدرسة وبقائك قابعا في عقر دارك في قريتك المنعزلة تقتات على الشعوذة ، أو تعمل في الحقل من الصباح الى المساء » • ثم أكد لي ان الدين لا شأن له بهذه الخرافات • وشرح لي بعض الآيات القرآنية التي لا تتنافى مع ما ذكره المعلم ، ولكنها تناقض كلام الملا تمام المناقضة •

وأشغلت فكري كل تلك المسائل مدة غير قليلة من الزمن وأخذت اضرب لحلها اخماساً باسداس ، ولكن حرصى على البقاء في المدينة ورغبتى في رؤية عجائب الدنيا ، ألجأني الى مراجعة دروسي وتصديق كل ذلك الكفر واخفاء اشمئزازى منه • وكتبت يوما لابي أخبره بتقدمي في دروسي وطلبت اليه ضارعاً ان يتوسط لدى غضبان افندى ويسترضيه حتى اكون متقدما على رفاقى ، وأكون الاول في الصف لانى لا احتمل ان اكون بعد واحد من التلاميذ ، وأخبرته بأني أصلّي واضرع الى الولى ابى الحسن ان يوفقني في كل ذلك • ولكن ذلك لا يتم الا بواسطته ودعائه وتضرعه ايضا•

الفصل الخامس

خاتمة الطفولة

« وان كثيرا من الاصنام التي يعبدها بعض الناس
ما ينهار بنفخة ريح . »

مرت عليّ سنتان في تلك المدرسة كنت أتلقى في كل يوم منها ضربة قوية في اساس معتقداتى التي غرست في نفسي منذ الصغر . وقد كانت الحرب عنيفة جدا بين تلك المعتقدات ، وبين حقائق العلم التي كانت تكتسح كل ما يعترض طريقها ، وتقتلع بعض جذور الخرافات من رأسى اقتلاعا ، وكثيرا ما كنت اشعر بان جزءاً من حياتي يقتلع معها ، فتنتابنى آلام نفسانية قاسية . ولو نشأت نشأة دينية صحيحة لا تشوبها الخرافات والاوهام لما حدثت تلك الحرب الضروس ، فالحقائق الدينية والتعابير القرآنية العامة لا تناقض مطلقا حقائق العلم، ولاتتعارض معها ، واذا حدث ذلك فانما يحدث في اواخر مراحل الدراسة في كليهما ، حين يكون المعتقد الدينى قد أصبح عقيدة راسخة يصعب اقتلاعها . اما الاعتقاد بالدين بتلك الطريقة الابتدائية الفجة ، المبنية على الخرافات المضحكة ، التى ينكرها الانسان اذا نضج عقله حتى ولو لم يتلق علما من العلوم ، فأمر قد يهدد هذه الخرافات كلها بالانهيار مرة واحدة وقد لا تنهار الخرافات وحدها فحسب ، بل تنهار معها الاسس والاعتقادات الدينية التي لا تمت اليها بصلة ؛ فاذا انهار من عقل الطفل ما يعد مقدساً كالآله في نظره وما تلقن فكرة الآله بواسطته ، انهار ذلك الآله وترك في محله فراغا سرعان مايحتله ما هو اقوى، ويحدث ذلك رد فعل قوى ضد الاديان بصورة عامة ، وهيهات ان يتفتح الذهن بعد ذلك لتلقى اصولها الصحيحة من جديد.

لقد عرفت بعد هاتين السنتين كم يسيء هؤلاء ، الذين يعدهم العامة اولياء وصالحين ، الى الدين الحقيقى ، وكم يعتدون عليه • وانى لاعتقد ان هؤلاء وحدهم سيهدمون الاديان بمدة وجيزة وبطريقة سهلة لا يحلم بمثلها اعداء الاديان وهداموها •

كنت خلال تينك السنتين بين الشـك واليقين ، تتقاذفنى متناقضات الافكار والهواجس ، وقد شعرت يوما بان احترامى للولى وقبته قد هبط الى حد مريع ، وكان ذلك عندما رجعت للقرية لاول مرة بعد زيارة المدينة ، فقد بدا الولى بقبته الصغيرة وزينته المضحكة ، وتلك الكف الخضراء ـ كالقط يحكى انتفاخا صولة الاسد • وبعد ان كانت تلك الظلمة رهيبة في نظـرى تلقى في نفسى اعظم ضروب الولاء والخوف اصبحت مصدر اشمئزاز ونفور • ولكن بقية من ذكريات الطفولة كانت تثور امام تلك العواطف وتخمد صوت العقل والاحساس • وقد زرت الولى فور وصولى وقبل ان اذهب الى المنزل • فدخلت قبته ، وقبلت ستار القبر ، وقرأت الفاتحة ، وخرجت بين اعجاب القرويين ودهشة الملا ، وزهو أبى • وبذلك أقمت الدليل عـلى ان المـدن والمدارس لا تفسد الدين ولا تقتل الاعتقادات كما يقول الملا ، بل تزيد في قوة الايمان واحترام الاولياء والصالحين •

ولكن تلك المناورة ، التى قد تكون دليلاً على اضمحلال سيطرة الولى لا على قوتها لم تذهب تلك الشكوك ، بل قوتها • ودفعتنى تلك الشكوك الى ان اتردد على قبر الولى بحجة الصلاة ، لانقب واحقق لعلّي اعثر على ما يزيل تلك الشكوك او يقويها ، وعندما كنت اختلى بالقبر ادور حوله افحص اجزاءه وما يحيط به • وقد استرعت نظرى الحربة التى يدعى ابى ان الولى كان يقاتل بها الكافرين عندما استشهد في هذه البقعة ، وكذلك عمامته الخضراء الملطخة بالدم • وكانت الحرْبة قد صدئت ، والعمامة قد بليت بعد مرور ما يقارب العشرين سنة وهي في وضعها ذاك • واخذت أفكر بعقلى الجديد • لِمَ لـَم

تقبل الاتربة العمامة والحربة وهي مدفونة في التربة عشرات السنين ؟ وكيف يمكن ان تكون العمامة الخضراء جديدة والحربة تلمع في الهواء عند اكتشاف ابى لهما ؟ لقد كانت العمامة والحربة برهان أبى على ان المدفون في تلك البقعة هو الولى ، ولكن لماذا تخلى الولى عن عمامته وحربته بعد خروجهما من التراب فتركهما تبليان ؟ ثم ان احداً لم ير الولى غير ابى خوفاً من ان يبهر نور الولى بصره ويعمى عينيه كما يدعى • وكانت تلك الموجة من الشك قوية هزت معتقداتي وضعضعتها فالتجأت حالاً الى الصلاة لطرد ذلك الشيطان الرجيم • وعزمت على أن أنام ليلة قرب القبر واتهجد هناك واتضرع الى الولى عله يريني وجه الصواب •

واخترت لذلك احدى ليالى الجمعة ، ولم انبىء احداً بما عزمت عليه خوفاً من اثارة شكه في نواياى ، فتظاهرت بأنى اقصد فراشي للنوم ثم انسللت بعد العشاء اقصد الجامع وكانت الطريق مقفرة ، والليلة حالكة السواد ، وقبة الولى تبدو في وسط الجامع الصغير كشبح مخيف قد قام حارسا في الليل يحمى القرية من كل ما يزعج سكانها الآمنين ، وهم في سباتهم العميق ، ولما اقتربت من الباب سمعت همساً خافتاً ، فوقفت مبغوتاً اذ خيل الي ان الولى يستقبلني ، فتمشت الرعدة في جسمي وتقدمت بعزم نحو مصدر الهمس فتبينت انه يصدر من نافذة الغرفة التي يرقد فيها أخي الموكل بأمور الجامع ، وعلمت عندما حاذيت لنافذة بأنه صوته ، وكان جليا واضحا ، وسمعته يقول : « لا أستطيع نوما ياسعدة اذا لم تزوريني وتغمضى باصابعك الرقيقةاجفاني» •

وسمعت صوت سعدة يجيب : « وحق حرمة الولي يا عبدالسميع ، لولا خوفى من الرقيب لزرتك في الايام المقمرة ايضا » •

فأجابها : « ان الولى يحمينا ، فلا تخشى بأسا » • ويظهر ان سعدة كانت تؤمن بحب أخى اكثر من ايمانها بكرامات الولى ، فتنهدت وقالت : « انى اخاف من شر ابن عمى ، فهو يحبني ولا يعترف بولى ، وربما قتلك لو

شعر باجتماعنا هنا » • وسمعت بعد تلك المحادثة القصيرة وسوسة القبل ، وصوت ضحك خافت يشير الى ان هناك مداعبات ودغدغة • وابتعدت بخفة وانا لا اكاد اصدق اذني ، وكدت اعتقد ان ذلك من عمل الشيطان ، وقد اوحى الى عقلى بأن لا اتداخل خوف الفضيحة • ومضيت نحو القبر وكأنى في حلم مزعج وقد ازددت اصرارا على ان اتوسل الى الولى ان يزيح عن عيني الحجب • وفتحت الباب بخفة ، ودخلت المرقد فشعرت بالرهبة تطبق على صدرى ، ولاح لى شبح القبر مخيفا في وسط تلك الغرفة الضيقة • وكان ظله يتحرك فوق ارض الغرفة كلما تحرك لهب السراج ، وسمعت صوت شخير كان خافتا ثم نشز عند دخولى ، ومددت رأسى وراء القبر لاستطلع مصدره فرأيت ابي متمددا فوق حصير في الطرف الثاني من القبر ، ولم أر من الصواب ان اوقظه ، ففرشت سجادتى وبدأت اصلى • ومضيت في صلاتي حتى كلت ركبتاى ، وكنت اثناء الصلاة اسمع شخير ابى يعلو وينخفض كأنه يحتج عليّ ، ثم جلست على سجادتى وبدأت أعيد كل ما تعلمت من الادعية والاوراد ، وقضيت في ذلك ما يقارب الساعة شعرت بعدها بالنعاس يدب الى جفنى ، فرفعت ستار القبر فقبلته مرارا ثم تضرعت الى الولى ان يلهمنى الرشد والصواب ، وتمددت على سجادتي فوق تلك الارض الرملية الرطبة لاريح ركبتي المتصلبتين • وتوسدت ذراعي ورحت أتخيل اخي يحتضن سعدة ، ويقبلها على مقربة من الشيخ دون ان يكسر رقبته ، وتذكرت ما كنت اسمعه من تلاميذ المدرسة عن فضائح تشابه هذه يروونها عن القسس والرهبان • وتذكرت ان تلك الاخبار كانت تسرني وتضحكنى لانها تفضح الكفرة واعداء الدين • ولكن ها هو اخى يقتدى بهم ، ويقوم بمثل افعالهم المنكرة على قاب قوسين من قبر الولى ، فهل تراه سيبطش به ؟ وتخيلت الولى ينهض من قبره فيأخذ حربته تلك ويهجم على الخونة فيطعن قلوبهم النجسة • وبينما كنت غارقا في تلك الافكار والاخيلة شعرت بحركة بجانبي ، ورأيت على الحائط

رجلا ينهض متثاقلا وهو يتجشأ ، فجمدت الدماء في عروقي من الرعب ، اذ ظننت الخيال قد انقلب حقيقة • وبقيت ارقب الظل كالمشلول دون ان ابدى حركة او اتنفس ورأيت يديه تمتدان الى وسطه فيخرج شيئاً قصيراً يشبه الحربة ثم يجلس ، وبعد ان يحفر التراب بيده يسكب من تلك الحربة سائلا كنت اسمع صوت انسكابه وسط ذلك السكون بوضوح ، وبعد ان انتهى من تلك العملية النكراء ، اطلق من تحته صوتا منكرا كان له دوى غريب في ذلـــك السكون ، ثم اعاد الرمل الى الحفرة التي بال فيها ، ورجع فتمدد ثم عـاد الشخير الذى كان قد انقطع •

وعا الي ّ صوابي الذى سلبه الخوف تدريجيا ، وصرت أفكـــر كيف تجاسر أبى على ان يبول قرب قبر الولى الذى يعمى العيون ويكسر الرقاب ، وشعرت بأن حيرتى تتبدد وشكوكى تنقلب الى يقين ، فكأنى قد استيقظت على ذلك الصوت المنكر ، وضحكت حين خطر في بالى ان صلاتي ودعائي لم لم تذهبا هباء ، فقد استجاب الشيخ لتضرعي وبدد اوهامى كلها بضربة • واقسم ان كل تلك البراهين الدامغة التي تلقيتها للقضاء على اعتقادي بحقيقة الولى لم تعمل جميعها ما عملته تلك الضربة •

وانسللت ، بعد ان تأكدت من نوم أبى ، فخرجت من القبـــة ، ولمـــا جاوزت باب الجامع لمحت على بعد في ضوء النجوم شبح امرأة قد انســـلت قبلى ، ولعلها قد توصلت الى ما توصلت اليه قبلى ايضا • وعندما وصلت الى الدار رأيت امى قلقة فى انتظارى • فأخبرتها بانى كنت اتهجد في قبة الولى • وسألتها عن خبر سعدة امرأة عباس ولماذا تذهب الى المرقد ؟ فاجابت بانها لم تلد منذ سبع سنين وقد وصف لها اخي أن تنام قرب الشيخ اسبوعا في الشهر عندما يكون القمر في المحاق ، وأكد لها بان الله سيرزقها ولدا صالحا •

وفي صباح تلك الليلة ، ليلة المعجزات ، قصدت مرقد الولى ودخلتـــه بقدمين ثابتتين وأنا ابتسم ابتسامة المحنك العاقل • وبعد ان قبلت يـد أبي ،

قبلت ستار القبر ثم عدت انظر الى وجه ابى الوقور نظـرة احتـرام واكبار ما كنت اشعر بهما قبل ان أتأكد بانه هو الولى والآله الذى يسيطر على عقول كل هؤلاء الناس ويملك ارواحهم واقواتهم ، وانـه بمركزه ذاك اعظم من سلطان. . لقد ارتقى في نظرى من رتبة خادم الى مرتبة اله ، ولما توافد الزوار والمتبركون جلست أتلو القرآن ، وبقيت الى الظهر حتى خلا المكان تمامـا وعندها اسرعت الى الحربة فدققت النظر في النقوش التى عليها وبعد جهـد استطعت ان اقرأ ذلك الخط الغريب ذا الحروف المعوجة ، وكانت العبـارة الوحيدة المكتوبة وسط النقوش : « مازندران . فقى عباس » وعندها تأكدت بان عمامة الولى الخضراء هى من مصنوعـات مازندران ايضـا . وتذكرت ذلك الصوت المنكر الذي ازال الغشاوة عن عيني فضحكت ثم ربت على القبر وقلت له ساخرا : « ايها الولى العظيم : لو علم اهل القرية ما علمت لهبوا مرة واحدة فطردوا ابى واستعادوا املاكهم ، فلولاك لكنت ، وجميع اسـرتي ، دراويش تقتات على الصدقات كما كان ابي ، بل ربما لم اكن انا واخوتي في عالم الوجود ! ».

وانتهت سن الطفولة وقد استقر في اعماق عقلى نص قانون عظيم هو : « ان العلم الصحيح والحقائق النيرة خطر عظيم على أرزاق وحياة عدد قليل من البشر » .

القسم الثاني

عهد الشباب

الفصل الاول

انسان بدون اله

« ويل لمن لا اله لــه »

استفتحت حياة الشباب ، وانا في تلك الحالة النفسية والعقلية الحرجة. لقد تهدمت كل معتقداتي مرة واحدة ــ السامية منها والمنحطة . لقد كـانت كلها مبنية على اوهى الاسس واضعفها فلا غرو ان تنهار كلهـا عند انهيـار الاساس .

لقد شعرت بفراغ مريع ، وشعرت بالخوف ايضا . لقد شعرت بأنى في صحراء قاحلة حين تلاشت من عالم الوجود مصادر خيالى المرتبطة بمقدساتي، تلك التى كنت استمد منها سبل الخير والسداد . لقـد تحولت من متدين متعصب الى كافر ملحد ، فجأة ، وفي سن مبكرة . لقد اصبحت انظر الى تلك القباب والمنائر والعمائم نظرة رجل مجرب محنك ، وكنت اسخر من احترام رفاقي التلاميذ لها ، وحتى اولئك الاشقياء ، الذين كانوا لا يتورعون من السخرية بالقديسين والاولياء ، كانوا اقل منى منزلة في تفهم هذه التقاليد المقدسة ، فقد كانوا رغم جرأتهم وتطاولهم على بعض الاوليـاء والصالحين ، يرهبون البعض ، ويستغفرون الله بعد ان يتمادوا في كفرهم وسخريتهم . واما فكرة الله فقد كانت في اذهانهم اكثر رسوخا من رؤوســهم فوق اكتافهم .

هكذا اصبحتُ غريباً بينهم وكنت ادرك خطورة ما توصلت اليه ، فوطنت نفسي على ان اظهر غير ما ابطن ، فاستفيد من جهل الناس بدلاً من ان اكون ضحية لهم • فاتقنت تصنع الغضب والثورة عند سماعي ما يمس الاعتقادات والتقاليد المرعية • وكنت القب بسبب ذلك بالملا المتعصب ، وكم كنت اضحك سراً من هذا اللقب ، وكنت اقول في نفسي عند سماعه : « ايها الاطفال الحمقى ، لن تدركوا عشر معشار ما ادركت ، ولن يتاح لكم ذلك مهما ارتقيتم، ومهما بلغتم من العلم ، لانكم سوف لا تقفون امام الحقيقة وجها لوجه كما وقفت » •

كنت في دور الدراسة الثانوية آنذاك ، وكانت الحال قد تبدلت غير الحال ، فحل الانكليز محل الاتراك ، واكتسحت موجة من الحرية بعض الخرافات ، وانطلقت الاذهان فترة من الزمن تعلن ما يجول فيها ، واحتمت الحرية الشخصية تحت ستار طرد الفاتح الجديد ، فكان ان تكلم بعض الكتاب بكل صراحة ، وهاجموا اسساً قوية من التقاليد والاعتقادات ، وترك بعض التلاميذ الصلاة والصوم ، وتجاهر بعضهم معلناً ذلك مدعياً الجرأة والرقي ، وكان منهم ابطال في هذا المضمار ، ولكني عرفت كيف اكون بطل هؤلاء الابطال وقاهرهم ، فقد صمدت لهؤلاء ، واعلنت عليهم حرباً ضروساً داخل المدرسة وخارجها ، فكنت اتجاهر بالصلاة والصوم كلما تجاهر اولئك الحمقى بالعصيان ، وكنت البطل في المجتمع وبين علماء الدين في البلد • واصبح مركزي لا يستهان به حتى شعرت بأن في استطاعتي ان اسيطر على اساتذتي باجبارهم على عدم الظهور او التكلم بما يمس الدين • وكم فرحت حينما ادركت بأني قد اثرت حتى في القوة الحاكمة ، فباجراءات سهلة اجبرت القوة

المسيحية المحتلة على اصدار مراسيم توجب الصلاة في المدارس ، وتفرض احترام الشعائر • لقد كان انتصارى كاملا لولا حقد رفاقى في المدرسة ومضايقتهم • لقد كان هؤلاءهم الوحيدون الذين يعرفون بأنى اتسلح بالكذب والنفاق لتقليم اظافرهم ، وكسر شوكتهم • كانوا يعلمون كذب ادعاءاتى ولكنهم لا يملكون برهانا فعالا لاثبات ذلك فكانوا يكتفون باظهار العداء والكره، ولم يدرك اولئك الحمقى بأنه لولاهم ولولا حماقتهم لماحصلت على ذلك السلطان القوى • ولم ارهبهم ، بل قابلت عداءهم بعداء ، وكلت لهم الصاع صاعين • وكان اغلب معلمى المدرسة ينفرون منى ، ولكنهم لا يجسرون على الاساءة الي • وكنت الاحظ علائم ذلك النفور المكبوت فأزداد عتواً وجبروتاً• وفي ذلك الوقت تماماً ادركت ان باستطاعتى ان اكون قوياً ، مرهوباً بدون الملاحمد وبدون أن أكون تحت حماية ابي الحسن الذى يلهمني العقل ويهبنى الذكاء • وقد شعرت في ذلك الوقت بأنى عصامى اكثر من ابى ، وقد شعر ابى بذلك ايضا فازداد اعجابه بى ، واشتدت رغبته في اكمال تحصيلى ، وصار يحلم بمستقبلى العظيم في ميدان السياسة • وما كنت اجهل الطريق الذى سيوصلنى حتماً الى هذا المركز المحترم الذى يحلم به ابى ، فليس امامي غير السعى والاجتهاد لنيل الدرجة العليا بين التلاميذ ، ثم السفر الى الخارج على نفقة الحكومة لاكمال تحصيلى ونيل شهادة عالية •

وانكببت على الدروس اقتل بدراستها الليل والنهار ، ولكن لم اكن مولعاً بتلك الدروس حقاً ، اذ كنت أبداً انظر اليها كواسطة تقربنى من مبتغاى، وكم وددت لو اتمكن من اغفالها ، وتحصيل الدرجات بالمحسوبية والارهاب، ولكنى كنت اعلم استحالة ذلك ، لانى غير محبوب من رفاقى ولا من اساتذتى• فلو اعتمدت على هذه الواسطة لكنت حتما في مؤخرة التلاميذ من حيث الترتيب ، هذا اذا لم ارسب عدة سنين ، وبذلك اعطى فرصة لاعدائى للتنكيل بي ، واشفاء غليلهم • وكنت انكب على تلك الدروس رغم كرهى لها ، ولكنى

لم اتمكن رغم كثرة الاجتهاد ومواصلة الليل بالنهار من ان احوز على اكثر من الدرجة الثانية في صفى • لقد كانت امامى عقبة كأداء لم اتمكن من اجتيازها ، وكانت تلك العقبة في شخص التلميذ سامى ، فقد كان هذا بلاءاً مبرماً في ذكائه وسرعة اتقانه للقواعد العلمية والدروس الادبية • لقد كان اعجوبة الصف بذاكرته القوية ، ومنطقه الرياضى ، وسرعة تلقيه العلوم الطبيعية ، والادهى من ذلك انه كان محبوبا من كل رفاقه على الاطلاق ، ومحبوبا من جميع اساتذة المدرسة • ولم اجد من يكرهه في المدرسة • لقد كان هذا الشاب أعظم شخصية اثرت في ذاكرتى فطبعت له فيها صورة عميقة قسراً • وهأنذا اتذكره بشعره الاسود اللامع ، وبشرته الرقيقة البيضاء ، وعينيه الدعجاوين • لقد كان جميلا حقا ، ولكنى لم احبه ، لانه احسن منى ، ولانه كان لايبخل بما يعرفه على رفاقه التلاميذ • لقد كان معلمهم غير الرسمي ، يوضح ما يشكل عليهم ، ويفهمهم ما لايستطيعون فهمه ، ولماذا لا اقول بانه كان احسن من بعض مدرسينا ايضا ؟ لقد كان يحل بعض المشاكل الرياضية العويصة بسهولة، وبطرق بسيطة مفهومة ، اذا ما وقف المدرس امامها مرتبكاً •

لقد شككت مرة بانه انسان فوق المستوى الطبيعي ، لانه لا يفقه للانانية معنى ، لقد كانت كراساته ودفاتره مشاعة بين جميع التلاميذ ، يستنسخونها ، ويستعينون بها • وكم نشأت بين تلاميذ الفصل مشاكل من جراء المسابقة على استعارة كراساته ؛ وكان هو الذى يحل تلك المشاكل ويقضى بين الطلاب فيعطى الكراسة للاسبق فالذى يليه وهكذا • وما كان يكتفى بذلك بل يعينهم على تفهمها واتقانها ايضا • لقد كان معبود الصف والمدرسة باجمعها عداى • وكان مما يزيد غيظى منه وكرهى له انه كان يساعد التلاميذ خارج المدرسة ايضا ، فقد كان بيته منتدى لهم يدرسون فيه ، ويستوضحونه ما يشكل عليهم • وفي احد الامتحانات جاءت درجتى الرابعة بسبب هذا الاحمق ، فما كان منى الا ان ركضت الى المدير مصفر الوجه مرتجف الاوصال،

وطلبت منه بحدة ان يوقف هذا الاحمق عند حده ، اذ ليس من الانصاف ان يتعلم التلاميذ في داره ويتقنوا دروسهم هناك ليبرزوا عليّ ، وقد اتيت تلك الفعلة تحت تأثير الغيظ والحسد الاعمى ، وكم نـدمت عـلى هـذا التسرع ، فقد انتهز المدير اللعين تلك الفرصة لارواء غليله فجمع التلاميذ وسرد عليهم مدعاى • ثم خطب بعدها خطبة قصيرة في ذم انانيتى ومدح اخلاق سامى واطرائه • ولم اجد تلميذا واحدا لم يطرب لتلـك الخطبـة عـلى خـلاف رأى التلاميذ في خطب المدراء ، مهما كان نوعها ، ولم يكتف بذلك ، بـل طلب الى سامى ان يخرج الى باحة المدرسة ليراه الجميع • فامتنع سـامى ، والتفت جميع التلاميذ الى حيث كان ، فرأوه قد انزوى في ركن وهو محمر الوجه خجلاً ، ولم يخرج رغم كثرة الالحاح ، وسمعت احد المدرسين يتمتم وعيناه مغرورقتان بالدموع : « تالله اني لادفع نصف حياتي ليكون عندى ولد كهذا » •

واضمرت شراً ، واقسمت على ان انتقم ، واسرعت الى ابى واخبرته بان المدير والمدرسين قد تآمروا عليّ لانى تقى لا ارضى عن كفرهم ، وجعلوني الرابع في الترتيب ، ولم يكتفوا بذلك بل دفعهم غلهم الى تحريض التلاميذ على كرهي ، وصاروا يعلنون امام التلاميذ باني شرير اناني ، وان غيرى غيور ذو اخلاق عالية ، فاحمرت عينا ابي غيظا واسرع الى رئيس العلماء ودبر معه امرا ، ثم اسرع الاثنان الى مدير المعارف الموكل بسياسة المعارف في البلدة ، وما زالا به طوراً بالوعود وتارة بالوعيد ، حتى اجبراه عـلى نقل المدير الى مدرسـة اخرى • ولم يعلم غيرنا ، حتى ولا المدير نفسه ، سبب ذلك النقل ، لأن مدير المعارف لم ير من الحكمة بيان السبب الحقيقي ، فذكر في ذيل الامر ان النقل كان تقديراً لادارته الحسنة ، وانه قد حدث بسبب اعتماد وزارة المعارف عليه لاصلاح ما فسد في المدرسة المنقول اليها حديثا •

ولكن المدير الذى اعقبه لم يكن باحسن منه ، وقد حاولت عبثاً ان اثبت امامه بانى مخلص له ولانظمة المدرسة . واخيراً لم اجد مناصاً ، بعد ان اعماني الحقد ، من التجسس على رفاقي وفضح اعمالهم وسلوكهم عنـد المدير ، فكنت اسرع الى نقل كل ما يحدث في الصف ، وافضح الاسرار فارشد هيئة المدرسة الى الاشرار من التلاميذ ، وقد حدث مرة ان تشاجر غسان مع احد التلاميذ ، وضربه ضرباً مبرحاً ثم تصالحا ، وكان غسان هذا من اكبر انصار سامى ومحبيه ، وكان قوى الجسم كالثور يخشى الجميع بأسه وسطوته. وحدث ان انكسرت زجاجة احدى النوافذ اثناء ذلك الشجار فأحب غسان ان يتلافى الامر ، فذهب الى المدير واخبره بأن الزجاجة قد انكسرت عفواً اذ عثر وانكفأ على النافذة فاصطدمت بكتفه . ولم يعبني ان تمر الحادثة بسلام، فأسرعت الى المدير واخبرته بحقيقة ما حدث . وكانت نتيجة سعايتى ان طرد المتشاجران طرداً موقتاً بعد ان وبخا امام التلاميذ . وعلم غسان بأنى كنت الواشى فنظر نحوى عند خروجه من المدرسة وعيناه تقدحان شرراً ولم اعلم آنذاك بما دبر لي .

الفصل الثاني

العقاب الاول

« انتم يا من تسمون كل من ساق امامه قطيعا من البشر عظيما ، هلا خبرتموني ما الفرق في نظركم بين اللـه والشيطان ؟ »

لقد ايقنت بعد تلك الوشاية ان غسان سينتقم ، ولكوني لم اذق مرارة الانتقام قبل ذلك ، لم ادرك عقبى الاساءة الى الغير ، وكم تكلف عاطفة الحقد والضغينة ، حتى حلت الكارثة ، ووقعت تحت طائلة عقاب غسـان القاسى الفظيـع •

ففى مساء ذلك اليوم خرجت من الجامع بعد صلاة العشاء ، وكانت دار غضبان افندى التي كنت اسكنها تبعد عن الجامع ما يقـرب من الخمسمئة خطوة • ولابد لقطع هذه المسافة من اجتياز منعطف مظلم قليل السـرى • وكنت ارتجف من الخوف عند قطعه ، اول عهدى به ، فلما اعتدته صـرت اقطعه كل ليلة دون خوف او وجل • ولكنى كنت في تلك الليلة اوجس خيفة بصورة غير اعتيادية ، وحدثنى قلبى بأنى سأصاب بمكروه ، فقد كانت نظرات غسان المملوءة تهديداً ووعيداً لا تغيب عن ذاكرتي •

واسرعت الخطى لانتهى من قطع ذلك المنعطف المخيف ، ولما وصلت الى منتصفه ، اطبق على اربعة اشخاص سد احدهم فمى بيده ، ثم حملوني الى زاوية منه حيث رموني على الارض بعد ان كموا فمي • وعلمت من صوت زعيمهم بأنه غسان وعرفت من رفاقه ، انه احمد ، التلميذ الذى طرد معـه ،

وتلميذان آخران لم اتبينهما جيداً ، وهمس غسان في اذني : « ايها الكلب القذر أتظن ان باستطاعتك بخبثك ودناءتك ان تسيء الى امثالى ؟ » .

لم يكد ينتهى من كلامه حتى انهالت على جسمي بضع صفعات خفيفة ، وسمعت غسان يحذرهم من اسالة دمى ونلت ضرباً مبرحا على يدى ورجلى ، وهاج غسان ، فشد يده وصار يضربنى ضرباً موجعاً ، ولو لم اكن مسدوِد الفم لملأت الدنيا صراخاً . وقد خشيت ان يجن خصمى غضباً فيقتلنى ، وهو في ثورة جنونه ، ولكن تلك النوبة انتهت بسلام وتركوني بعد ان كاد يغمي عليّ من شدة الخوف لا من شدة الضرب ، ثم حلوا وثاقي وازاحوا الكمامة عن فمي ، ثم كسعنى[1] الاربعة الواحد بعد الآخر واطلقوا سيقانهم للريح ، واختفوا كالشياطين ، ورجعت الى البيت وأنا ارتجف غيظاً وألماً ، وعندما وصلت الى الدار ذهبت تواً الى فراشي وصرت ابكى قهراً ، ولم اخبر احداً بتلك الحادثة ، فقد خفت ان يمس ذلك كرامتي ، ويزيد في مذلتي ، ويجعلني مسخرة لرفاقي ، ومحط اذاهم .

وكان ذلك العقاب القاسى اول درس عملى تلقيته فتعلمت منه ان احذر امثال هذا المجنون غسان ، ولكنه لم يخفف من نفسى الحقد وحب الانتقام ، بل على العكس زادهما قوة واولع نيران الكره في قلبى ، واكسبنى في الوقت نفسه مهارة في وضع خطط الانتقام الجهنمية ، واجبرنى اجبارا على اخفاء عواطف الكره وحب الانتقام تحت ستار من اللطف والدماثة ، وأقسمت ان انتقم من غسان ورفاقه ، ولكن بطريقة جديدة لا توقعنى مرة اخرى تحت سياطهم اللاذعة .

واليك حادثة تريك مبلغ ما وصلت اليه من مهارة وحذق في ابتكار خطط الانتقام . فقد حدثت بعد مرور اشهر عدة سرقات في المدرسة ضج التلاميذ منها ، وضايقوا المدير بشكاياتهم والحوا في الشكاية من هذا السارق

(١) الكسع : ضربك دبر الانسان بصدر قدمك .

الذى كان يحرمهم من كتبهم وكراريسهم • وحامت الشبهات حول الكثيرين من التلاميذ الفقراء ، وكان من جملتهم غسان • واتخذت ادارة المدرسة بعض التدابير السرية لاقتناص السارق ، وكان من جملة هذه التدابير السرية تفتيش التلاميذ عند انصرافهم حين حدوث السرقات وطلبت ممن يسرق له شيء ان يخبر الادارة قبل ان يعلن ذلك • وانتهزت فرصة خلو الصف قبل الدرس الاخير في احد الايام فاخذت كتاباً لاحد التلاميذ ووضعته في درج غسان وراقبت التلميذ بقلب متبهج عند ذهابه الى المدير ليخبره سراً بالسرقة • وقبل ان يخرج التلاميذ قدم مدرسان مع المدير الى الصف وبعد ان امروا التلاميذ بالخروج شرعوا بالتفتيش ، وعثروا على الكتاب المسروق في درج غسان ، ولما علم الاخير بالمصيبة التي حلت به فتح فاه دهشة ، وخيل الي وانا انظر اليه متشفياً انه قد جن • وعبثا اقسم بانه لا يعلم شيئاً من كل ما حدث ، وعوقب عقابا صارما ، ولكى ابعد عن نفسي الشبهة تبرعت بالشهادة واقسمت على انى رأيت كتبه قبل حدوث السرقة ، فلم أر الكتاب المسروق بينها •

كنت ضئيل الجسم نحيفاً موقناً بحقي في التقدم والرقى ، وكانت تلك الفكرة قد غرست في رأسى منذ الصغر ، حتى اصبحت جزءاً من عقليتي وتفكيري ، واستولت على حياتي ، وكانت كل تلك الاساليب والخطط نتيجة لهذه الرغبة التي كانت تسلك طرقاً ملتوية عندما تصطدم بمانع قوى •

وكان كرهي للتلاميذ ، وحقدي عليهم يدفعانني حتما الى كره كل ما من شأنه ان يفيدهم ، ويعود عليهم بالخير ، فكرهت كل مشاريعهم واعمالهم المشتركة ولو اني كنت اجاريهم في بعضها اضطراراً خوفا من سخريتهم ومكرهم ، ولكن كل محاولاتى تلك لم تكن لتجعلنى موضع حبهم وثقتهم • فقد بقى سامى معبودهم ، وبقيت موضع مقتهم واشمئزازهم • وقد حاولت يوما ان اثنى عزم سامى عن مساعدتهم ، فأخبرته بانه انبقى متبعا تلك الخطة فلربما تقدم احدهم عليه ، وسلب منه حق التفوق والتقدم فاجابني ساخراً :

« ولو حدث ذلك فسيكون بسببي ، وسوف لا يغيظني ان يبرز احد التلاميذ، ويتفوق في دروسه بل سأتباهى بأني قد لقنت ذلك التلميذ من العلوم ما جعله يحوز تلك الدرجة » .

وقد ادهشني منطقه ، وتأكدت بانهانسان شاذ وكدت انخرط فيسلكمن كان ينظر اليه نظرة اكبار واجلال ؛ ولكنى لم احبه ورغم ذلك لم تطاوعنى نفسي على الاساءة اليه ، ويظهر ان سبب ذلك كان اقتناعي بانه انسان لايسعى الى تقدم ، ولا يتناحر في سبيل الامور المادية . ومع انى كنت استسخف اخلاقه فقد كنت اثق بان كل الاذكياء لو كانوا على شاكلته لاصبح التلاميذ في نعيم .

هكذا كانت تمرسنى الدراسة ، وكانت بالنسبة لى عبارة عن حرب ضروس بيني وبين كل فرد في المدرسة من مديرها الى اصغر تلميذ فيها . وكانت حرباً سلبية لا ايجابية ، فيها من اساليب المكر والدهاء ما يعجز عنه اعظم ابطال التاريخ في هذا الباب .

وهنا يجب ان اذكر ان دروس التاريخ كانت تلذ لى كثيراً وكانت دراسة تاريخ حياة بعض المشهورين في التاريخ بالمكر والدهاء والسياسة مصدر لذة عجيبة لى . لقد كنت استعرض خططهم الجهنمية ، واساليبهم الشيطانية في اذلال اعدائهم ، والانتصار عليهم بحماس واعجاب . وكم رأيت بينهم من وضيع ارتفع الى اعلى الدرجات ؛ وخامل الذكر قد تبوأ عرش مملكة واسعة الاطراف . وما كنت اكتفى بتلك الابحاث السطحية في الكتب المدرسية ، بل كنت اغوص وراءها في المفصلات والمطولات، وادرس اعمال هذه النماذج بكل دقة وامعان. وقد كنت اشعر بالفخر والمباهاة عندما كنت المح شيئاً غير قليل من التشابه بين طباع هؤلاء وطباعى ، واساليبهم واساليبى ، وكم كنت سريع الحفظ لسيرهم ، شديد الانتباه الى ميولهم وطباعهم ، كثير الفهم سريع الادراك لنواياهم الخفية وخلجات نفوسهم الغامضة ، حتى غدا بامكاني ان

اكتب تأريخا جديداً على نمط حديث يفوق كل تلك التواريخ المطولة ، ولكني كنت اعلم ان ذلك العمل لا يكسبني شهرة ، ولا يلفت الي ّ الانظار ، هـذا اذا لم يكن مصدر سخرية الناس بـى . لذلـك اكتفيت بمـا تلقنتـه مـن دروس عملية لا تقدر بثمن . وقد استخلصت من دراستها فلسفة استطيع ان الخصها لك بعدة سطور. وهي ان علماء العالم الذين سجلوا أسماهم على صفحات التاريخ ثلاثة اقسام ، قسم يفتح قلوب الناس بما يحمله من افكـار عاليـة سـامية ينشر بواسطتها فضـائل المسـاواة ، وقتـل الانانيـة والتكاتف والسلام ؛ وهؤلاء هم اهل الاديان والفلاسفة . وآخرون قـد وهبتهم الطبيعة قوى خارقة في التأثير على الاشخاص وتزعمهم . ويقود هؤلاء الامم لتحقيق مثل الاوائل العليا . واما القسم الثالث فلديهم قابلية عظيمة لدراسة عقول القسمين السابقين اى قادة الروح وقادة الجسد ، واستخدامها لاغراضهم ومراميهم . ويغلب ان تعتبر مرامى هؤلاء واطئة منحطة في نظـر القسم الاول . ولست من القسم الاول فقد هدمت كل ما كان في رأسى من المعتقدات الدينية والروحية والمثل العليا من دور الطفولة ، ولست من القسم الثاني ايضا لاني ضعيف الجسم رعديد جبان . ولكنى اعتقد بانى من القسم الثالث اى ممن يسخرون قادة الروح ، وقادة الجسم ، ويستحوذون على ثمرة اتعابهم غنيمة باردة .

ويعجبني من ابطال التاريخ الاسلامي معاوية بن ابى سفيان ولى في هذا الملك العظيم رأى قد يختلف عن اراء كل المؤرخين والكتـاب والفلاسفة ، وسوف لا ابخل به عليك كشاهد لما تقدم من فلسفتى . لقد بنى محمد صلى الله عليه وسلم مجداً روحياً وديانة سامية ذات نظام انساني رفيع ، ووجـه ضربات قاضية للجشع والاستغلال والانانية ، وما يماثلها من طباع حيوانية في الانسان ، وكان قائداً روحياً لا يعرف العالم له نظيراً ، وملأ الايمان قلوب ابطال العرب وصناديدهم فأنطلقوا تحت تأثير تلك الحمى الدينية يقاتلون الظلم

ويحاربون الاستبداد في كل بلاد الله ، وتحت ذلك الاسم برز قواد عظام افتتحوا الامصار واكتسحوا البلاد ، فهدوا عروشا شيدت على الظلم ، وحطموا تيجانا هي رمز الاستبداد والهول ، وكان من هؤلاء سعد وخالد واضرابهما ، وكان معاوية العبقرى ينتظر فرصته ، وما ان رآها بين يديه حتى انتهزها • لقد استحوذ معاوية على اسمى ما وضعه اكبر قلب انسانى ، واعظم ما شادته سواعد اقوى الابطال ، للهوه ، ولهو افراد اسرته وترفهم • لقد استولى على تلك الثروة وكل ذلك دون ان يكون نبياً او قائداً مغواراً • لقد اسكت الناس بالذهب ، واشترى الملك بالحيلة واستخدام الدس والسم والخنجر للاستيلاء على الحكم • ولم يأت الاسلام الا لمقاومة مثل تلك الاساليب ، ولكنه استعملها باسم الاسلام • وقد تعترض عليّ فتقول ان معاوية لم ينجح الا لما برد الايمان في نفوس القوم ، وان تلك التعاليم السامية متعبة للنفس الانسانية لانها اعلى بكثير مما تستطيع احتماله ولكن يجب الا تنسى ان الرجل كافح كفاح الابطال بحيلته لا بسيفه ، ولا بايمانه • وفى رأيى انه كان اعقل من كل اولئك جميعاً •

وانى لا ميل الى تصنيف التلاميذ البارزين في المدرسة حسب هذا الترتيب • فسامي من طراز ذوى القلوب الكبيرة والاخلاق السامية ، وهو محترم ومحبوب لاخلاقه • وغسان يتبعه قسم كبير من التلاميذ لقوة جسمه ونبل عاطفته • ولكنى استغل هؤلاء جميعاً والعب بهم وبمقدراتهم ، واستفيد منهم ايضا فاكون كمعاوية تماما قويا ومنتصرا ، ولكننى غير محبوب •

الفصل الثالث

كن جميلا تر الوجود جميلا

« ما اسخف اولئك الذين يظنـون ان الطغيـان يسعد والعدل يشقى »

اوشكت سنى الدراسة الثانوية ان تنتهى ، وشاع في الاوساط الدراسية خبر عزم الحكومة على ارسال بعثة من بعض التلاميذ الاذكياء الى الجامعات الغربية ، بغية تكوين نواة مثقفة مجهزة باحدث المعلومات للحكومة العراقية المستقلة الفتية ، وقد ادركت ان للسياسة يداً في مثل هذا القرار ، وان القصد من هذه البعثة لم يكن نشر العلم فحسب ، بل كسب الرأى العـام ايضا • فعمل كهذا يدل على أن الحكومة الفتية تهتم برفع مستوى الثقافة ، وتفكـر بمستقبلها تفكيراً جدياً ، ولا غبار على الحكومة في نيتها تلك ولا يسع المهتم بشأنها الا ان يشكر سعيها ، وينظر بعين التفـاؤل الى مشروعاتها ، ولكنى نظرت الى ابعد من ذلك ، وقلت لنفسي « ولكن ما يضير الحكومة اذا اكتسبت الرأى الخاص بعملها هذا فضمت بعض المتنفذين الى صفها ايضا ؟ »

ولما كنت من غير الاوائل البارزين صممت على كسب احدى هذه البعثات بنفوذ ابى الذى كان وقتذاك قد تبوأ مركزا عظيما في المنطقة الشمالية مـن الموصل ، وصارت السلطة المحتلة ، والحكومة الفتية تنظران اليه نظرة خاصة، اذ كان نفوذه الروحى قد انتشر ، ومع انـه لم يشترك في ثورة من ثورات الاستقلال ، الا انه كان ابداً مصدر رعب للطرفين • وكان ابى حاذقا ، فلم يضع نفسه مطلقا تحت تصرف احد الطرفين ، ولكنه كان سريع الانتباه قوى

الملاحظة ، يدرك مجرى السياسة ، ويفهم اساليبها • وهل السياسة بكل انواعها الا ضرب من مكر ابى وحيلته وشعوذته ! كان يتحرى الاخبار ويتنبأ بالكفة الراجحة ، فينحاز اليها قبل ان تنال النصر الاخير ، بوقت وجيز ، فيقدم لها قليلا من الخدمات ، وبذلك يكسب عطفها وثقتها ، وينال بواسطتها اضعاف ما قدم • وهكذا لم اكد اخبره برغبتى في تلك البعثة حتى اسرع الى ذوى النفوذ في الدوائر المختصة ، ورجع فانبأنى بان اسمى سيدخل حتما في قائمة المرسلين ، وان ذاك لا يحتاج الى تكرار الطلب ، والاستدعاء وما شابه ذلك ، ثم اضاف مزهواً : « وهل يستطيعون ان يفعلوا غير ذلك » •

وعندما اعلنت اسماء المرسلين في هذه البعثة العلمية الاولى وجدت اسمى في اولها • ولم يكن اسم سامى ضمن الاسماء التى تحويها تلك القائمة ، وحدث لغط بين التلاميذ ، ولكنه لم يتعد جدران المدرسة ، وتساءل الكل عن سبب اغفال سامى وارسالى بدله ؟ وكانوا يعرفون الجواب على ذلك • لقد كان سامى افقر تلميذ في المدرسة ، وكانت عائلته من العائلات المغمورة غير المعروفة ، ولكنها كانت مشهورة بين معارفها بالاستقامة والصدق وطيب الاخلاق • وزادت هذه الحادثة في كره التلاميذ لى ، وفى شدة تعلقهم بسامى، وقد بلغت درجة حقدهم ان صاروا يقذفون بوجهى اسباب ارسالى بدلاً من سامى مع شيء من التهويل ولم يهنئنى من بين جميع التلاميذ سوى سامى الذى عد ضحية السياسة الخرقاء التى تعفر الجباه أمام المشعوذين والكلاب المطوقين بالذهب كما كان يقول الطلاب ، وقد شعرت عندما صافحنى مهنئاً بشيء من الالم ، ووددت من كل قلبى لو كان لهذا الشاب اخلاق تجعلني اكرهه وانفر منه •

ومما زاد في ثورة التلاميذ وجنونهم علمهم بان هيئة المدرسة قد قامت وقعدت عند سماعها الخبر ، وان المدير قد احتج ، ولكن كل ذلك لم يكن له اثر في تقريب سامى من البعثة او ابعادى عنها وقد بلغ التحمس باحد

المدرسين ، وكان عصبي المزاج ، ان صرح امام كل التلاميذ في الصف بان الحمايات والوساطة والسياسة الاستعمارية قد لعبت دورا شائناً في ترشيح التلاميذ لهذه البعثة . وحمل حملة شعواء على وزارة المعارف ، وواسى سامى بكلمات لطيفة تزيد من قيمته ، لهذه المعاملة الشاذة . وتحمس كل التلاميذ لكلام المدرس . اما انا فقد شعرت بالغيظ يخنقني وبعاطفة حب الانتقام تطغى في نفسى على كل ما عداها وقد شعرت بان ذلك المدرس مسؤول عن هذه الاهانة التي لحقتني ، واسرعت الى ابى عصرا وانبأته بتفاصيل ما حدث فاحتج بصورة خصوصية كعادته . ولم اعلم نتيجة ذلك الاحتجاج حتى حان وقت السفر . فقد علمت ان المدرس قد عوقب بنقله الى قرية صغيرة فودعه التلاميذ بمظاهرة رائعة ، بعد ان احتل تلك المنزلة من قلوبهم ، فكان في ذلك عزاؤه .

ونغصت على تلك الحوادث سرورى في البعثة ، وزادت في شدة كرهى ونفورى من التلاميذ والمدرسة والمدير والمدرسين ، ولولا اشتغالى باعداد معدات السفر ، واضطرارى الى الانقطاع عن المدرسة لظهر ذلك الغضب بشكل مؤامرات وفتن ابثها بين التلاميذ والمدير والمدرسين فتوقعهم في مشاكل كثيرة ، ولكن تلك السفرة ، وقرب تخلصى من هذا المحيط المتعب كان من حسن حظهم جميعا .

وآن اوان السفر ، فشعرت بأن كابوساً مزعجاً يرتفع عن صدرى ، ولا عجب ، فقد كان ذلك الكره المتبادل بيني وبين كل فرد في المدرسة مصدر جهد عصبى ، ومتاعب عقلية وفكرية كثيرا ما كانت تسبب لى ازمات نفسية مزعجة ، فعلى الرغم من تلك الفلسفة الذئبية التى كنت ادين بها ، كنت اشعر في بعض الاحيان ، عندما اخلو الى نفسى ، بأنى وحيد في هذه الدنيا ، وانى مطارد من الكل كالكلب الغريب عن الحارة ، وكان التلاميذ القساة لايعرفون هوادة ولا لينا في مطاردتهم ومضايقتهم ، ولولا اننى كنت ابرز مخالبى في

بعض الاحيان ، واقابل الشر بمثله ، لما استطعت البقاء في اوساطهم ولا لحظة واحدة • لقد كنت مصدر غمزهم ولمزهم ولهوهم وعبثهم ، وحينما تواتيهم الفرصة للعبث بي فالويل لي يومذاك ، لقد كانوا يضحكون من صلاتي ومن تهجدى ومن تقواى الكاذبة ويتهموننى بالكذب والنفاق والدس والمكـر ولكنهم كانوا دائما يسوقون الحديث بشكل لا يمكننى من امساكهم ، ورفع امرهم الى ادارة المدرسة ، وكثيرا ما كنت ارجع الى البيت وانا مثقل بالهم ، فانزوى في غرفتى واستعيد كلمات رفاقي وكثيرا ما كانت عيناى تغرورقان بالدموع فاكاد ابكى ، ولكن كبريائي لا تلبث ان تثور ، فأهدد واتوعـد وانذر اعدائي بالويل والثبور •

واظن القارىء قد ادرك اى حرب عاطفية عنيفة كانت تنشب في نفسى ، فلا يخمد اوارها قبل ان تمزق اعصابي وتنهك قواى • امـا عواطف الحب والرحمة والصداقة فما كنت افقه لها معنى ، حتى كدت انكر تلك الكلمات وارفض ان اعترف بمدلولها اللغوى • لم يكن بين كل التلاميذ من يشعر بشيء من العطف عليّ او الرأفة بى ، ولم يضحك احد منهم في وجهى الا للسخرية بى ، ومن هؤلاء جميعا كان يشذ سامى ، فلم اشعر بأنه حقد علي يوما من الايام او اضمر لى شرا او حقدا ، ويخيل الي ان مدلول كلمات الحقـد والسخرية والمقت ليس لها معنى في قاموسه • لقد كنت آنس به في كثير من الاحيان ، واركن اليه ، واستشيره في كثير من امورى • وكنت اجده دائماً نعم الرفيق وخير نصوح • وقد كاشفته يوما بما يدور في بالى فرثى لي وقال : « يا صديقى ان الدنيا وما فيها لا تساوى كل هذا العذاب النفسانى • ان الله قد خلق في نفوسنا نعيما وجحيما • جرب مرة وجرد نفسك من كل عوامـل الحقد تر انك مرتاح البال • وحاول فعل الخير تشعر بأنك في جنة خالدة ، حتى ولو عذبت وقطعت ارباً ارباً • ان في نفسك نعيماً وجحيما فلماذا ترمى نفسك في الجحيم وتترك النعيم ؟ اما هذا الحرص الذي يكاد يكون جزءا منك فسيكون مصدر شقائك في الدنيا طويلا ؟ » •

ولقد سألته بعد أن انهى كلامه : « انك غير حريص فيما يبدو لي وانت كريم بما تعرفه او تملكه ، ولكنك دائماً متقدم علينا قد استأثرت بحب كـل افراد المدرسة وهيئتها ، وانت لم تصرف في ذلك شيئاً » • فتبسم وقـال : « انك مخطىء قليلاً في هذا يا عزيزى ، فلدى متاعبى المنزلية التي لا تخطر في بالك • اننا اسرة مكونة من عشرة اشخاص ، ليس عندنا ما يقوم باودنا غير خمسين ربية نقتات بها في الشهر ، وهي راتب تقاعد ابى المتوفى ، ولى اربعة اخوة في المدرسة ، وجدة عجوز ، وام لا تعرف الكسل والخمول ، واختان في المدرسة ايضا • انك لم تلاحظ بأنى ارتدى كسوتين فقط كل ايام المدرسة • وليس لهؤلاء في الدنيا غيرى • لقد سمعوا بتقدمى • واملهم بعض اساتذتى بمستقبل زاهر احققه انا ، وهم ينتظرون هذا المستقبل يوما بعد يوم ، ومع كل ذلك فلست حريصا على ان اكون احسن من كل رفاقي في المدرسة ، فأنت ترى انني اجود عليهم بكل ما اعرف ، كما اجود على اسرتى بكل ما املك ، ولم اتعمد يوما ان اكون متقدما عليكم ، ولكنى رغم كل ذلك اشعر بكثير من هدوء البال والطمأنينة ، وبشيء من المرح ما دمت اجد قوتا وكسوة ، وهكذا يتفتح ذهنى الى الدرس وتلقى العلوم • اما انا فلست احلم من هذا المستقبل الذى يحلم به اهلى الا براتب يكفى هذه الاسرة ، ويجعلها تتذوق طعم الحياة الصحيحة • ولو حصلت على ذلك فلست اطلب اكثر منه » • وادهشتنى هذه القناعة وحسبدته على حاله ، ولكن لمدة قصيرة ، اذ سرعان ما تذكرت بأنى لو كنت في مثل وضعه لانتحرت ولم اتحمل الحياة ولا لحظة واحدة •

واعود فأعترف بأن هذا الشاب الذى كنت ازعم بأنى لم اسيء اليه في كل حياتي الا فيما يخص اغتصاب البعثة منه ، كان ملجأى الوحيد عندمـا تشتد بى الازمات ، واشعر باليأس والالم الناجمين من انفجار بركان غضبى وحقدى ، وكنت اجد دائماً عنده ما يخفف عنى بعض تلك الآلام ، ويـوم سافرت لم اودع من بين كل رفاقى غيره ، ولم يتمن لى الخير احد سواه •

الفصل الرابع

عاهــرة

« اسكب قليلا من الماء على تلك الاجساد الملوثــة
بقذارات الحياة تر جمالا لا تحلم بامكان وجوده في مثل
تلك المباءات القذرة »

وحان يوم السفر ، وكنت انتظره بقلب خافق ، ونفس مشتاقة متلهفة الى استطلاع عالم جديد مختلف وراء ستار على وشك الارتفاع، عالم الحرية والانعتاق والمتع • سأنطلق هنالك ، وسأبدو كما انا دون ان اجد من يحاسبني، ويتسقط زلاتي ، ويتمنى ان يبدو مني ما يعيب فينتهزها فرصة للحط من كرامتي ، والطعن باخلاقي • سوف القي هنالك الصلاة جانبا دون خوف ولا وجل ، وسأذوق كل تلك المحرمات التي يتوق اليها كل شاب ، ويحلم بهــا ليل نهار ، سأطلق الحرمان ، سأرى النساء وسأذوق الخمرة في دار الغربة ، ومن يعرفني هناك ؟ » •

وركبت السيارة وودعت اهلي وصحبي ، كما ودعت ابي ، وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع ، وقد تمنيت ان ارقص واقفز وأصيح بأبي ان يكف عن حزنه وكآبته لاني مبتهج مسرور لترك هذا المحيط الشديد المراقبــة الــذي يشيب الطفل ، ويقتل الشاب ، وقد ضحكت فعلا عندما غابوا عن نظري ، دون ان احس الما لفراقهم ، واحزن للهفتهم • وكنت طوال الطريق احلم بشيء واحد • بكأس الخمر التي قرأت عن اوصافها وافعالها دون ان اجسر حتى على التلفظ باسمها ، وبالمرأة التي كان مجرد ظلها وذكر اسمها يلهب الدماء في

عروقي ، ويرسل رعشة الى جسدي ، ويجعلني اتلفت ذات اليمين وذات الشمال خوفا من وجود من يلحظ ما يخالجني من عاطفة ، وما يخامرني من لهفة . وكم اضطررت ان ألعن النساء في مثل هذه المواقف لطرد الشبهة ، والظهور بمظهر التقي العفيف الفاضل الاخلاق .

وكان طريقنا الى الشام ، ووصلنا اخيرا الى هذه الشام . وقد كانت تلك البلدة جنة الخلد في نظري ، اذا قورنت بالقرية التي نشأت فيها وبمدينة الموصل . كانت اقل قبابا واكثر حدائق وألطف جوا واعذب ماء وارق هواء. وفوق كل ذلك ، وهو من الاهمية عندي بمكان ، ليس فيها واشٍ يراقبني او حسود يهددني . واسترحت من عناء السفر ، ونمت في الفندق الذي نزلت فيه من الصباح الى المساء . ونهضت والشمس قد اختفت وراء الافق ، فاغتسلت وتطيبت واصلحت هندامي ووضعت قليلا من الدراهم في جيبي، وخرجت انشد الجنة المحرمة ، وقفزت الى اول عربة صادفتني ، وصحت بالسائق بعد ان ساومته على الاجرة كما اوصيت قبل السفر : (المنزول) وتبسم السائق ، ونظر الى سدارتي وقال « انت عراقي كما ارى ايها الافندي. انكم كلكم تقصدون المنزول حال وصولكم . الا خبرني أليس في بلدكم نساء ؟ ام انكم لا تملكون غادات حسان كحسان الشام وسوريا ؟! ام ماذا ؟» .

فأجبته وقد راقني ان احاوره : « ان زيارة مثل هذا البؤر ممنوع عندنا محظور علينا ، فنحن هنا اكثر انطلاقا ، نستمتع بما حرمنا منه في بلادنا في غفلة من الرقيب والمنتقد المعيب » .

وضحك الحوذي وساط جواديه وهو يقول « وهل في استطاعة اية قوة ان تحول بين الجنسين ، وتكبت تلك الجاذبية المتبادلة بينهما ، اذن فهيا واهنأ يا صديقي الصغير ، وليبارك الله لك في البداية ! ولكني احب ان احذرك ما دمت غريبا ، فعليك الا تحمل قدرا كبيرا من الدراهم ، ولا تسرف في الشرب ، وابدأ دائما بالمساومة » .

وبلغت المحل المنشود وقفزت من العربة وقلبى يخفق وجلا وشهوة ، واقتحمت الدرب الذى لا منفذ فيه بعينين مفتوحتين ونشاط وسرور ، وسقط نظرى على عدد كبير من النسوة المبتذلات فكدت ألتهم سيقانهن العارية وصدورهن البارزة بنظراتى الملتهبة • وكنت احملق في تلك المناظر المثيرة بلهفة وجشع • ولمحت على بعد غادة متألقة العينين بضــة الجسم ، وضاءة الجبين ، عبلة الساقين ، مكتنزة الصدر قد خضبت وجنتيها ولونت شفتيها • ورأيتها تغمز بعينها المكحلة فتخاذلت ساقاى ، وتقدمت منها وكانى مجذوب بسلك ، ونهضت لاستقبالى وتقدمت امامي تدخل المنزل فسرت وراءها وجلا، وتبعتها الى غرفتها الانيقة ، وكانت رائحة الطيوب ، ورائحتهــا هي تمــلأ خيشومي فتسكرني ، ورأت تلك الغادة الخبيرة لهفتى وارتباكي فأدركت على الفور ، وهي الخبيرة بانواع الرجال ، بأنى مبتدىء صائم على وشك الافطار فقالت : « هل لك في كأس يا حبيبي ؟ » فأجبتها متلعثما : « لا احب الي من ان اقضى الليلة بقربك ، وانى احب ان اتذوق الخمرة من شفتيك ، ولكــن ليس لدى اكثر من ٢٠ ليرة سورية ، فهل يفى ذلك بمصاريف هذه السهرة ؟ » •

فتبسمت وقالت : « لا عليك يا حبيبي ، ودع تدبير ذلك لى » • ولمحت رنة سرور في كلامها فعلمت بأنى قد تسرعت بذكر المبلغ ولكن سبق السيف العذل ، وكان بين يدى في الحقيقة ما يشغلنى عن الندم •

وكانت الخمرة مرة المذاق بفمي ، وكانت بعض كؤوس كافية لازالة حيائي واطلاق نفسى من عقالها الديني وارسالها على سجيتها ووراء غرائزها • وانقلبت بمدة وجيزة بطل غرام لا يشق له غبار ، ثم غرقت في لذاذات كانت تهز اعصابى هزا ، وكأن يدا جبارة تهزنى لتنفض ما علق بى من غبار التشاؤم والحقد والانانية • وانقلبت هي طفلة صغيرة • ووجد رأسي بسهولة طريقه الى ثدييها ، ولا ادرى بأية اعجوبة تذكرت زوجــة ابى الصغرى ، فرفعت وجهى الى عينيها ورأيت ظل حنان ينبعث من عينى رفيقتى الصافيتين ، لم يلبث

ان غمرني واكتسح كل ما عداه • لقد اكتسح شعوري بشذوذ موقفي ذاك وحقارته ، وأضفى على عاطفتي شيئاً من القدسية والطهارة • وادركت ان ثمة تفاهما ضمنيا قد ربطنا معا برباط قوى • لقد التقى حرماني وحرمانها ، وعذابي وعذابها ، وكانت نظراتنا بمثابة شكوى متبادلة تشرح بلوانا • واستحلنا رفيقين ، وكأن عدداً عظيماً من السنين قد مضت على تعارفنا • ولم تلبث عواطف الحنان تلك ان انقلبت الى اخرى قوية مريعة حادة • وذلك عندما زلقت شفتاها فوق وجنتي واستقرتا فوق شفتي الملتهبتين • وشعرت بأني على وشك ان يغمى عليّ ، ثم غرقت في بحران لذيذ لم استيقظ منه حتى الصباح •

ونهضت مبكرا ، وارتديت ثيابي ، وما كدت اعقد رباط عنقي حتى لمحت ربة البيت تدخل لتطالبني بالحساب • ومددت يدي الى محفظة نقودي فافرغتها بيدها ، ولمحت ظل ابتسامة لم تلبث ان زالت وحل محلها عبوس وتجهم ، ثم نظرت في وجهي وقالت : « بعد عشر ليرات » وادركت على الفور اني قد سقطت في مصيدة ، واعتراني شيء من الاضطراب ، ونظرت الى رفيقتي السيدة ، وكانت قد نهضت متثاقلة من سريرها بثياب النوم الخفيفة، وما رأت حيرتي ووجومي حتى غمزت لسيدتها وقالت : « لا بأس فقد اتفقت معه على هذا المبلغ فقط اكراما لخاطره » •

وعندما هممت بترك الدار تطلعت نحوها فرأيت ظل ابتسامة اخرى كتلك التي رأيتها البارحة ورأيت عين النظرات تنبعث من عينيها ، ورأيتها تتقدم مني تسحبني نحو السرير ثم القتني والقت نفسها فوقي واخذت رأسي الى صدرها وقالت هامسة « انك لم تر امرأة غيري قبل الآن ، أليس كذلك ؟ » •

فأومأت اليها بالجواب مؤكدا ورأيتها تخاطبني بلهجة تجمع بين التوسل والاغراء ، وتطلب مني ان اعدها بالزيارة كلما مررت بهذه الديار ، وتركتها وانا في حيرة عجيبة ، اذ ما اعجب ما خامرني من الاعتقاد بوجود تشابه غريب بين عاطفتها وعاطفة سكينة زوجة ابي الصغرى ! ووجدت نفسي ، وانا في طريقي الى الفندق ، بأن جسمي واعصابي في حالة تخدر مريح ، ولكن روحي كانت يقظة نشطة مرحة متفائلة . كنت آنئذ في حالة جميلة لم اجد نفسي فيما يشابهها منذ ان اصبحت شاباً ، ومنذ ان ابتليت بالمنافسة والخصومات . هأنذا بدون عدو يسمم على حياتي ، ويحيل العيش في نظري هما ونكدا . لقد أعداني عطف عاهرة شعرت بشيء من الشفقة عليّ والرأفة بي ، فأيقظت في نفسي كثيراً من العواطف الانسانية النائمة . لقد كانت ساعة سرور بريئة لا يكدرها رقيب او واش او فضولي ، كافية لان تغسل من نفسي كل متاعب الحياة الواقعية ، على الرغم من كون هذه الساعة قد قضيت بصحبة عاهرة محترفة . ومهما كانت فهي امرأة باعتني وقتها ، ورفضت ان تحتال عليّ في النهاية ، وحنت على سذاجتي وقابلت عطفي بعطف مثله . ولو كانت مثلي تعتنق مبادىء الذئاب لعرفت كيف تسيء الي وتغتصب دراهمي بحيلة رأيت طلائعها . ترى هل بلغت من السوء ان تفضلني عاهرة ؟ هنا شعرت بأني سأنتقص نفسي بنفسي ، فذهب فكري الى اسناد كل ذلك العطف الى ما لدي من قوة وجمال ، سحرا تلك العاهرة واسرا قلبها ، فالفضل اذن يعود الى ما فيّ من مزايا وصفات ، وقد سمعت كثيراً ان العاهرات يعشقن ، ومتى عشقن فانهن يعشقن بجنون ، وقد جال في خاطري ان استغل هذا العطف فأتمتع بجسمها في المستقبل بدون ثمن . ثم طردت كل تلك الافكار الضعيفة ؟ اذ يستحيل ان اقع تحت سلطان مثل هذه الافكار التي تعطي زمامي لامرأة ، وربما اشغلت فكري ، وقضت على مستقبلي . ولاجل ان اقطع على نفسي خط الرجعة شددت الرحال وازمعت السفر الى بيروت على الفور .

الفصل الخامس

بعيدا نحو مغرب الشمس

« ترى ما شكل هؤلاء الذين يتحكمون في رقاب الالوف
من البشر ، وكيف تراهم في بلادهم يعيشون ؟ »

غذذت السير بعد ذلك الى لندن ، دون ان اتوقف في الطريق او اتلكأ ، وكانت المناظر تتبدل امامي بسرعة من الادنى الى الاعلى • ابنية مشمخرة تناطح السحاب ، وطرق مرصوفة نظيفة واسعة ، وقطر مرتبة انيقة مريحة • من بيروت الى الاسكندرية الى نيس الى باريس الى الهافر الى لندن ، وكنت كلما وصلت الى بلدة جديدة وجدتها اكثر عمراناً من سابقاتها ، فكنت أعتقد انها الغاية التي ما بعدها غاية ، ولكن ظنى لا يلبث ان يخيب بمجرد وصولى الى الثانية ، حتى لكأني كل يوم في انتظار مفاجأة مفرحة • كانت روحى في نشوة هذه السلسلة من المفاجآت ، مرحة نقية ، كنفس طفل رضى الخلق رصين الطبع لطيف المعشر ، وقد خامرنى الشك بحقيقة نفسى اترانى قد اصبحت انساناً آخر ؟ لقد تذكرت كلام سامى ، ووصفه للحقد بانه شيء يسمم العواطف ، ويقتل المشاعر • حقاً ، كم اشعر وانا في هذه السفرة بالراحة من تلك الافكار المحزنة • ايه ايتها الحرية ، كم انت عظيمة ! ولست اعنى بالحرية هنا حرية التصرف فحسب ، بل اعنى الانعتاق من الحسد واللؤم ، ولكن ترى لو كان معى بعض افراد من رفاقي الطلبة هل كنت اشعر بما اشعر به ؟ أليس اذن من حقى ان احتقر كل هؤلاء الذين يسمونهم مواطنين ؟

وها هي لندن اخيراً هذه العاصمة العظيمة لامبراطوريه لا تغــرب الشمس عنها •

لقد ولدت لندن في نفسي عندما حللت بها لاول وهلة شعور الذهول والدهشة مقروناً بالحيرة والاعجاب • لم يكن فيها اكثر مما في العواصـــم الاوربية والبلاد الاخرى التي مررت بها ، ولكنها كانت مقترنة في عقــلي بفكرتين ، اولاهما ان هذه العاصمة تسيطر على بلادي وتحرك الالوف من مواطني حسب مشيئة عظمائها ، والاخرى انها ستكون موطني طيلة اعوام لا تقل عن الست ، سأقضيها في جامعتها العظيمة الشهيرة ، وبها وحدهــا سأكون ذا اسم عظيم اعود به الى بلادي مزهواً فخوراً ترى هل سأتعذب واشقى في هذه المدينة كما تعذبت وشقيت في بلدتي ؟ وهل سأقاسي مرارة الحرص ؟ وهل سيقتلني حب التقدم فابيت اغلب ليالي مضطربا كالملسوع ؟ اظن لا ؛ فهنا اناس لو تفوقوا عليّ فلست بالخائف منهم ، لانهم ليسوا من مواطني ، وسوف لا يذهب احدهم الى العراق ليقول لاهلي وصحبي ان فتاكم هذا بليد الذهن ، فليس هو كما عهدتموه • اذن فالأله وامرى • ولكــن يجب ان أحصل على درجات النجاح حتماً والا فالويل لي من الفشل •

وصلت الجامعة في ساعة مبكرة ، وعندما وقفت السيارة امام بوابــة المدرسة الغريبة الشكل نزلت ، واجتزتها وتطلعت باحثاً عن خادم يعينني على نقل حقيبتي ، ويرشدني الى محلي •

وكان اول من صادفني رجل كهل ، يرتدي عباءة سوداء فوق ملابسه وقلنسوة غريبة الشكل فوق رأسه ، وقلت في نفسي انه احد خدم المدرسة دون شك، والا فلماذا ارتدى هذا الذي الغريب • واعلمته بأني تلميذ اجنبي غريب في حاجة الى من يرشدني الى غرفتي ، وينقل لي حقيبتي ؛ ورجوت منه ان يفعل • ورأيت على وجه الرجل ابتسامة رزينة وتناول الحقيبة مبتسماً، وسار امامي الى القسم المعد لسكنى التلاميذ ، واوصلني الى غرفة فيــه •

ومضى والابتسامة لا تفارق شفتيه • وبعد ان فارقني ببرهة وجيزة رأيت رجلا لا يرتدى مثل تلك العباءة والقلنسوة يطرق الباب مستأذناً ثم يدخل الغرفة ليعلن بانه الخادم الموكل بالجناح الذى يضم غرفتى ، ويطلب منى ان اصحبه الى غرفة العميد لتقديم اوراقي •

وسرت وراءه ، ودخلت الغرفة التي اشار اليّ بدخولها ، وما كدت اسمع كلمة الاذن بالدخول حتى دخلت ، واردت ان احيي العميـد الا ان العبارة وقفت في فمي وجمدت دهشة • يا الهي ! ان هذا الذى ظننته حمالاً هو عميد المدرسة • اذن فهذا اللباس هو لباس الجامعـة الرسـمى • تالله ما اجهلني ، واعظم حماقتي • وشعرت بالخجل وتلعثمت واردت ان اعتذر عن تلك الحماقة الشنيعة ، ولكن لاحظت ان الرجل يبتسم بلطف ورأيت وجهه يطفح بشراً ، فشعرت بالراحة وتمتمت عبارة الاعتذار بطلاقة ، ورأيتـه يضحك ويقول :

« لا عليك يا فتى • لا ريب ان ازياءنا هذه تشبه ازيـاء الحمالين • ومهما كانت منزلتنا فعلينا ان نقدم كل مساعدة في امكاننا لغيرنا • تذكر ذلك ، وعندما ترتدي مثل هذا اللباس ، فعليك الا تبخل بمثل هذه المساعدة على من يطلبها منك • عدنى بذلك » •

وقدمت اوراقى ، واصبحت تلميذاً في جامعة من ارقى جامعات العالم، وكانت تلك الغلطة التي ارتكبتها سبب انكبابى على دراسة طبائع القـوم وعاداتهم واخلاقهم ، خوفاً من ان اكون هزأة في اعينهم ، وما اسرع ما كنت اتفهم طباعهم ، واتقن تقاليدهم واعتباراتهم ، ولاجل هذه الغاية اقصر صحبتى على الانكليز الاقحاح ، غير ملتفت الى الاجانب ، والى ذلك العدد القليل من العرب ، واغلبهم من مصر وسوريا ، على حين ان هـؤلاء كانوا متضامنين متكاتفين قد جمعتهم رابطة اللسان والعنصر والقربى ، يكاد لا يفارق احدهم الآخر ، وقد رأوا نفورى منهـم فحقـدوا عليّ ، وصاروا يسـمونني « بالمتأنكلـز » •

ولم تذهب مساعى ادراج الرياح ، فأن هي الا بضعة اشـهر قضيتهـا في بلاد السكسون حتى غدوت وكأني واحد منهم ، لا يميزني عنهم غـير سحنتي وفيما عدا ذلك كنت (جنتلمان) بكـل معنـى الكلمــة ، اتعصب لتقاليدهم وعاداتهم وآدابهم اكثر مما يتعصبون هم لها . وكنت بعملى ذاك محط اعجاب التلاميذ الانكليز . وقد اعلن احدهم مرة أعجابه فقال : « ان ابراهيم يبدو وكأنه قد ولد وتربى في وسط انكليزى ، وكأنه لم يأت من بلاد العرب الهمجية . انه جنتلمان بكل معنى الكلمة » .

وشعرت بالغرور والفرح ، وقلت لنفسي ؟ أأبدو حقا كأني لست من العرب الهمج كما شهد هذا الانكليزى الصميم ؟ ما اسعدنى اذن .

ولم اتمالك ان اجبته « انى من عائلة راقية هناك ، ولست من عامة الناس وسوادهم ، وهذا سبب سرعة فهمى لتقاليدكم واعتدادى بها ، ان افراد اسرتى كلهم اناس مهذبون ، اما الهمجية فهي صفة سواد الناس فى بلاد العرب » .

ومن سوء حظى ان كان احد العرب على مسمع من ذلـك الحوار ، فأسرع بنقله الى بقية رفاقه العرب .

وطلب التلاميذ العرب الخلوة بى فلبيت طلبهم جاهلاً مـا يريدون ، ورأيت على وجوههم غبرة ترهقها قترة ، وايقنت فوراً ان جانباً من حقيقة عواطفى نحوهم قد انفضح وهاجمنى احدهم ، بدون مقدمــة ، بقارص الكلام ، وهو مكفهّر الوجه فقال : « وما قصدك من ذم بنى قومك امام كلاب الاستعمار وناهشى لحوم البشر ؟ ايبرر ذلك لك انك من سراة قومك كما تدعي ؟ تالله انك لتستحق الصفع ايها الجاحد ، الناكر للجميل » .

وتذكرت حالاً ما تجرعت من الغصص في بلادى فشعرت بنار الحقد تأكل قلبى وأجبت محتداً : « اذا كنت تعنى ما دار بينى وبين (جيمي) من

الحديث الذى جرى على مسمع منك ، فقل لى هل ذكرت سوى الحقيقة ايها الرجل ؟ لست مولعاً بالاكاذيب وقد تكون انت مولعاً بها • واى عيب في ذكر الحقيقة ؟ او تجسر انت أن تدعى ان العرب لهم طيب اخلاق الانكليز ورقتهم ؟ او تستطيع ان تتجاهل صفاقة العرب وحيلهم وغشهم واكاذيبهم واجرامهم ، حتى ولو كان هؤلاء العرب من ابناء مصر ايها السيد ؟ »

وقفز من بينهم فتى احمر الشعر ابيض البشرة كنت احسده على لون بشرته وشعره ، وكان يرتجف كالقط أمام ثعبان ، وقد انتفش شعره وازمهرت عيناه ، وانطلق يصيح في وجهي : « ماذا تقول يا لكع ؟ أتمتدح هؤلاء الذين يجهلون الاكاذيب الصغيرة ويتقنون الاكاذيب العظيمة ، الذين يستفظعون قتل كلب ويستحسنون قتل الالوف بالجملة ، الذين يعاقبون من يتدخل في حرية غيره في بلادهم بالسجن ويحكمون على من يطالب بحرية امته في مستعمراتهم بالاعدام ، اتعشق هؤلاء الذين يزرعون الشر حيث يحلون ، ويميتون الشرف حين ينزلون ؟ أيتها الامة التى تعشق ذابحى اهلها من اى طينة نجسة قد خلقت ؟ »

وانتفض بعده آخر ليجرب مقدرته في الخطابة على حسابى ، وانطلق يصيح كالمجنون : « وما ادراكم ايها الاخوان بقيمة هذا الاسود المتأنكلز في بلاده ، ولماذا لا تعتقدون ان سياسة الاستعمار قد اختارت هذه الحشرة السامة لتتعهدها بالعناية حتى تغدو قادرة على لسع اكبر عدد من مواطنيها ؟ ان هؤلاء الفلاسفة في الاستعمار لا تخفى عليهم خافية ، ولا يصنعون غير ما يعود عليهم وعلى جشعهم بالخير العميم » •

وتمنيت لو كنت استطيع فعلا ان السع كل هذه المخلوقات القذرة فاشلها وامنعها عن الحرية والكلام ، وادركت ان اطالة امد الحوار ستكون ذات عواقب وخيمة ، فقلت وأنا اتأهب لتركهم : (ارى ان طول مكوثكم في هذه البلاد لم يفدكم ، ولم تتعلموا شيئا من حسن السلوك ورقة الحديث

ودماثة الاخلاق ، فما زلتم كما كنتم عرباً سليطى اللسان كثيرى التدخل فيما لا يعنيكم • انى امنعكم من التدخل في شؤونى والويل لمن يحاول ذلك • لست من قطركم ولا تجمعنى اية رابطة بكم فبعداً عني ، ولعنة الله عليكم » •

ثم مضيت في طريقى تتبعنى كلمات التهديد والوعيد وقذفت لعنات مرعبة ورائي وقلت لنفسى وانا هارب • « ترى الا يتيح لى الحظ ان اتخلص من المنغصات ؟ الا ليتنى لم اولد في هذه البلاد الهمجية المتأخرة ؟ لماذا لم اولد في مثل هذه البلاد فاكون سيداً لهؤلاء الوحوش اسومهم الذل والخسف والهوان ؟ تالله لو سدتهم يوماً فسأعلمهم كيف ارمى بهم في الحضيض ، ثم ازهق انفاسهم ، وأضع قدمى على اكبر رأس فيهم فاسحقه كما تسحق الحشرة• لعنة الله على ابى ! انه سبب ولادتى في بلاد العرب ، وتسميتي عربيا وسحقا لامى ولعشيرتى ، ولعنة الله عليهم اجمعين • كم اود لو يكون في مقدورى ان انزع حتى هذا الجلد لاستبدله بجلد ابيض كجلد هؤلاء الانكليز فاكون واحداً منهم ! وكم اود لو يتبنانى احدهم ؛ ولكن هذا مستحيل • اذن فلا اقل من ان اتملقهم واسترضيهم واصاهرهم ان امكن • اجل اصاهرهم ، ولماذا لا يكون ذلك ممكناً • انها امنية وما اعظمها من امنية ! » •

الفصل السادس

قباب في لندن

« في الغرب ايضا قباب للعبادة ، ولكنها قباب لا
يرقد تحت سقوفها اولياء ، بل يقوم امام مذابحها احياء
مسلحون بكل ما يرضى كبرياء انسان العصر الحديث من
فلسفة وثقافة ودعوى فارغة في الرقي والتحرر »

وللعرب كما لغيرهم من الشعوب الاخرى منتديات ومحال مخصوصة يجتمعون فيها ، ويخلقون وسطاً يذكرهم باوطانهم واهليهم واصحابهم حيث ينطلقون من اسار التقاليد الانكليزية الثقيلة على نفوسهم ، فيتكلمون كما يريدون ، ويلعبون ويمزحون ويطربون على طريقتهم الوطنية ، وهم آمنون شر تلك النظرات المتكبرة ، نظرات الانكليز الشزراء كلما رأوا شيئاً غريباً عنهم ، فكل عادات الانكليز وتقاليدهم ، مهما بلغت من الغرابة والسخف في أعين غيرهم ، محترمة في نظرهم، تدل على الترقي والمدنية والفكر المثقف السامي، وكل ما عداها ، مهما كان فيه من الحكمة والصواب مطبوع ابداً في نظرهم بطابع الجهل والهمجية والسخف، وليس في استطاعتك ان ترضي الانكليزي حتى تقنعه انك قد اتقنت آدابه وتقاليده ورطنت بلغته وصعرت خدك للناس ومشيت في الارض مرحا .

وانا من المؤمنين بحقهم في كل ما يذهبون اليه . الم يسيطروا على جزء عظيم من العالم ؟ ألم يخضعوا شعوباً قوية الشكيمة شديدة المراس ؟ ألم يذلونا نحن العرب الذين نكرههم ونحتقرهم ؟ ان مجرد هذا يدل على اننا

في اوطأ درجات الهمجية ، ويدل على انهم في اعلى سلالم الرقى • ولما كـان مطمحى الارتفاع والرقى ، فقد شعرت بأن على ان اقتبس كـل جـزء من سلوكهم واخلاقهم ، واقدس عاداتهم وتقاليدهم مهما كانت بعيدة عنى غريبة في نظـرى •

وقد شعرت ، زيادة على ذلك ، بأن دينهم لابد ان يكون ارقى من دينى وأسمى معنى واعتبارا • لقد كنت في صغرى احتقر الاديان الاخرى واحمل عليها حملات منكرة ، ولكن سرعان ما تبينت ان الدين يرتقى او ينحط حسب المتمسكين به • ولقد وجدت دين اهل الموصل غير دين أهل القرية ، ودين اهل الشام ومصر غير دين اهل العراق رغم كونهم يؤمنون بدين واحـد • وكذا دين الانكليز أرقى من دين العرب ، حتى ولو كان هؤلاء العرب من اتباع يسوع وممن يقدس الصليب • وبعد اقامتى بلندن مدة سـنة واحدة اظهرت ميلاً للذهاب الى الكنيسة ، وصارحت « تومى » برغبتى ، وكـان انكليزيا متديناً متعصباً ، ولا غرابة فهو ابن قسيس ، فتألقت عيناه سروراً ، وقال : « يظهر انك غير متعصب • انك ارقى من مستوى بقية رفاقك •»

فاغتبطت واجبته مجاملاً : انى لا احتقر دين احد من البشر ، وفوق ذلك فانى انسان اميل الى العبادات فقد ترعرعت على ذلك منذ الصغر وأنـا مشتاق الى دخول بيت من بيوت الله ، ولا يهمنى مطلقاً العبادة التى تجرى فيه ، فهى عبادة مهما كان نوعها ، لها عين التأثير الروحى » •

وصادف ان كان ذلك اليوم يوم احد ، وطلب اليّ تومي ان ارافقه الى الكنيسة لسماع وعظ ابيه •

وعندما دخلت الكنيسة ، وكانت هى المرة الاولى التى دخلت فيها كنيسة في حياتى ، نال اعجابى منظرها الانيق ، وترتيبها البديع ، ومصاطبها النظيفة وفاجأني ذلك الترتيل العذب على صوت الارغن الرخيم ، فوقفت بجانب تومي خاشعاً مبهوتاً ، ومرت بذهنى صورة جامع الولى وقبته المظلمة القذرة ، وتذكرت كيف بال ابى مرة قرب ضريحه ، فشعرت بالاشمئزاز والتقزز من تلك العبادة الابتدائية ، وتمنيت من كل قلبى لو كان في الامكان ان اكون مسيحياً انكليزياً • وانتهى الترتيل والقداس ، واصغيت لوعظ مستر (ونسفليد) وكان يكرز بصوت هادىء رخيم ، ويلقى حكمه ومواعظه الاخلاقية الخالية من القصص الخرافية والاكاذيب والموهات واستوعب ذهنى تلك الخطبة ، وقد كان ذهنى النافر من الاديان ، الخالى من الاعتقادات مفتوحاً لشيء معقول يسير مع منطقى وتفكيرى ، لكى يحل محله ، فكان ان صادفت تلك المناظر والتراتيل والمواعظ قلبا خاليا فتمكنت منه • وعند انتهاء الصلاة حين اوشكنا ان نترك الكنيسة قلت لتومى بلهجة حماس : « تالله لو كنت اعلم حقيقة ما يجرى هنا في كنائسكم لما اضعت هذه السنة سدى • وانى لاشكرك جزيل الشكر على ما اسديت لى • انى لاحب اباك واحترمه ، اى خطيب مفوه هو ! » •

فتأبط تومى ذراعى وقال : « اذن فما دام الامر كذلك فهيا لاعرفك به • هيا ولا تكن خجولاً » •

واتبع كلامه بأن سحبني سحبا الى جهة من الكنيسة حيث كان ابوه واقفا يتحدث مع امرأة وفتاة • وحيا الفتى اباه مبتهجاً وقال : « اقدم لك يا ابى صديقى ابراهيم ، بمناسبة اعجابه العظيم بموعظتك هذا اليوم • انه يعد

الوقت الذي قضاه هنا دون ان يأتي كل يوم أحد للكنيسة قد ضاع هباءً من عمـره » •

وابتسم الاب وتألقت عيناه ، وشد على يدى وهو يقول : « انك عربى كما يلوح لى ، وقد تكون مسلماً ايضا • لقد قرأت القرآن يا بنى واعجبت به حقاً ، ولسنا معشر القسس الانكليز متعصبين كالقسس عندكم ، وهكذا رأيت عظتى معتدلة معقولة فنالت رضاك • ان الاديان يا بنى تلتقى كلها عند الدرجات العليا ، فكلما صعد الانسان فيها اقترب من نظرائه الصاعدين ، حتى يلتقوا في نقطة واحدة • ارى انك قد صعدت في الاسلام كما صعدت انا في المسيحية فالتقينا » •

وغمغمت اعجاباً وانا اشد على يده ، وقدمنى للسيدة وكانت ابنتـه ، وعندما لمست الاخيرة مصافحاً رأيتها تشد على يدى وتطيل النظر في وجهى باعجاب ودهشة وفضول ، وشعرت بالاحمرار يصعد الى وجهى ، ولكنى لم اتلعثم بل ملكت زمام اعصابى وتمتمت بما يناسب المقام ؛ وكنت موفقـا في حديث التعارف القصير ، فلم تلبث الفتاة ان خاطبت اخاها بقولها : « لست اغتفر لك ان يكون لديك صديق عربى جنتلمان فلا تعرفنى به الا بعد هذا الوقت الطويل • » فأجاب ضاحكا : « لم أر منـه ما ما يشجعني ، فقد كنت الاحظ نفوره من الاختلاط بالفتيات ، وكنت ارى وجهه يحمر حتى الاذن عندما يتكلم مع احدى التلميذات ، فلم ارد ان ازعجه ، ولكن لم اعلم انـه فارس موفق الى هذا الحد في ميدان اجتذاب القلوب فحذار يا (جنى) انـه فارس عربى من اسرة عريقة • »

فأجابت جنى : « تالله ما اخبثك • » واجبت على الفور : « ان الآنسة لتجتذب القلوب النافرة ، وتطلق الألسن المتلعثمة • انهـا لا تتكلف ولا تتعجرف وان رقتها لتفيض فتعدى • »

وصاحت الفتاة بأمها : « ماما او تسمعين بأي رقة يتكلم هذا الفارس العربى الغزل ؟ » ونظرت الام الى الاب وقالت : « ما اسرع ما تآلفا ؟ تالله من كان يظن ان عند العرب مثل هذه اللباقة ؟ كم من الزمن قضيت في لنـدن يا بنـى ؟ » •

فأجبتها متباهياً : « سنة واحدة يا سيدتى » فصاح الاب : « آه • ان من يراك يظنك قد ولدت وترعرت في هذه البلاد ، ولولا لونك الاسمر لما استطعت ان اعلم انك عربى » •

وقالت الفتاة : « كم اتمنى لو يكون لى لونه • اذن لاصبحت فتنة في هذه البلاد » •

ولم يخف على تعريضها فأحمر وجهى وأجبت : « لو امكن ان ينتزع اللون لقدمته لك عن طيب خاطر » •

وغمزنى تومى ، وقال هامسا : « اراك موفقاً ايها الفتى » •

واصر الاب على ان اتناول طعام الغداء عندهم ، وقبلت شاكراً ، وانـا اطير من الفرح ، وقضينا الوقت ، حتى حلول موعد الغداء ، نحن الثلاثة أنا وتومى وجنى ، في شتى الاحاديث والحت الفتاة عليّ بالاسئلة والاستفسار عن بلدى وأهلى ، وعن العرب والشرق ، وعن طراز معيشتنا ، وقد وجـدت لشدة دهشتى اننى كنت اتكلم ببلاغة ، واصف لها تلك المناظر بلهجة تثير الفضول وحب الاستطلاع ، وحدثتها عن ابى ونفوذه ، وعن املاكنا ، وعن قريتنا ، ولم احدثها عن اخوتى وزوجات ابى • وحدثتها عن جمال الشرق ، وعن سمائه الصافية وشمسه المشرقة ونجومه المتألقة ، وعن البذخ والثـراء والعجائب ، وما زلت بها حتى جعلتها تتنهد آخر الامر وتقول : « ما اسعدنى لو زرت هذه البلاد » •

فاجبتها ضاحكا . « لو رغبت في ذلك حقا لكنت سعيدا فقد استطيع هناك ان ارد لكم كرمكم وعطفكم ، وكرم العربي ووفاؤه يضـرب بهمـا المثـل » •

وتألقت عينا الفتاة ولم تجب •

وعند الغداء كانت لا تحول نظراتها عن وجهي ، وكنت منتبهاً الى تقاليد الاكل فما تركت ابسطها لكيلا ارتكب ما يقلل من قيمتي في نظرها • وخضت مـع الاب ، حديث فلسفي عن موعظته ، وعن الدين حتى حـزت اعجابه ، وجعلت تومي يهتف قائلاً : « اما تراه يا ابي يصلح ان ينـوب عنـك في الوعظ » •

ولم ينته الغداء حتى ربطتني بتلك العائلة اواصر صداقة وطيدة لايسهل فصمها ، وتركتهم ، وانا اشد ما اكون تعلقاً بهم وبفتاتهم تلك بصورة خاصة •

الفصل السابع

« من لي بهذا الذي قال الشرق شرق والغرب غرب
وهيهات ان يلتقيا ، لأسأله ايعني بكلامه ان الفرق بين
اهل الشرق واهل الغرب كالفرق بين الذئاب والغنم ؟ »

كانت «جني» لطيفة المعشر رقيقة الحاشية ، او على الاقل بدت كذلك في نظري طيلة مدة تعرفي بها ، وقد وجدت انها قد شغلت فراغاً كبيراً في حياتي، انا الذي كنت محروماً من كل شيء له علاقة بفتاة او امرأة حتى خروجي من العراق • كانت علاقتي بها تزداد يوماً بعد يوم ، وتزداد رابطة قلبينا قوة حتى اشغلت فكري طيلة نهاري وبعض الليل ايضا ، ولو كانت «جني» بين عشيرتي في العراق لعدتها أمي ساحرة ماكرة تسيطر على قلبي بالاحاجي والادعية والسحر ، ولكنني كنت اعلم سبب هذه العلاقة ، وافهم كيف قويت وتوطدت•

لقد كانت «جني» ابنة قسيس قضى مدة في الشرق بمهمة دينية سياسية معاً • وقد كان أحد اولئك الوطنيين الانكليز الذين يعتقدون بحق الانكليز في التفوق والتغلب على بقية امم العالم ، وكان رجلاً يفهم كيف ينتهز الفرص ، ويؤدي لوطنه خدمات عظيمة على حساب البلاد المستعمرة ، وقد سمعت بأنه ذو نفوذ في الدوائر السياسية الاستعمارية والجاسوسية الخارجية ايضاً ، وكان رجلاً عملياً شديد الملاحظة سريع الفهم لعقول الناس وطباعهم ، سريع الابتكار في استخدام معلوماته واخراجها الى حيز العمل ، واعتقد ان امثال هذا الرجل عند الانكليز ، هو الذي جعل هذا الشعب القليل العدد يحوز هذا المركز المهم في العالم • ومع بعد الشقة بين العراق وانكلترا وبين العرب

والانكليز ، والشرق والغرب ، فقد شعرت بأن هنالك تشابهاً غريباً بين عقلية ابي وعقلية هذا الرجل الانكليزي ، ولو اني لم استطع ان اتبين جيدا نوع هذا التشابه ، ولكنى كنت اشعر بأنه لا فرق مطلقاً بين مركز ابى في القريـة ومركز هذا الرجل في ابرشيته ، على الرغم من عظم الفارق والبعد الشاسع بين الوسطين ٠

كان المستر ونسفيلد يتمتع بثقة عدد كبير من اعاظم سياسى الانكليز ذوى المركز والنفوذ في المستعمرات كما قلت ، وقد التقيت مرة في بيته باحد المندوبين السياسيين الانكليز في حكومة العراق ، وتجاذبنا اطراف الحديث ، ومنه علمت ان هذا الرجل الذى كان كاهناً في الهند ايضا ، لعب دوراً مهمـاً يدل على البطولة الخارقة في خدمة الامبراطورية ، فهو اذن وطنـى غيـور مخلص ٠ وقد علقت هذه الفكرة عنه في ذهنى ، وتأكدت بأن مثل هذا الرجل يستطيع ان يصنع المستحيلات في قطر كالقطر العراقى ٠ ولكن كـل هـذه المعلومات عن المستر ونسفيلد لم تكن ذات اهمية في علاقتى مع الرجل اذا وضعت بجانب اعجابى بنظراته العملية الصائبة في الحياة ، تلـك النظرات البعيدة تمام البعد عن حياة الروح والعاطفة ، تلك الحياة التي يخضع القسس والرهبان ومن على شاكلهم لقوانينها وانظمتها ٠

وكما قلت سابقاً ، لقد وجدت في جنى عقلية عملية تشابه عقلية ابيهـا كثيراً وتشابه عقليتى ايضا ، وهذا ما قوى اواصر الصداقة بينى وبينها كثيراً ٠ وهنا على القارىء ان يعلم بأن علاقتى بجنى قد قويت حتى استحالت الى غرام، ولكن هذا الغرام ليس غراماً عاطفياً بحتاً مبنيا على العاطفة فقط ٠ اذ انى اعتقد بأن للتفكير والعقل والتشابه والتجانس دخلا عظيما في الامر ٠ وفي الحقيقة لم اعجب بجمال جنى مطلقاً بقدر اعجابى بعقليتها العملية ، وهنـا لا اتردد ، من الاعتراف بأن العاهرة التى رأيتها في الشام ولـدت في نفسى عاطفة غرامية نزيهة بحتة لا تستطيع هذه ان تولد شيئاً يشبهها ولكنـى لا

استطيع ان اقيس هذه بتلك ، ولا يمكن ان افضل صلتي بهذه الامرأة الفاضلة على صلتي بعاهرة ، وليس في استطاعتي ان اعد تلك العاطفة الحمقاء التي بدت لي رائقة جميلة هادئة عندما كنت في احضان العاهرة اعظم من عاطفة الاحترام التي اشعر بها نحو هذه الفتاة الانكليزية المهذبة العاقلة •

ومع انى بنيت علاقتى بها على اساس اعترافي بعظم مركز ابيها ومقدار نفوذه وما يتعلق بذلك من اثر قد يكون مهماً جداً في مستقبل حياتى ، وعلى اساس احترامي لجنسيتها وعقلها ، واعتبارى الحصول على يدها نصراً عظيماً لا يحلم به عراقي او عربى ، فقد كان للعواطف الغرامية دخل عظيم في الامر ايضا ، ولو ان ذلك جاء في المرتبة الثانية ، او جاء مصاحباً للعوامل الاولى يمشى معها خطوة فخطوة • والحقيقة انى اعجبت بجنى كأمرأة اولاً ثم كفتاة عاقلة ثم علقت بها ، واصبحت تشغل أفكاري صباح مساء ، واخيراً استحال على أن أميز بين حقيقة عواطفي نحوها ، ولكني وجدت بأنها شيء عظيم في حياتى ومستقبلى ، وانه لا غنى لي عنها مطلقاً ، بل لا حياة لي بدونها •

وقبل ان اتم دراستى في انكلترا بسنة واحدة اختليت بجنى في منتزه رائق الهواء عذب الماء ، وكنا نلعب ونمرح كطفلين قد انطلقا من اسار البيت والمدرسة • وفجأة وجدت ان الفرصة مناسبة لمكاشفتها بحقيقة عواطفى نحوها ، ولم اتردد في انتهازها شأني في ذلك شأن بقية أمور الحياة العملية • وباغتها فقبضت على يديها الصغيرتين ونظرت في عينيها الزرقاوين المتألقتين وقلت لها بعزم وثبات : « جنى ، انك لا تدرين بأنى احبك حباً جنونياً منذ سنة • اينها العزيزة جنى ، انه لا حياة لي بدونك » •

وشعرت بأنى قد فاجأتها ؛ ولكنى لم ألبث ان رأيت عينيها تبرقان سرورا ثم شعرت بيديها تشدان على يدى ، وسمعتها تقول لاهثة : « انى اعلم ذلك ، ولكنى كنت اكره هذا الخجل والتردد منك انى احب في الانسان ان يكون مقداماً يسعى الى هدفه رأساً بدون تردد او خجل • ان الخجل شيء

قبيح في نظري اكره أن يتصف به حتى النساء . وها قد برهنت لي على انك عند حسن ظنى بك ايها الفارس العربى الاسمر الجميل » .

وتدانا وجهانا ووضعت شفتى على شفتيها وتذوقنا قبلة معسولة كـان لها صدى جميل غريب في نفسى ، ومن حقى ان اعدها فاتحة حياة جديدة . وشعرت بأن كل شيء في يستحيل الى جمال وفرح ونشـوة ، ولم اتردد في ضمها الى صدرى ، وتقبيل كل جزء من وجهها ، وكدت ارقص فرحاً ، ولم اتردد في ان اقول وانا ذاهل .

« حقاً جنى ؟ اتحبينى انت ايضا ايتها الانكليزية الجميلة ؟ اية سعادة هذه تالله انى لاشك بانى في عالم الحقيقة ؟ اى حلم جميل هذا ايتها العزيزة ؟ ايتها الحبيبة اكدى لي بأنى لست حالما » .

وشعرت بيدها تمتدان فتطوقان عنقى ، وسـمعتها تهمس في أذنى : « طالما تمنيت ان اتزوج رجلاً جميلاً غريباً عن جنسى مثلك ، انى اتوق الى الشرق وغرائبه وقد ظننت بأنى سأتزوج هندياً ، ولكنى هأنذا اتزوج عراقياً من عائلة نبيلة لا يختلف عن الانكليز في شيء ، في رقة اخلاقه ودماثة طباعه . لقد احببتك من اول نظرة ، وصرت انتظر بفارغ الصبر الوقت الذى ستفاتحنى فيه بغرامك ، وها قد حانت الساعة اللذيذة فما اسعدنى . وجلسنا بعد هذه المناجاة القصيرة على الارض وطفقنا نختط الخطط للمستقبل ، ونهيء انفسنا للحياة العائلية الوطيدة وبعد ربع ساعة قررنا أن نذهب لنزف الى افراد العائلة هذه البشرى ، وكنت خائفا من ابيها ، ولم اتردد في اعلان خوفي لها فابتسمت وقالت : « ان ابى واسع الفكر غير متعصب » ورجعنا متخاصرين ، وكان اول من انتبه الينا امها فقد تطلعت نحونا باستغراب ونحـن نمشى متحاضنين ، ورأيتها تنبه الاب الينا ، ورأيت الجميع يلتفتون نحونا فارتجفت يدى خوفا من النتيجة ، وشعرت جنى بارتجافى فقالت مشجعة : « هيا يا بنى ولا تجبن .

ان ابى يكره الجبناء ، وعليك ان اردت ان تحظى باحترامه الا تظهر بمظهر المتردد الجبان » .

وتقدمت بخطى ثابتة وقلبى يضرب بقوة ، ووقفت عند المائدة التى حف بها افراد العائلة ، وقلت بلهجة الخطيب المنكت : « ايها السيدات والسادة ، يسرنى ان اعلمكم بان أمراً مهماً قد حدث . ان اثنين من الحاضرين قد تجاذب قلباهما الى حد ان وجدا ان الحياة ستكون سخيفة اذا افترقا ، لذا قررا ان يعيشا مجتمعين بعد ان تربطهما اقوى الروابط الانسانية ، غير ملتفتين الى تلك الاعتبارات والفوارق المضحكة من دينية وجنسية ، أما هذان الشخصان فهما ابراهيم بن السيد اسماعيل العراقى ، وجنى ابنــة الدكتور ونسفيلد الانكليزي ، وها نحن تتقبل بكل رحابة صدر رأى كل منكم بهذا الحدث العجيب » .

وقهقه الجميع وكانت الام اول من ابدى رأيه فقالت : « طالما قــلت بان هذه الفتاة سوف لا ترضى بامر عادى فيما يخص مستقبلها » .

وقال الاخ ضاحكا : « شكرا لله فقد حدثت النكبة في اواخر مراحــل حياتك المدرسية ، والا لكانت مصيبة ما بعدها مصيبة » .

وكان الاب اكثر رزانة من الجميع فقال : « هل فكرت ملياً في وقــع الامر على ابيك وأفراد عائلتك ؟ » .

فاجبته ضاحكا : « سيدى ارجو الا تعتبرني اقل قدراً من فتاة انكليزية قد بلغت سن الرشد القانونية وصار لها حق التصرف بنفسها » .

فتبسم المستر ونسفيلد وقال : « تالله لم يعجبنى شىء من كلامك اكثر مما نطقت به الآن ، واسمح لي يا بني ان اباركـ لكما ، وارجو لكما حيــاة هنيئــة » .

الفصل الثامن

عمامة ابي الخضراء وشهادتي العلمية

« ايكون هناك فرق بين العمامة الخضراء والشهادة العالية ، عندما يكون القصد من كل منهما شعوذة لجر مغنــم ؟ »

كانت سنة زواجي هي السنة التي نلت في نهايتها شهادة الدكتوراه • وقد احتفلت بعيد قراني اولا ثم احتفلت بنجاحي في الدراسة بعد ذلك بمدة قليلة • ولم اتأخر بعد ذلك اكثر من بضعة ايام دبرت خلالها انــا وزوجي امورنا ، ووضعنا خطة محكمة للعيش في الوسط الجديد •

وقد طلبت منها ان تتأخر عني بضعة شهور ، ريثما اجد لها داراً واعتني بتأثيثه وتنظيمه بالطراز الذي تحبه حتى لاتحس بعظم الفارق بــين محيط العراق وانكلترة ، وليس من المناسب ايضاً ان تنزل على السيد اسماعيل ، ذي العمامة الخضراء واللحية الكثة ، ذي النساء الاربع ، والسلطة الروحية غير المحدودة • وهل باستطاعتي ان افتخر بمثل هذا الاب الامي الجاهل ؟

وثمة سبب آخر يحول بيني وبين اصطحاب زوجتي • اني لا اعلم كيف يستقبل القوم هناك مثل هذا الزواج ؟ فيجب ان اتفهم حقيقة شعورهــم ، واستطلع آراءهم في ذلك ثم امهد السبيل تدريجياً الى قبول مثل هذه الحادثة الشاذة • ولو كنت اعلم في ذلك ضرراً لي لعملت المستحيل لفصم هذا الزواج، مهما كانت العواقب ، فلست ممن تحول بينهم وبين امانيهم زوجة ، حتى ولو

كانت هذه الزوجة من المريخ • وعندما صفرت القاطرة وسحبت وراءها ذلك الخط الطويل من العربات ، لم يكن ذهني يفكر بغير خطط المستقبل •

كانت امامى في عربة القطار مجلات عديدة يقتل المسافرون الوقت بتقليب صفحاتها ، اما انا فلا يعجبنى الا ان اتمعن بهذه الشهادة التى نلتها • لقد بقيت طوال اليوم بعد استلامها انعم النظر بنقوشها وخطوطها ومضمونها كالعابد امام صورة معبوده ، وقد اصطنعت لها علبة طويلة من الصفيح ، ولففتها ووضعتها بداخلها لئلا يصيبها ضرر عند طيها وتكسيرها • ولم اعلم كيف خطرت في بالى هذه العلبة الاسطوانية المستطيلة من الصفيح ؟

واشتقت الى اعادة النظر اليها مرة اخرى ، وكنت قد وضعتها في حقيبة صغيرة قريبة المتناول سهلة الفتح لا تفارقنى زيادة في الحرص • ولم اعلم في الحقيقة علام هذا الحرص وانا اعلم ان ضياعها ليس بذى قيمة ، اذ في الامكان عمل صورة اخرى لها ، ولعل هذا الحرص يرجع الى احترام تلك الاسماء لأساطين العلم المدونة فيها وتلك الطغراء العجيبة ، طغراء الجامعة ، وتلك النقوش والزخارف المذهبة ، وما يتعلق بها • وكنت وحيداً في عربة القطار فلم أجد حرجا في ان اتناول الحقيبة اليدوية فافتحها وأتناول اسطوانة الصفيح فأرفع غطاءها وأمد اصبعي لاخراج الشهادة •

يا للعجب !! لقد انتقل فكرى حالاً الى صورة تماثل هذه ، صورة أبى وقد وقف وبيده اسطوانتان تماثل هذه تمام المماثلة ، بداخل الاولى قطعة خضراء وفي الاخرى ورقة قد دوّن عليها حسبه ونسبه بشكل شجرة جميلة ذات نقوش وزخارف تثبت انه من عترة الرسول ؛ وأمامه بعض القرويين يقبلون فم الاسطوانتين بكل خشوع واحترام • اذن فهذه هي الحلقة التى تربط هذا العمل بذلك المشهد • هي ذى اسطوانة أيضا وهي تفوق اسطوانة أبى تأثيراً • ان ابى يحكم السذج والشعوب الابتدائية

باسطوانته . أما انا فسوف احكم المتعلمين والمهذبين والمثقفين باسطوانتي هذه ، اذن فهذا هو سبب حرصى عليها . انى اريد أن اعلنها لكل الناس في العراق حال وصولى ، واريد أن يسمع بها كل الناس ، ويعلموا بأنى قد نلت شهادة الدكتوراه من جامعة لندن ، ومعنى ذلك ان علمى قد وصل تمامه ، وان كل من يدعى المعرفة هو دون علمى حتى يأتى بشهادة تماثل شهادتي ، وان كلامى يجب أن يكون مسموعا ، وأوامرى مطاعة ، اذ باسم العلم ساتكلم وبصولجانه سأحكم . ويجب أن لا أتأخر خوفاً من أن يكون هنالك آخر قد سبقنى ، وانتهز الفرصة دونى ، واحتل المركز الاول قبلى. اذن فلنسرع وهيا يا قطار .

وقطع على سلسلة أفكارى دخول اثنين الى عربة القطار ، كان أحدهما أحمر الوجه والانف ، والآخر طويل القامة صبوح الوجه . وفاحت رائحة الخمرة من فم الاول عندما جلس أمامى وانحنى وتناول احدى المجلات ، وبعد أن سلم واستأذن ؛ أما رفيقه فقد جلس بكل هدوء . ويظهر أن السكير كان ثرثاراً ايضا ، فما كاد يستقر في مجلسه حتى رمى المجلة على ركبته وافتتح معى الحديث بقوله : « السيد غريب عن انكلترا كما اظن ؟ ولعله في سياحة ؟ » فاجبته مجاملاً رغم امتعاضى من كلمة غريب عن انكلترا « اما انى غير انكليزى فنعم . » وقاطعنى رفيقه : « اظنك من بلاد المغرب » فاعترض رفيقه : « انى اراهن على انه ابن احد راجوات الهند ذوى الحسب والنسب والجواهر والحريم » .

فقهقهت وأجبتهما « كلامكما مخطئ أيها السيدان ، لست من هؤلاء ولا من هؤلاء . انما أنا قد انهيت دراستى حديثا في جامعة لندن وليس لى من الحريم سوى زوجة انكليزية محترمة وأظن أن سمرة بشرتي قد خدعتكم وها هى ذى شهادتي » .

ورأيت ان نظراتهما قد رقت وبدت صورة الجـد والاحترام عـلى وجهيهما بدلا من صورة عدم الاهتمام ، وتمتم الاثنان معاً : « عراق • عراق » • واضاف ذو الوجه الاحمر « لقد سمعت بمسكر جيد معتق يحمل هذا الاسم • » وكانت فرصتي للضحك عليه فأجبته مقهقها : انذلك هو العرق وليس العراق • ولكى ازيدك علما أقول انها ميزوپوتاميا بلاد النفط ، وأنا من الموصل » فهتفا معاً : « اى نعم ، لماذا لم تقل ذلك اولاً »• وأضاف الاول ان بلدتك اشهر من نار على علم ، فلاجلها نشب النزاع بين انكلترا وتركيا الآن ؟ وانا مساهم في شركة النفط هناك • يخيل الى انك تملك كثيراً من اسهم الشركة ايضا » فأجبته : « انى لا املك شيئاً منها ، ولكنى من سراة البلدة ، وسأحتل وظيفة عالية لانى احمل شهادة كبيرة ، واذا أردت فانى مساهم ايضا كما تقول ، فاكبر نصيب من واردات الحكومة هو من هذه الشركة » •

وخضت مع السيدين في حديث طويل يتعلق بمختلف الشؤون من اقتصادية واجتماعية وسياسية واخلاقية وأدبية • وقد حاولت أن افهمهما ان لنا دولة مستقلة فتية ولكنى وجدتهما يصغيان الى بشيء من الاستخفاف•

وفارقنى السيدان بعد ما قضيا مدة طويلة معى في قاطرة واحـدة ، فودعتهما وعدت الى استغراقى افكر في شؤونى وبما يجب على ان اعمله عند وصولى • وتوصلت الى انه من غير المناسب بتاتاً ان اسكن في بلدتي الصغيرة فاضطر الى الاتصال بابى ومعى زوجتى الاجنبيـة • اذن فيجب الذهاب الى بغداد رأساً بعد اقناع ابى بعدم التعرض لشؤوني ، وبوجوب بقائه في الموصل وعدم الاتصال بى ، واذا لم يقنع فسأجبره على قطع صلته بى • وعدا ذلك فان بغداد ستكون محل كفاحى والنزال مـع اعدائـى ومحاولة الوصول الى ما أروم وابتغى ، ان لدى سلاحى وهو بالنسبة الى بغداد عاصمة هذا القطر الحديث العهد بالمدنيـة والعلم كسـلاح أبى في

قريته الابتدائية عندما قدمها لاول مرة ، ولابد ان انجح ، يجب ان استعين بأبى على استحصال بعض رسائل التوصية لتساعدنى على سرعة الاتصال بالشخصيات المهمة ، فليس عليّ الا أن أتعرف بكل الشخصيات البارزة ، أو انتمي الى حزب من الاحزاب حتى اتوصل الى المركز الذى أتمناه .

يجب عليّ ان ارتب لي بيتا فخما ، وستكون زوجتي أعظم مساعد لي على خلق وسط في بيتى يرتاح اليه العظماء من ذوي المراكز المهمة النافعة، من أجنبية ووطنية ، سأبهرهم بحديثي عن الغرب ، وبالعلم الغـزير الذى أتيت به ، وسأمنيهم بالخطط والاحلام والآمال ، ومن ثم فسأعرف كيف أقفز الى المركز المنيع ، ثم أشهر سلاحى للدفاع عن كيانى مهما كلفنى الامر، وعندما اكون في مركز حصين سيسهل عليّ الدفـاع ، فكلمـا صعدت اصبحت المهمة أهون حتى اسيطر على كل شيء .

ولى أمل اذا ما حذقت فنون السياسة وأساليبها أو اتبوأ مركزاً عظيما في الدولة ، فلماذا لا أكون وزيراً او رئيساً للوزارة ؟ وحتى حاكما لهـذه البلاد الفتية التى يحكمها عدد من ضباط الاتراك القدماء ؟

انى اكثر كفاءة منهم وأليق لمثل هذه المناصب ، ولكن عليّ ان أنال ثقتهم قبل كل شيء لاصعد على اكتافهم وما أسهل ذلك عليّ ، انى اعرف كيف يرضون ، وكيف يسخطون ، وأى الاساليب يجب ان اتبع معهـم للاستيلاء على زمامهم . وفى استطاعتى بعد دراسة عميقة لعقلياتهم وأخلاقهم ان اهيء لهم اللحود واحداً بعد آخر ، وعند ذلك سيخلو لي الجو .

وقضيت كل الطريق بين لندن وبغداد في وضع الخطط والتصاميم وتهيئة الوسائل ورسم الطريق للخطوات الاولى ، وعندما وصلت الموصل كانت لى خطة محكمة مدبرة .

ويجدر بى هنا ان انقل الى القارىء شـعورى عندما لاقيت أهـلى وأبى والوسط الذى نشأت فيه بعد هذا الغياب الطويل ، لقد كان هـذا ايضا من جملة الاشياء التى دلتني على أنى قد تبدلت تبدلا عظيما وارتفعت عما كنت عليه ارتفاعا كثيرا .

لقد لقيت أبى فكدت امنعه عن عناقى وابداء عواطفه نحوى . فالعناق لا يليق بالمتمدين . وقد سلمت على اخوتى بشىء من الاحتقار ، ومع ان ابى كان يسكن في هذه المرة بيتا كبيرا في الموصل ، فقد عفت ذلك البيت ولم احتمل البقاء فيه اكثر من يومين . أما امي فقد علمت انها ماتت فـلم أشعر بشيء من الاسف اذا لم أقل باني سررت ، ولم أزر سكينة بتاتاً . ولقد رأيت كثيراً من رفاقي وصحبي يوم كنت تلميذاً معهم فتجاهلتهم جميعـاً ، وقد جاءنى احدهم يوما بالسلام فسألته مستغرباً من يكون ؟ ولما اخبرنى بهويته تظاهرت بانى لا أعرفه ، ثم تظاهرت بأنى قد تذكرته وكان مظهرى مظهر من يتذكر أمراً بعيداً حقيراً جدا . ورددت عليه تحيته وسألته عـن حاله ، ثم فارقته مسرعا وخلفته مدهوشا يحرق الارم .

القسم الثالث

كفاح الدكتور ابراهيم

الفصل الاول

دولة في المهد

« وكيف ينشأ الطفل اذا عهدت به وهو لما يتعلم النطق ، الى فيلسوف في الشر والاجرام ؟ »

وصلت الى بغداد ، وليس معى غير شهادتى العالية وكتاب توصية من ابى الى شخصية بارزة ، وآخر من متصرف اللواء الى وزير الاقتصاد والمواصلات • وبعد ان انهيت المعاملات الرسمية مع وزارة المعارف ، قصدت وزارة الاقتصاد والمواصلات وطلبت مواجهة الوزير ، وعندما دخلت عليه نفخت صدرى وتصنعت عدم المبالاة ، مع المحافظة على مظهر الرزانة والوقار، وتقدمت من الوزير فخف لاستقبالى ، وصافحنى مسروراً ثم دعانى الى الجلوس بالقرب منه ، ودعا (بالقهوة) • ثم اقبل عليّ وابتسامة سرور تترقرق على وجهه • وبدأ يسألني عن الصحة والخاطر والكيف ، وعن احوالى وكيف انهيت دراستى ، ثم بدأ يطرينى ويؤمل لوزارته فائدة عظيمة من علمى الغزير ، واكد لى بانهم في اشد الحاجة الى رجل اختصاصى في الشؤون الزراعية ، لان لديهم اخصائيا انكليزياً ، ومن الضرورى ابداله بآخر عراقى ، واننى أنا هو ذلك العراقى المنتظر ، وان مركزى سيكون مدير الامور الفنية في قسم من وزارته • ولما أراد ان يتكلم عن الراتب قاطعته ، وكأنى قد تذكرت امرا منسيا ، وقدمت له كتاب المتصرف فانشغل بقراءته فترة من الزمن ، ثم عاد الى وقال : ليس باستطاعتنا طبعاً ان نعطيك عين الراتب الذى كان يتقاضاه الموظف الانكليزى ، لان هذا يخالف مضمون قانون

الخدمة ، وسنبدأ معك بالراتب الذى تستحقه درجتك العلمية ، وبما ان هذه الدرجة هي الاولى من نوعها فسنضع قانوناً خاصاً بها وبأمثالها ، وسيكون راتبك الاول اربعمائة وخمسين ربية » •

فاعترضت حالاً : « ولكنكم كنتم تدفعون للانكليزى الذى كان في مركزي ما يزيد على الالف والخمسمائة ربية » •

فأجاب ضاحكاً : « طبعاً ، وهل تنتظر ان ندفع لك نفس المبلغ ؟ ان راتب رئيس الوزارة لا يزيد كثيراً عن هذا المبلغ • ولكن علام العجلة يا بني؟ انك مبتدىء ، وتأكد بأن مستقبلك مضمون مادمت حائزاً على مثل هذه الشهادة »• ولم يترك لى مجالاً لاعتراض آخر ، بل تناول التلفون ، واتصل بمدير الزراعة العام وسمعته يقول : « عندي الدكتور الجديد في الزراعة ابراهيم افندى ، وسأرسله اليك ، فأرجو أن تهتم بأمره ، وتقدم له المساعدات الممكنة، ولا تنس أن تسند له كل الاعمال المهمة ، وتعتمد عليه كل الاعتماد ، وسيأتيك بعد قليل » •

وعندما انتهت المحادثات التلفونية سألت صاحب المعالى : « يهمنى أن أسأل عن درجة المدير العام العلمية في فن الزراعة ، اذ أخشى أن يكون على جهل بأصولها الحديثة ، وهذا يسبب دون شك تبايناً في وجهات النظر ، ربما أدى الى مشاكل كثيرة » •

فأجابني الوزير حالاً : « لقد اشتغل في الامور الزراعية منذ نعومة أظفاره ، وهو خريج مدرسة الفنون في الاستانة ، ولكن خبرته العملية تفوق التصوير ، وهو مطلع على الصغائر والكبائر في هذا الشأن ، فلك أن تكون مطمئناً من هذه الناحية ، وتأكد بأنه سيتلقى اقتراحاتك بصدر رحب ، وينفذ كل ما تطلبه منه » •

فودعت البيك صاحب المعالى واسرعت لمقابلـة رئيسى الجديد الـذى لا يملك شهادة كشهادتي ، وفوق ذلك فان معلوماته في فن الزراعة عتيقة قد أكل الدهر عليها وشرب ، ومع ذلك فهو رئيسى وراتبه ضعف راتبى تقريباً • ترى كيف سيتلقى هذا منافسه الجديد ؟

ودخلت غرفتهبدون استئذان ، وعندما قدمتله نفسينهض باشا مرحبا، وصافحنى بحرارة ، وطلب منى أن أجلس على احدى الارائك الوثيرة ، وجلس بجانبي تاركاً مكتبه ، وأخبرنى بأنه كان ينتظر قدومى يوماً بعد يوم ، وهو في أشد الشوق الى رؤيتي والتعاون معي ، ولم يبـد شـكاية من الموظف الانكليزى السابق ولكنه انتقص اخلاصه للعمل ورغبته في تقدم الدائرة ، وأكد لى بانه يرجو ان يتم بواسطتى كثير من التحسينات في هذا الباب •

وكنت خلال اندفاعه فى الحديث أدقق النظر فيه ، فرأيته كهلاً طيب القلب واسع الخبرة غزير المعلومات مثقفا ، وكان ابرز صفة فيه تهالكه عـلى العمل وانهماكه فيه الى درجة غريبة ، وكنت في خلال تلك المباحثات السريعة في الشؤون الزراعية الاحظ عليه انه كان يفهمها أتم الفهم ، ولكنه كان يعترض على سيل الاقتراحات التى تدفقت من فمى بابتسامة رزينة ، ويطلب منى أن أتريث ريثما أدرس هذه الاقتراحات من الوجهة العملية •

ولم تعجبني تلك الرزانة وذلك الاطمئنان والثقة بالنفس ، وقد كنت أميل الى أن ألاحظ عليه كثيراً من القصور في العمل والخوف مني ، وأدركت فوراً بأن الصراع مع هذا الانسان سيكون ذا شأن » •

ولم يتركنى قبل أن أطلعني على كل اسرار الدائرة ، وكل الاعمال التى انجزها ، واطلعنى ايضا على كل الخطوات الاصلاحية التي تمت ، والتي هى الآن في دور التحقيق ، والتي ستتم في المستقبل • ولكنى لم أتردد في مبادأته بالهجوم ، فقلت له : « ولكن فنون الزراعة قد وصلت الى درجة عظيمة مـن

الرقي بينما انتم لا تزالون تتبعون طرقاً بسيطة وابتدائية • وكـــان يجب أن تتناولوا النظريات الحديثة فتطبقوهـــا في الفنون الزراعيـــة وتعمموها عـــلى الفلاحـــين » •

فأجابني ساخراً ولكن بلطف : « يظهر انك لم تر شيئاً من الحياة العملية حتى الآن ، وليس في استطاعتك ان تنكر ان التطبيق يجب أن يكون تدريجياً، وبخطى تتفق عملياً والواقع والا فشلت كل المساعى وذهبت أدراج الرياح »•

وبقدر ما كان يظهر هذا المدير العام بمظهر اللطف والدماثة والتواضع كنت أظهر بمظهر التفوق عليه بالمعلومات والخبرة ، وارمى أمامه بمعلوماتي الحديثة وبشهادتي العالية في كل مناسبة ، وكنت احاذر في الوقت نفسه ان يشم منى رائحة العداء فيأخذ أهبته ، فتفوتنى فرصة مهاجمته على غرة ، ولذلك كنت اتعمد كثيراً أن أظهر له بمظهر المسالم ، واحترم مركزه وتجاربه واخلاقه ولم ابخل عليه ببعض عبارات الاطراء والتمجيد ، ولكنه لم يهتم بها بتاتاً ، بخلاف الوزير الذى كان ينتفخ تيهاً كلما مدحته بعبارة من عبارات التمجيد والتعظيـــم •

ومما زادنى فخراً وزهواً انه كان يعاملني معاملة الند للند اثناء تقديمى لبقية موظفى دائرته الكبار والصغار ، وكان دائمـــا يكـــرر أهميتى وقيمتى العلمية ، ويذكر شهادتي امامهم ، وقد شعرت بصورة فعلية بأن الرجل كان صادقاً عندما قال لى انه : « كان ينتظر قدومى لمعاونته ، ولكن لماذا أعاونه في مشاريعه ، ألكي تنجح الدائرة فيتمتع هو بالشهرة دونى لانه رئيس الدائرة ويتقوى مركزه ويشتد ساعده فيكون أمنع من عقاب الجو ؟ تالله ان هذا بعيد الاحتمـــال » •

هذا ما جال في خاطرى عندما كان يشرح لى خطته في العمل ويطلب منى نقدها وابداء ملاحظاتى حولها ، ولكثرة استغراقى في أفكارى الخاصة لم اتنبه جيداً لثرثرته • لقد كنت أقول لنفسي : « أجل ، لمـــاذا لا احبط مساعيه ،

واحطمه ، ثم أقف على انقاضه وابدأ العمل من جديد ، واذا ما نجح العمل ، كان النجاح لى وباسمى ، وكل ما سيتبع ذلك من سمعة طيبة ومركز محترم سيكون جميعه لى ، فيزداد راتبي ، ويرتفع مركزى حتى أصبح مديراً عاماً ، ووزيراً ، بل وربما رئيس وزارة أيضا ، ولماذا لا ؟ • انى اتمتع بمزايا قلما تمتع بها أحد عند أول نزوله الى ميدان الكفاح ، اذن فلأدع هذا الاحمق يسرد مشاريعه ويطلعني على أسرار اعماله وعلى عوراته ، ولا تنبه لها انتباه اليقظ المتصيد لاحصي عليه نقاط الضعف واغمز قناته واعلم درجة مقاومته ، وياله من أحمق يتباحث مع عدوه ويطلب نصحه ، في وضع خطة للدفاع عن نفسه •

ان الامور هينة اذن ، وما كنت أعلم انها هينة الى هذا الحد ، فالوزير يبدى ثقته بى ، والمدير العام تحت رحمتى ؟

وودعت هذا المدير الاحمق بعد أن وعدته بالزيارة في بيته فقد أعلن انه سيقدمنى الى عدد كبير من الشخوص البارزة وجمهور كبير من المثقفين وذوى النفوذ في البلد ، وبعض الصحفيين المتازين الذين اعتادوا أن يزوروه • وكان ذلك اليوم يوم الزيارة عنده (يوم القبول) •

وعند خروجي صادفت أحد المفتشين الذين قدمهم لى قبل برهة ، وكان خارجاً في بعض شؤون دائرته ، وصدف ان كان طريقى وطريقه واحداً فأركبنى معه في العربة ، وخاض معى في حديث يدل على ثقته بي وعلمه بأنى سأعادى المدير • وقد استغربت هذه الثقة السريعة منه بي وادلاءه الي بتلك الآراء الغريبة عن رئيسه واعتباره العداء بينى وبين الرئيس طبيعياً ، وقد كنت أشم من كلامه رائحة النفور والعداء للمدير ، وكان من جملة ما قال : « حقاً ان الحكومة رعناء ، اذ كيف تضعك وأنت حائز على أكبر شهادة علمية فنية تحت أمرة رئيس ليسعندهشهادة قط ؟ ولكن مهلا فلابد أن تتبدل الاوضاع عن قريب ، فتسقط الوزارة وتأتي أخرى تعرف قدر العلم والاختصاص » •

واستدرجته في الحديث حتى علمت منه بأنه منتم الى شخصية بارزة ووزير سابق ينتظر يوماً بعد يوم سقوط الوزارة ليعود اليها ، وعلمت انه منتم الى الحزب المعارض ايضا ، وقد طلب منى أن يقدمنى الى بعض شخصيات حزبه وأكد لي بأن آراءهم وعقليتهم وثقافتهم وتفانيهم في الخدمة لصالح المجتمع ستعجبنى كثيراً ، فوعدته خيراً ، ولكن دون أن اكشف نفسى أمامه فاتعرض لخطر ما بسبب ذلك ، فقد لاحظت بأنى لا زلت تحت سيطرة الوزارة الحاضرة ، وفي استطاعتها أن تفعل بى الافاعيل • وقد استدرجته أكثر فأكثر حتى علمت سبب عدائه للمدير العام •

قال : « انه قد وقف حجر عثرة دون ترفيعى يوم كان قريبى وزيراً ، مدعياً بأني لا استحق الترفيع ، وقدم غيري عليّ رغم عدم وجود أحد يسند هذا المقدم » •

فسألته دهشاً : « وكيف لم يغضب الوزير ويصب عليه نقمته ؟ » •

فأجاب « انه شيطان فقد استطاع ان يبرهن على اهمالى واجتهاد الآخر ، وفوق ذلك فهو مشهور بتصلبه في رأيه ، وقد أصر على قراره مخاطراً حتى بمركزه » •

فقلت : « ياله من أحمق وكيف يفعل ذلك وما هى فائدته منه ؟ » •

فأجاب : « انه ارعن ولابد أن يكون هذا الموظف قد قدم له بعض الخدمات الخاصة ، ولا يمكن أن يكون الامر خلاف ذلك » •

ومن هذه المناظر الثلاثة التى استعرضتها في يومى استطعت ان أخرج بفكرة لا بأس بها عن حالة هذه الدولة الفتية وهي في أول تشكيلها • وقد كنت راضياً بينى وبين نفسى عن تلك المساعى التي بذلتها والمعلومات التي توصلت اليها ، ولا شك انى سأنال منتهى التوفيق اذا استمرت الامور تجرى على هذا المنوال •

الفصل الثاني

مجلس سياسة

« ولعل هذا الشعب الغريب هو الفريد بين الشعوب في درجة اهتمامه بالسياسة يخلطها بطعامه وشرابه وانسه وجده وهزله . »

كانت غرفة الاستقبال غاصة بالزوار ، وقام الحضور عند قدومى كالعادة عند قدوم زائر ، مهما كانت درجته وأهميته ، وبعد أن جلست أتى دور التقديم ، ولم يلهنى شيء في الغرفة عن مراقبة ذلك العدد من الشخصيات البارزة والاهتمام بأحاديثهم واكتشاف ميولهم وعواطفهم ، وكان أحد الحاضرين كثير الحركة عصبى المزاج ، يتكلم بسرعة وبحدة وبقوة ، ويهاجم الوزارة بشدة وبدون هوادة . وعندما قدمنى صاحب البيت اليه قال في تعريفه : « السيد عبدالمجيب الكامل ، وهو أحد رجال الثورة العربية ، ومن أعاظم أساطين السياسة في هذا البلد » فشد هذا الرجل العصبى على يدى باسماً وقال : أهلا بالدكتور ، تشرفنا ، لقد سمعت بخبر قدومكم فوددت التعرف بكم ، انها فرصة سعيدة » .

وأعجبني آخر وكان صحافيا وسماه صاحب الدعوة (توما الصحافي النابه) وكان ممن تبدو المسكنة عليهم ولكنه كان يشاغب على طريقته ، فكلامه أشد مضاء واكثر حدة وتأثيراً من كلام سابقه ، ولكنه كان يلقيه بهدوء وسكون وبهيأة تعقل وعدم مبالاة ، كأولئك العلماء الذين يلقون عليك درساً طويلا في حياة حيوان من الحيوانات . ولفت نظرى اثنان آخران سماهما

صاحب البيت بصاحبي المعالي ، فادركت على الفور انهما وزيران سابقان ، وكان احدهما مهذاراً كثير التفاخر والتباهي ، أما الثاني فكان هادئا تبدو العجرفة في حركاته وسكناته ، ومن كلامه وابتساماته الساخرة الغريبة . وأما الباقون فلم يكن بينهم من يستحق الاهتمام فاغلبهم موظفون صغار أو كتاب أو شعراء .

وابتدأ الوزير الحديث فقال : « هل سمعتم بالخطاب القيم الذى القاه السيد جمال في جلسة حزب النهضة التي انعقدت البارحة » .

فأجاب توما : « لقد نشرته بنصه في جريدتي » .

وأجاب الوزير الثاني : « لقد كان خطاباً لا بأس به ، ولكن كان على الخطيب أن يصوغ هجومه باسلوب آخر ، فلم استحسن مثلا ان يسمى اعمال الوزارة باسماء فخمة جميلة مشوقة ، اذ كان عليه ان ينعتها بنعوت قبيحة ، ثم يبدأ فيشرحها قطعة فقطعة ، ويظهر مساوئها ويتعمق في شرح الدوافع التى دفعت الوزارة الى القيام بها » .

وقال صاحب الدار : « ولكنى اراه لم يتعد وجه الحقيقة فمدح من أعمال الحكومة ما يستحق المدح ، ثم لامها على ما تستحق اللوم ، وقد كانت صفحة اللوم اكبر من صحيفة المدح طبعاً ، وبذلك يقنع الخطيب السامع بانه لا يلوم لمجرد اللوم ويوحي اليه ان الصدق في كلامه هو الغالب ، فيكون مجال التأثير أوسع » فاعترض توما : « ولكن ذلك ليس من السياسة في شيء . ان الاعمال الحزبية تتطلب الهجوم المباشر دون هوادة او لين ، وفي رأيي أن اختلاق بعض الاكاذيب في بعض الاحيان شيء يبرره الصراع الحزبي ، ويجب ان يؤثر الحزب على الرأى العام تأثيرا مباشرا ويدفعه الى الاحتجاج والتمرد والقيام بمظاهرات ، ويدرك انه بغير هذه الضربات لا تسقط وزارة مطلقا » .

وقال أحد الحاضرين : « لقد سمعت ان عددا كبيرا من أعضاء المجلس النيابي قد انضم الى المعارضة ، وان الحزب يشتغل بصورة جدية في سحب الباقين ، وبعد مدة غير قليلة قد تجد الوزارة نفسها بدون نصير فتضطر الى الاستقالة » •

وقال آخر : « ان كفة حزب النهضة هي الغالبة ولابد ان يسيطر الحزب على الوزارة القادمة مهما كانت الحال » •

وتكلم صاحب الدار فقال صراحة ، اخبركم ايها الاصدقاء ان هـذه الالعاب الحزبية في امة ناشئة لا تعجبني مطلقا • لقد ألهت كل فرد في الدولة صغيرا او كبيرا عن اعماله وواجباته ، وقسمت الموظفين شيعا واحزابا ، وبذرت بذرة الشقاق بين الناس ، اما الدافع لكل ذلك فهو الدفاع عن فلان او فلان ، واذا سألت فلانا ما هى خطته اجابك بمشاريع طويلة عريضة ، واذا سألت المعارض ما هي خطته اجابك بعين الخطة ، واذا ما دققت اعمال كلا الفريقين عند امتطائه كرسى الوزارة تجد انه لم يفعل اكثر مما فعل رفيقه ، فالاصلاحات لا تتعدى في كلتا الحالتين زيادة وظائف الحكومة لتوزيعها عـلى المحسوبين والمنسوبين ، وهكذا يكون نشاط رجالنا مصروفا الى المشاحنات الشخصية فقط » •

وسرنى كـلام رئيسى ، لاني رأيت الامتعاض منـه يشيع في اوجـه الحاضرين ، وقد اجاب توما : « ان الحالة كذلك في كل بلاد العالم • »

وايدت كلامه بصفتى احد القادمين حديثا من الغرب ، ولم اتردد ، من سرد شواهد تؤيد ما زعم احد الوزيرين وتوما وتذهب مذهبهما في السياسة والقيادة الحزبية والمناورات •

واحدث كلامي تأثيرا طيبا في نفس صاحب المعالي وابتسم توما ابتسامة رائقة وقال : « لو اردت ان تنشر بعض المقالات عن الحياة السياسية والاجتماعية في انكلترا فان جريدتي ترحب بما تكتب » •

فاعترض صاحب الدار : « ولكني افضل ان يكتب في الشؤون الزراعية الفنية فذلك اولى » •

فاجبت : « انى مستعد للكتابة في كل ما انا مطلع عليه من حياة الغرب وعلمه » •

ورأيت ان دورى قد جاء للكلام فبدأت انتقد الحكومة لاهمالها شأن البعثات والتخصص في مختلف الشؤون من زراعية وصناعية وتربوية • وقد ذهبت الى ان الاصلاح لا يتم في هذه البلاد ما لم تخلق طبقة من المتخصصين تلقى اليهم ازمة الامور فيعملون بحرية ويحققون احلام الحكومة والشعب • »

واسرع توما فقال : « اكتب مقالاً بهذا المعنى وسأدلك على ما يثبت لك ان الحكومة الحاضرة لم تهتم ابدا بما تقول ، هـذا اذا لم تعاكس من يقترح ذلك • »

وأضاف الرجل ذو المزاج العصبى :

« لا ادرى حقا كيف اهملت الحكومة شأن البعثات حتى الآن ، فلـو كان عندنا مقدار كبير من هذا النوع من الشبان امثال الدكتور ابراهيـم فلا شك بأننا واصلون الى درجة كبيرة من الرقى بمدة وجيزة » •

واعترض صاحب البيت : « ولكن عليك الا تنسى بأن الحكومـة لم يمض عليها اكثر من ثماني سنين ، وهذه المدة لا تكاد تكفى لتخريج عدد كاف من المتعلمين الضروريين لاشغال بعض الوظائف المهمة ومع هذا فقد ارسلت الحكومة عددا لا بأس بهبالنسبة الىحاجاتها فهي غير مقصرة في ذلك بتاتاً •»

وارتفعت درجة حرارة الرجل ذى المزاج العصبي وانطلق يهاجم صاحب الدار : « يبدو لى ايها السادة بأن سعادة البيك من المغرمين بهذه الحكومة فهو لا يألو يدافع عنها فلا تفوته فائتة حتى يثبت بها ان الحكومة مصيبة وان اللوم كل اللوم يجب ان يقع على عاتق من يلومها ، واظنه خائفا على مركزه ، ولو لم اعلم بشجاعته لاتهمته بالجبن » •

ولم يتردد صاحب الدار في الدفاع فقال : « انى لم انتم الى حزب من الاحزاب كما تعلم ايها السيد . ان حزبى هو دائرتى كما ترى ، وانا لا ادافع عن غير مصلحة دائرتى ومصلحة الاكفاء من موظفى دائرتى ، وانا لا أحبذ مطلقا لاحد منهم ان ينتمى الى أى حزب من هذه الاحزاب مهما كان نوعها او درجتها . ان انتماء الموظفين الى الاحزاب اكبر مفسدة لهم . وانا لم ادافع عن الحكومة على طول الخط فقد هاجمتها كثيرا ولكن على اشياء تستحق ان اهاجمها بها ودافعت عنها عندما وجدتها تستحق الدفاع . وهذا شأن من هم على الحياد دائما يا سيدى العزيز . وانى لاعلم ان لك ولبقية اعضاء حزبك مصلحة في سقوط هذه الوزارة ، ولكن لا اسوغ لكم ان تعميكم هذه المصلحة عن بعض حسنات هذه الوزارة ، فليس في استطاعتى ان اوافقكم على ان الحكومة مخطئة في عمل يدخل ضمن اختصاصى حينما اراها قد مدت يد المساعدة لى واعانتنى على انجاز ذلك العمل الذى قد يكون فيه نفع عميم للدائرة والحكومة وللامة والشعب ، وهكذا يوم تأتون انتم للحكم فسوف اقاومكم اذا ما عاكستم الاعمال الحسنة ، وامد لكم يد المساعدة واشيد بذكركم اذا ما عاونتمونى عليها ، »

ورأيت الامتعاض مرة اخرى يبدو على اوجه الحاضرين ، وكان اشد الجميع امتعاضا السيد توما وقد شاء خبثه ان يطلق في جو القاعة نكتة كان لها وقع حسن عندى وعند الحاضرين ، ولكنها كانت قارصة لصاحب الدار فقد قال توما : « مما لا يمكن انكاره ايها السيد ان الاختصاص يفيد كثيرا في الاعمال ، فلو عينت الوزارة الدكتور ابراهيم محلك في الدائرة فهل توافق على ذلك ، مع علمك بأن هذا يفيد مصلحة الدائرة » .

فأجاب على الفور : « ان الاختصاص وحده لا يكفى ، ويوم يقوم الدكتور ابراهيم بدراسة شؤون الدائرة من الوجهة العملية وارى انه سينجز من المشاريع ما لا استطيع انجازه فسأتخلى له عن مركزي بكل سرور » .

الفصل الثالث

اول الهجـــوم

« ايها الرئيس الذي سأغتصب مركزه ، ان كل
صفة فيك يسميها البعض شريفة ستكون ثغرة في سورك
منها اطعنك بسلاحي الذي يسميه بعض الحمقى خبيثا »

تسلمت وظيفتى الجديدة ، وشرعت اتفقد شؤون الدائرة كلها ، المسؤول عنها وغير المسؤول عنها ؛ وشرعت ابدى ملاحظاتى ، وكانت هذه الملاحظات بشكل انتقادات جارحة فانتقدت الاساليب الزراعية، وانتقدت حالة الفلاح ، وانتقدت المدرسة الزراعية ، وانتقدت جهل الموظفين ؛ وانتقدت اســاليب الادارة ، وقد احصيت من العيوب ما يملأ مجلداً ، وبدأت اقدم التقارير الى المدير العام ، وكنت اتعمد ان أجعل هذه التقارير بشكل يزعجه ، ولا يرى معها امكانا لتحقيق ما أطلبه ، واخيرا لم يجد هذا المدير مناصا بعد ان اعميته بتقاريري من ان يطلب مني أن اقوم بعمل خاص عينه لي ، والا أتدخل فيما عداه من شؤون الدائرة ، وعندها قامت قيامتى فمضيت ابث الدعاية ضده ، واتهمه بالتقصير عن عمد ، وبمحاولته غل يدى عن العمل لكيلا يكون ثمـة مجال للبروز عليه ، وقدمت شكاية الى الوزارة رأساً ، ولما رأيت ان الوزارة قد تكون بجانبه التجأت الى جانب بعض الوزراء الكبار او المتقدمين في الدولة فجعلتهم بجانبي ، وقد أثرت فيهم بايراد البراهين على ان الرجل الذى يرأس هذه الدائرة جاهل أحمق أو ذو معلومات عتيقة بالية لا تصلح لهـذا العصر ، وان الرجل يحاول جهده ان يثبت تقصيرى لكيلا يكون لى مجـال للتفوق عليـه .

وكان بجانبي في ذلك جميع المتحمسين للاصلاح والتجدد من الشبان والشيوخ ، وفتح لى توما صدر جريدته لكى اكتب فيها مختلف الشؤون من اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك • وكنت دائماً اضرب على نغمة واحدة هي وجوب الخروج على الاساليب القديمة ومراعاة الاساليب الحديثة في كل مرافق الحياة ، واعرض بدائرة الزراعة وتقصيرها بصورة مباشرة او غـير مباشرة • وحذت بقية الصحف حذوى لما رأت جمهور القراء مسرورا بتلك الحملة • فهو يحب كل الحملات مهما كان نوعها ويعشق مهاجمة الدولة بالحق والباطل• وان هي الا فترة من الزمن حتى غدت الصحافة كلها جبهة واحدة ضد وزارة الزراعة والمدير العام • وكانت كلها تردد وجوب الاهتمام بالاختصاص، اذ بغير ذلك لا تقوم لهذه الحكومة الفتية قائمة او لا تتقدم ولا خطوة واحدة الى الامـــام •

وقد لمست نجاحى لمسا • فقد كنت يوما في مجلس أحد الذوات ، وكان حافلا بالزوار فسمعت أحد الحاضرين يهاجم الحكومة بقوله : « لست اعلم الفائدة من ارسال الشبان للدراسة في الخارج ، وصرف المبالغ الكثيرة عليهم للاختصاص ، ثم وضعهم بعد ذلك تحت امرة رؤساء جهلاء لا يفهمون شيئاً من اصول العمل • وتقييدهم بارادة هؤلاء الرؤساء الذين لايعلم الا الله كيف أصبحوا رؤساء ، وفي أي ظروف تسنموا هذه المراكز • ان هذه جرائم يجب ان تحاسب الحكومة عليها حسابا عسيرا • ان الحكومة تخبط خبط عشواء دون ان تلتفت الى النصح والارشـاد • وهـاكم الدكتور ابراهيـم فليتكلم وليطلعنا على حالته في وزارة الاقتصاد » •

فأجبت وأنا متحمس : « يا سيدى ، أوافقك على انه من العبث ارسال البعثات في مثل هذه الظروف • انك لا تعلم أى عذاب اتحمـل وأنا أرى الاغلاط الفظيعة تجرى أمام عينى ، وقد أجبر انا على ارتكابها ، بينما لا يكون لي حق في رفع صوتى حتى ولو بصفة النصح والارشاد • ان البيــك الذى

يترأس الدائرة دكتاتور لا يسمع ولا يجيب ، يصدر أوامره ، وعلينا ان نطيع دون ادنى اعتراض ، ولكن وجدان المرء قد يحاسبه كثيراً في مثـل هـذه الظروف ، وأنا ممن لا يستطيعون السكوت مهما كانت النتائج • لقد ثرت عليه ، وقدمت احتجاجا صارخا الى الوزارة اطلب منها ان تدعنى استفيد مما تعلمته او اطبق الفن الذى صرفت كثيرا من مالية الدولة في سبيل اتقانه ، وانى في غير هذه الحالة ارجو ان تقيلنى الدائرة من هذا العمل ، ولها ان تتقاضى منى ما صرفته علي ، وسوف اذهب بعد ذلك الى قرية أبى لاطبق بصورة فعلية ما تعلمته ، واظهر للحكومة خطأ الاجراءات التى يقوم بها هذا المدير الاحمق ، واعتقد بانى قد أثرت على بعض الرجال في ديوان الوزارة ، فقد تألموا لما حدث ، ووقفوا بجانبي ، ورفضوا ان يقبلوا استقالتى ، والحوا في وجوب ايقاف هذا الاضطهاد عند حده ، ولكنى لم ارض بفائدة مثل هذا الدفاع ، اذا لم تصحبه اجراءات فعلية توقف سيئي النية عند حدهم » •

وقال آخر : « اعتقد ان من واجب كل مخلص حيال هذه القضية ان يرفع صوته ، ويطلب من الحكومة ان تنصف ابناءها وتدعهم يعملون • »

وقال آخر متحمسا : « لو كان الدكتور ابراهيم تركيا وليس من أبناء هذه البلاد لكانت له حظوة عند رئيسه • ولو بحثت ايها الدكتور ابراهيم بين الموظفين عن الغرباء من الاتراك لوجدتهم يملأون المناصب المهمة • اما العرب فقد أخذ البيك على عاتقه ان يقاومهم بكل قوته • والدكتور ابراهيم رجل من رجال الفضل ، ومن بيت دين محترم ، فليس من صالح البيك طبعا ان يمد له يد المساعدة ليظهر كفاءته • »

وسألته دهشاً : « حقاً ما كنت لأعلم بأن رئيسى من أصل تركى » •

فأجابنى المتكلم : « بل اظنه تركياً وامرأته تركية ايضا ، وهو نفسه لا يحسن العربية الا قليلاً ، ويجب ان تفتح عينيك اكثر من هذا وأن تأخذ الامور مأخذاً آخر فلا تكن ساذجاً الى هذا الحد • »

والغريب من امر رئيسى هذا انه كان مكروهاً عند الكثير من المتنفذين لانه لا يعرف الوساطة في اعماله • وقد رد الكثير منهم خائبين ، عندما التمسوه في مساعدة قريب او نسيب ، واذا علمت ان الملتزمين هم دائما قليلو الكفاءة ، لاعتمادهم على مثل هذه الوسائل ، ولانتمائهم للشخوص البارزين ، ادركت ان الطبقة المتنفذة تكرهه كلها تقريباً ، وقد اثلج صدرى ان يكون طبع رئيسى مثل هذا الطبع الذى يسهل مهاجمته عن طريقه • ولقد اكتشفت ان الامور الشخصية لها علاقة عظيمة واثر مهم في الشعب ، فمضيت أتحرى حياته الخصوصية وما يشاع عن اموره المنزلية ، وكنت ألتقط الاشاعات الواردة على لسان الموتورين من صغار موظفيه ، والتى قد يكون اغلبها مختلقا لا أساس له من الصحة ، فاوضحها وانشرها على الناس •

ولكى تسهل عليّ مهمة مقاومة الرئيس الذى اصبحت لا اشتغل الا في مقاومته وازاحته ، قررت ان اتعرف على كل الشخصيات البارزة التى قد يكون لها اثر في المستقبل في الحكومة وقد استخدمت لهذه الغاية شخصين آخرين لهما مركز مهم جدا في الاوساط العراقية الراقية ، وقد التجأت للوصول الى هذه الغاية الى الارتباط بهؤلاء برباط من الصداقة المتينة • فدعوتهم عدة مرات الى منزلى مع بعض الموظفين الانكليز ، وهنا قامت زوجتى بدورها كما يجب ، وكان لوجود هؤلاء الانكليز تأثير عظيم على هؤلاء الاصدقاء الذين كانوا يعتبرون كلهم مثالاً حيا لحب التجدد والرقي ، ويعتبرون زوجتى اعظم الزوجات ، وتأثير المرأة كما رأيت يفوق تأثير الرجل مرات ، فقد احدثت زوجتي بأدبها ونشاطها وخفة روحها وشخصيتها تأثيرا في نفوس هؤلاء يفوق كثيرا ما احدثته انا • وقد كنت اتعمد ان اظهر لاصدقائي هؤلاء منزلتي في نفوس المتنفذين من الانكليز وعلاقتى بهم واحترامهم لى كانسان عصرى متمدن •

وبواسطة هؤلاء استطعت ان اتصل بمعظم الشخصيات البارزة فيالبلد من مختلف الطبقات والاحزاب ، وكان لاغلب هؤلاء زوجات اجنبيات ايضا ، فكانت الزيارات العائلية المتبادلة تزيد في روابطنا قوة ومتانة ، وقد كنت ألح في الاكثار من هذه الزيارات ، ورفع التكلف ، لان هذا وحده يجعل عقول هؤلاء وافئدتهم مفتوحة لى ، استطيع ان القى فيها ما اريد دون جهد وعنت ، فاذا طلبت امراً حتى ولو بصفة المزاح أراه ينفذ حالا •

وأنت لا تدرك قيمة مثل هذه الامور حتى تعلم ان رؤساء الدوائر والمتقدمين في هذه الحكومة الفتية يعدون المصالح التى بين ايديهم حقا خاصا بهم يستطيعون التصرف به كما يشاؤون ، فكما ان باستطاعتهم ان يهدوك طبقا من الفواكه ، فكذلك باستطاعتهم ان يهدوك وظيفة ، او مرتبا ، او مقدارا من المخصصات على قدر استطاعتهم •

وهؤلاء الاصدقاء الكبار يتبادلون المصالح الشخصية على حساب خزينة الدولة ، كما يتبادلون الهدايا والتحف بصورة خاصة ، واذا رفضت لهم خدمة من هذا النوع فقد خنت عهد الصداقة والمودة ، ولذلك ترى كثيرا من الاصدقاء من بين هؤلاء او من كان محبوبا بينهم ، كثير المصالح والفوائد وتجد غالبا وراءه جيشا من المحسوبين والمنسوبين يلتمس لهذا ويرجو لذاك، يعين زيدا ، ويعزل عمروا ، وينكب فلانا ، ويسعد فلانا •

وقد فهمت هذا القانون بسهولة ، وبدأت أحسب له حسابا مهما ، وهذا ما دعاني الى ان اسعى أنا وزوجى بجد ونشاط الى الارتباط مع كل العائلات المهمة برباط الصداقة القوية ، وقد نجحت في ذلك الى حد كبير ، وأصبح في استطاعتى أن أقول بأنى مهدت ثلاث خطوات في أساس مستقبلى •

الفصل الرابع

مؤامرة

« سأسيرُ وراء الهدامين لعلهم يفتحون لي بمعاولهم ثغرة انفذ منها ، وسأبقى سائرا وراءهم ما دام الطريق يسير صعدا نحو القمة »

كان يوما باردا من أيام الشتاء القارص ، وكانت الرياح تصفر فيختلط صفيرها بحفيف سعف النخيل ، وكانت السماء ملبدة بغيوم بيضاء غير ممطرة، وكنا في تلك الغرفة الانيقة المريحة لا نشعر بما يدل على قسوة الجو ٠ وشدة البرد ، الا ما نسمعه من ذلك الصفير والحفيف ٠

كانت النار تضطرم في الموقد في صدر القاعة ، والاخشاب تفرقع فيتطاير منها الشرر ، وتعلو السنة اللهيب فتلون جدران الموقد بشكل يرتاح اليه البصر والقلب معاً ٠ وكان المتآمرون قد تركوا معاطفهم خارج القاعة فبدت البستهم الانيقة الغالية جميلة لطيفة تزيد في جمال القاعة واثاثها ، وكنت قد اخذت العدة ، فارتديت اجمل ما عندى ٠ وشعرت بسرور مفرط عندما وجدت بأنى اماثل الآخرين أناقة وهنداماً ، وكان الحاضرون يديرون ابصارهم يستعرضون الالبسة والاحذية والاربطة ، وقد كنت اشعر بشيء من الزهو عندما أرى الانظار تستقر عليّ ، فقد كانت البستى المفصلة في انكلترا تفوق البسة الكثيرين منهم مع اغلبهم يحيكون البستهم خارج العراق ٠

ودار الحديث اولا حول الالبسة والاحذية فشكا كل منهم ما يلاقي من متاعب وآلام في ايجاد قطعة من القماش تليق به ، وخياط يحسن تفصيلها، حتى ليخيل للسامع ان الخياطة هي علة العلل • واعترف الجميع اخيراً بـأن بغداد لا تحوى قماشاً جيداً ولا خياطاً ماهراً ، ثم دار الحديث حول الجو واجمع الكل على ان الجو في العراق من اقبح الاجواء ، واضـاف احدهـم متفلسـفاً :

« يستغرب البعض تأخر العراق والبلاد العربية عن بقية اقطار العالم ، والاوربية منها بصورة خاصة ، ولست ارى مجالاً للاستغراب ، فالفرق عظيم جداً بين طبيعة البلاد هنا وهناك • ولست اعرف كيف ينشأ شعب راق صالح في مثل هذه الاجواء القبيحة » •

وسكت الجميع ، فقد كان المتكلم من ذوى المكانة ، الا واحداً اعترض ليظهر معارفه فقال : « ان قسوة الجو اعظم محفز على العمل والتقدم ، والجو الاوربى اكثر قسوة من جونا ، واما ما رآه البيك من الوسائط المريحة في اوربا فليست الا نتاج عمل الانسان هناك ونشاطه » ولم يلتفت أحـد الى المعترض ، ونظر البعض اليه شزراً غير مستحسن رده وحمدت الله الا اكون انا الذى تكلمت •

أما الغرض من ذلك الاجتماع في تلك الليلة القاسية فهو وضع منهاج خطة محكمة لاسقاط الوزارة القابضة على زمام الامور آنذاك • وقد كانت الاحوال السياسية حينذاك اقل شدة ، ورجال السياسة أكثر حرية مما هم عليه الآن • وان اجتماعا كهذا حرى بأن يلقى اعضاءه في السجن في هـذه الايام • اما في ذلك الوقت فلم تكن لتعبأ بمثله الحكومات •

وبدأت المناقشة واشتد الحوار ، وكان الكل مجمعين على امر واحد هو ان يكون كل المجتمعين متضامنين متكـاتفين في العمـل ، ومساهمين في الأرباح والخسائر ، في النتيجة • وكان قوام المجتمعين ثمانية من الرجـال

الذين اشتركوا في عدة وزارات ، قد جمعتهم نكبة واحدة هي انهم جميعاً خارج الحكم ، واربعة من الشبان ينتمون الى ارقى العائلات البغدادية واقواها ، وانا ، وكنت الوحيد الذى يحمل شهادة عالية من بينهم ، وصحافيان احدهما توما الذى مر ذكره ، وما لا يقل عن ثمانية من الشيوخ والزعماء ، بعضهم اعضاء في المجلس النيابي يريدون الاحتفاظ بمراكزهم النيابية في الحكومة القادمة ، وبعضهم نواب سابقون •

وتقاسمنا العمل الذى كان ينحصر في الامور الآتية :

١ ـ تنظيم مظاهرات عدائية يقوم بها التلاميذ والشعب في بغداد والمدن العراقية المهمة الاخرى التي فيها مراكز للحزب •

٢ ـ تخصيص جريدتى البرهان والعلم لمهاجمة الوزارة بدون هوادة ، وتشويه اعمالها ، مع وصف المظاهرات والاشادة بها بفصول مطولة •

٣ ـ يقوم الشبان ، وكلهم كتاب ، بنقد الحكومة من الوجهة العلمية والفنية والقانونية لزيادة التأثير وتقريب النتيجة •

٤ ـ يزور اصحاب المعالى الوزراء السابقون ، ومعهم بعض الشيوخ ، جلالة الملك فيعرضون سوء الحالة عليه ، ويقنعونه بوجوب التدخل وارغام الوزارة على تقديم استقالتها •

٥ ـ تنظيم حملات عنيفة في مجلس الاعيان ومجلس النواب ضد الحكومة أيضاً •

وبعد ان تمت هذه القرارات أقسم الكل يمين الاخلاص لها ، واقسموا على القيام بالواجبات الملقاة على عاتقهم ، والتضامن في ذلك حتى النهاية مهما كانت العواقب ، وأبدى البعض من الحاضرين حماسا فائقا ، وهو يحلم بالمنصب الموعود والراتب المنتظر ، وما كان حماسهم الا كحماس البدوى عندما يغير على قبيلة معادية ، وهو يحلم بالغنائم والاسلاب •

وكنت حتى تلك اللحظة ملتزما جانب الصمت والاصغاء ، فلم اشترك في الحوار ، ولم أسال عن نصيبي من الغنيمة ، وبذلك جعلت الجميع يعتقدون بأن الدافع لى على الاشتراك في تلك المؤامرة ليس الا حب الخدمة ، وايجاد جو طلق استطيع ان اعمل فيه ، واطبق ما تعلمته ، ولهذا كان الجميع ينظرون الي نظرة احترام يشوبها شيء من العطف والرغبة الاكيدة في المساعدة •

وقبل أن تنتهى تلك الجلسة تناولنا سيرة كل رجل في دست الوزارة ، وكل نائب يعاضدها ، وكل موظف كبير يقف الى جانبها ، بالتشريح والتشهير • وبدأنا برئيس الوزارة فلم نغفل عن كل ما قام به ، وما يشاع عنه من يوم ان كان صغيرا حتى تبوأ ذلك المنصب ، فحاسبناه على اعماله الصبيانية يوم كان صبيا ، وعلى سيرته في عهد الطفولة ،ورددنا جميع الاكاذيب والفضائح التى كانت تروى عنه ، وقارناها باعماله وسلوكه في الوقت الحاضر لنخرج بنتيجة واحدة هي ان هذا الرئيس فاسد من (البيضة) •

وفعلنا بالباقين ما فعلنا بالرئيس ، وكانت النكات تصاغ على حسابهم ببراعة وحذق ، وكان بين الحاضرين من مهر في هذه الصنعة الى حد الاعجاز، وبدأت عاصفة من الضحك والشماتة والتشفى ، قاسية مرة ، ليست قساوة الجو في الخارج على الاجسام والابدان بأقل من قساوتها على النفوس والارواح • وعلى الرغم من شدة ولعى بالشغب ودراسة فنونه ، فقد وجدت في تلك الاحاديث السوقية ما تشمئز منه النفوس ، فقد كانت بعض تلك الاحاديث والقصص عن هؤلاء الخصوم مقذعة عفنة قد صيغت ورتبت بعد جهد وتفكير ، وكانت المجازات المستعملة خلال تلك الجلسة تدل كلها على ذكاء حاد ، ورغبة ملحة في الشر ، وعدم وجود حدود يتهيب الحاضرون تعديها او مقاييس يخافون من استعمالها ، فهاجموا اعداءهم في اعراضهم وفي بيوتهم، وفي انسابهم ، وفى سيرهم ، وفي كل شيء •

اما انا فقد كنت احاول جهد المستطاع ان اخفى اشمئزازى ونفورى ، واقلد بعض كلامهم الذى لما احذقه ، وذلك لكي استميلهم الي ، واولد في نفوسهم العطف علي • ثم سقت الحديث بمهارة وحذر الى التكلم عن رئيسى مدير الزراعة العـام •

وكان اول المتكلمين عنه رجل كث اللحية ، لاذع اللهجة قوى الشكيمة، يتكلم بفصاحة وقوة مؤثرة ، ولكنه لم يكن مقذعاً • فبدأ بسيرته في الدائرة، وانهال عليه نقداً وتجريحاً دون ان يجد من يشك فيما يقول ، أو يطلب منه ايضاحاً واثباتاً • واعقبه آخر سليط اللســان ، ماهــر في صياغــة النكت والتهريج ، فتناول زوجته واهله واولاده وبناتــه ، فروى عنهــم الاشاعات العجيبة بلهجة سوقية ، واتى بشواهد ودلائل تشير كلها الى ان هذا الرجل لا يستطيع ان يحكم بيته فكيف يكون في الامكان أن يدير مصلحة مهمــة كهذه الدائرة ؟

واعتقد انني كنت موفقا جدا في تلك الجلســة ، فقــد جعلت الجميع يتكلمون عن رئيسي ويهاجمونه دون ان يشعروا بالمحرك الخفي لذلك الحديث، والدافع اليه • وعندما اوشكت سيرته ان تنتهى بدأت بحديث عويص ، لم يفهمه اغلب الحاضرين ، عن الزراعة والفنون الزراعية الحديثة ، وعن حالــة الزراعة عندنا وتأخرها ، واعدت على مسامع الحاضرين كل ماوضعت من اقتراحات وخطط كنت قد اذعتها في الصحف سابقا ، والتى كنت كلما اعدتها وجــدت المستمعين يتقبلونها كشيء جديد ، وكأنهم غير مسبوقين بها • وهكذا كنت اثير في كل يوم جبهة جديدة امام رئيسى واخلق له اعداء جددا ، حتى ايقنت ان نهايته ستكون حتماً على يدى • ومن ذلك الوقت بدأت اعتقد ان مستقبلى قد وضع على اساس متين ، وانى ساقفز الى المنصب الذى احلم به بعد وقت وجيز واتى دور البحث في الاختصاص ، فاندفعت اتكلم بلباقة وفصاحة عن وجوب احترام الشهادات ، وتقدير الكفاءات ، وقد استولى الحديث علي

حتى أنسانى الحذر ، فغفلت عن انى كنت بذلك الحديث اهاجم كل الحاضرين تقريبا . اذ لم اضع قيمة في الدنيا لغير ذوى الشهادات العلمية . مع ان كل الحاضرين لا يحملون غير شهادات عسكرية من المدارس العثمانية.

وكان اول من انتبه الى شططي في الحديث رجل لم يناهز الاربعين ، وسيم الطلعة تلوح امارات الذكاء وشدة الانتباه في وجهه وعينيه فقال : « لقد نسيت ، يا دكتور ، ان اغلب وظائف الحكومة والكبيرة منها بصورة خاصة تحتاج الى اطلاع واسع في الاوضاع السياسية والاجتماعية للبلد اكثر مما تحتاج الى الاختصاص ، فالوظائف الكبيرة هي وظائف سياسية اكثر منها فنية ، ولا يستطيع الانسان ان يقوم باعباء منصب كبير لمجرد حصوله على شهادة عالية ، بينما يكون في استطاعة من مارس الحكم امدا طويلا ان يقوم باعباء منصب كبير مهما كانت درجته العلمية . واذا جمع الانسان الكفاءة العلمية الى الخبرة العملية اصبح اعظم الرجال ادارة . وليس من الرجال من تتوفر فيه كلتا الميزتين الآن ، فلدينا اختصاصيون لا يفهمون شيئاً من السياسة وحقيقة الاوضاع ، ولدينا سياسيون لا يفهمون شيئاً من الامور الفنية ، فالحكومة الحازمة من جمعت بين النوعين ، وفى رأيى ان يخلق لكل وظيفة كبيرة سكرتارية فنية ، فالى مدير الزراعة العام يجب أن يكون سكرتير الزراعة او المستشار الفنى ... وهكذا . »

الفصل الخامس

لقد سقطت الوزارة

« كلما انهار جزء مـن البناء تعالى الركام واقتربت من القمة »

بعد ما يقارب الشهر من تاريخ تلك الليلة ، وبعد عدة اجتماعات وعدة مؤامرات ، جاء النبأ بسقوط الوزارة وتشكيل وزارة أخرى جديدة •

ونشر توما الخبر في الصحيفة الاولى من جريدته الى جانب صور اعضاء الوزارة الجديدة • وابدل المصورون البارزون في شـارع الرشيد الصور المعروضة في واجهات محلاتهم الزجاجية ، فوضعوا تصاوير اعضاء الوزارة الجديدة مع رئيسها محل القديمة وابيضت وجوه واسودت وجوه ، فامـا الذين ابيضت وجوههم فكلهم من اصدقاء واقارب اعضاء الوزارة الجديدة ، واما الذين اسودت وجوههم فكلهم من اقارب واصدقاء الوزارة القديمة •

واستعد جميع الموظفين في دوائر الدولة ، كبيرهم وصغيرهم ، للسفر والتحويل ، وتهيأ العاطلون لاحتلال مناصب جديدة ستخلق لهم خلقا • اما أنا فقد اخذت الاهبة لتسلم مركز مديرية الزراعة العامة بعد طرد الرئيس القديم، وشعر جميع موظفى الدائرة بان مركزى ونفوذي قد قويا بالوزارة الجديدة، فاخذوا يتملقوننى ، ويلتفون حولى ، ويكثرون من الشغب على الرئيس القديم امامى ، ويتمردون على اوامره ، ويعلنون العداء والعصيان •

أما اعضاء الوزارة السابقة فقد شرعوا يتخذون الاهبة ليكونوا مخلصين ووطنيين من جديد ، يغارون على مصالح البلاد ، ويراقبون اعمال الوزارة الجديدة ، او بالاحرى اغلاطها التي هي عبارة عن كل اعمالها ، واخذوا يجمعون حولهم المتآمرين والمشاغبين والمبعدين والمطاردين من الموظفين • وفي صباح تشكيل الوزارة الجديدة ارتديت ملابسي الرسمية الانيقة ، وقصدت مجلس الوزراء لاهنىء الرئيس مع المهنئين ، واشم الاخبار ، غير ملتفت الى دوام رسمى او واجبات اخرى •

وعندما دخلت غرفة الرئيس ، التى كانت مكتظة بالزوار والمهنئين من مختلف الطبقات ، نهض لاستقبالى ، وابدى من الارتياح لرؤيتى ما ملأنى زهواً وفخرا ، وجعل جميع الحاضرين يرمقونني بعين الحسد والمقت ، واجلسنى في اقرب مجلس اليه ، وأقبل عليّ بالحديث ، وقد القيت اليه بعبارة التهنئة التى كنت احضرها في ذهنى طوال الطريق فقلت :

« يا صاحب الفخامة ، انى لاهنئكم على ثقة الشعب بكم بقدر ما اهنىء البلاد على القائها مسؤولية الحكم على عاتقكم ، فقد احسنت الاختيار ، وسترى من الخير والرفاه على يدكم ما لم تحلم بمثله سابقاً • ان رجلاً مثلكم يقدر العلم والعلماء والاختصاص هو اول رجل من نوعه تقلد زمام الحكم في هذه البلاد ، وانى لاهنى نفسى ايضا ، واهنىء جميع المثقفين الغيورين على مصالح البلاد » •

وقد اجابنى الرئيس بالشكر وهنأنى بدوره على قرب تحقيق مشاريعى وخططى الزراعية ، وطلب منى ان اعتمد عليه ، واطلب منه أية خدمة في هذا الباب ، وما عليّ الا أن آمر حتى تنفذ أوامرى على الفور •

وشعرت بعد ذلك الحديث بان كل شيء قد تم ، وانى قد خطوت خطوة واسعة جبارة ، وان الامر الادارى بتعيينى مديرا عاما للزراعة سيصدر عن

قريب • وكنت واثقا من ذلك الى حد انى كدت اسمى نفسى الدكتور ابراهيم بيك مدير الزراعة العـام •

وقطع سلسلة تلك الاحلام اللذيذة دخول سـعد الدين بيك ، وهو ضابط قديم متقاعد من اصدقاء الرئيس المخلصين ، ومن المنتمين الى حزبه ، فنهض الرئيس محتفيا واجلسه بجانبي ، ثم سأله سؤالاً غامضـا لم ادرك القصد منه في اول الامر حيث قال : « وعلام قر قراركم ايها البيك ؟ »

فتبسم البيك واجابه : « ليس في استطاعتى ان ارد طلبا او امتنع عن التعاون معكم ، وكيف استطيع ان ارفض طلباً لاعز مخلوق عليّ ؟ »

فقهقه صاحب الفخامة ، ونظر نحوى وقال : « اذن فقد افلحت في تدبير هذه المفاجأة البديعة للدكتور ابراهيم • ايها الدكتور ، اقدم لـك رئيسك الجديد ، ومن على يده ستتم اعظم مشاريعك واقتراحاتك ، وهو أقوى وأحزم رجل ادارى في هذه المملكة • »

وشعرت كأن صاعقة قد انقضت عليّ ، وبقيت مدة من الزمن مبهوتاً انظر الى هذا الاحمق البليد الذى اغتصب منى اعظم ما كنت اصبو اليه ، وحطم احلامى ، وخفت ان تظهر امارات الكره والحنق عـلى وجهـى ، فاصطنعت ضحكة جوفاء وأجبت مجاملاً : « حقاً ، انها مفاجأة عجيبة لا يمكـن ان يدبرها الا عقل مبتكر كعقل صاحب الفخامة » •

كان الرجل صاحب نظرية الاختصاص والخبرة حاضرا ، وقد ادركت انه كان الوحيد الذى ادرك ما جال في نفسى ، فوددت لو كان باستطاعتى ان اخنقه ، وكان يبتسم ابتسامة ذات معنى ، ومما زاد في حنقى قوله : « لـو كان للدكتور ابراهيم خبرة عملية لكنت اعده احسن مدير لهذه الدائرة ، ولكن خبرته السياسية والعملية في أول درجات نموها » •

وأضاف صاحب الفخامة : « لهذا اخترنا له امهر واحزم سياسى • ففى هذه الدائرة سيجتمع مدير قدير مع رجل فنى خبير ، فلنا ان نعد مديريـة الزراعة اذن أعظم مديرية في المملكة » •

ولم احتمل الجلوس اكثر من هذا ، فاستأذنت بعد ان وعدت صاحب الفخامة والمدير الجديد باجتماع في دار الاول ، حسب طلبه ، لتناول العشاء على مائدته ذلك المساء ، والمداولة في بعض الشؤون الخاصة في جو هادىء •

وقصدت الدائرة بعد خروجى وأنا احرق الارم • ورأى الفراش طلعتى المرعبة ، فظهرت امارات الخوف على وجهه ، وتلعثم في الجواب عندما سألته : « هل المدير العام في دائرته ؟ »

ودخلت على المدير ، فرأيته مكباً على عمله بكل هدوء ونشـاط فقلت لنفسى : « ترى اعلم هذا الاحمق ما حل به ؟ » ولم اتمالك ان سـألته : هل بلغتكم التغيرات الجديدة التي حصلت في هذه الدائرة ؟ »

فرفع رأسه باسماً : « لقد كنت اعرفها قبل ان تسقط الوزارة بمـدة غير قليلة • فقد كنت اعلم ان رئيسك الجديد كان يحلم بها ، وهو من اعز اصدقاء صاحب الفخامة الرئيس الجديد ، وبهذه المناسبة اهنئك بزيادة راتبك فقد اصبح ستمائة ربية • »

وكانت مفاجأة خففت من مرارة الخيبة ، وعدت الى النظر الى وجه ذلك الرجل الذى عملت كل هذه المدة بنشاط لتحطيمه ، فلم افز باكثر من عـدد من الربيات شهريا فرأيته هادئا مرتاح البال ، وكان يبتسم ابتسامة ذات معنى، ولكنها غير شيطانية ، كابتسامة ذلك اللعين صاحب نظرية الخبرة والاختصاص• وقال بعد فترة : « ايها الدكتور ابراهيم ، انك تسلك مسلكا وعرا في حياتك، واخشى ان يحطمك حقدك ورغبتك الشديدة في الهجوم • لقد كنت مطلعـا على ما فعلته لمقاومتى وتشويه سمعتى ، وقد كنت تفعل ذلك بدعوى قلـــة

خبرتى الفنية ، وعظم اختصاصك ، ولكنى اسألك ، هل اتت الحكومة الجديدة برجل اختصاصى الى هذا المركز ؟ ان رئيسك عسكرى لا يفهم شيئاً من امور الزراعة ، فهل سعيت كل ذلك السعى لتصل الى هذه النتيجة ؟ هل تركت واجباتك الرسمية واعمالك التى كان يجب ان تقوم بها ، والتى بها فقط تستطيع ان تبرهن على انك رجل اختصاصى ، لكى يكون رئيس الدائرة رجلاً كهذا لا يفهم من امور الاختصاص شيئاً ؟ » •

فأجبته : « انه سيكون الرئيس الاسمى • اما انا فسأكون الرئيس الحقيقي ، فوضعى معه يختلف كثيرا عن وضعى معك • لقد كنا انا وانت مختلفين • اما الآن فانا والرئيس الجديد متفقان » •

وقهقه الرجل عاليا واجاب :

« ما أصح جوابك ! اجل ، لقد كنا مختلفين لانك تشتغل في السياسة ، وانا اشتغل في الزراعة ، اما الآن فانكما متفقان لأنكما ستشتغلان معا في السياسة ، وتتركان الزراعة في ايدى الموظفين الصغار • انى انصحك ايها الدكتور ابراهيم الا تكشف اعمالك لهؤلاء الموظفين ، لانك ان فعلت اهمل هؤلاء واجباتهم ايضا ، فتدهورت الدائرة الى الحضيض » •

فأجبته ساخطاً : « انى فى غنى عن نصائحك يا سيدى ، ـ فاستعملها انت في دائرتك الجديدة • وبهذه المناسبة ، هل لى ان اسألك اين ستكون رئيسا في هذه المرة ؟ »

فاجابنى : « كان بودى ان اعتزل العمل ، واتفرغ للمطالعة والدرس والتأليف ، ولكن الوزارة الجديدة تلح عليّ بقبول مديرية المعارف العامة وسأنظر في الامر » •

وكانت مفاجأة جديدة اذ ما كنت اعلم مطلقا ان هؤلاء الذين كانوا يكرهون هذا الرجل الى ذلك الحد ، يحولونه الى دائرة اهم من دائرته شأناً ، وبعين رتبته •

وسألته وانا بانتظار مفاجأة اخرى : « وهل زاد راتبك ايضا ؟ »

فأجابنى : « طبعاً » وشغلتنى الدهشة عن تهنئته كما تقتضى بذلك آداب المجاملة • وقلت ساخطاً هازئاً : « ان ما لديك من المعلومات ما يؤهلك لهذا المنصب دون شك ! » فأجابنى « ليس لدى شهادة عالية ، أيها الدكتور ، ولكن عندى صفة واحدة يستحيل ان تكون من صفاتك ، هى الرغبة في العمل ، والاخلاص للواجب ، والولع بدراسة كل شيء يقع بين يدى دراسة علمية • ولو احلت على المعاش فسأبدأ حياة علمية جديدة اعمل فيها بجد ونشاط ، في الدرس والتأليف ، ولدى من راتبى التقاعدى ما يكفيني لتربية اولادي ، فأكون بذلك بعيدا عن هذه المنغصات والمناظر المؤلمة • ليس في نيتي ان اشهد تدهور الاخلاق والسياسة عندنا الى النهاية • ان الامور هنا تتعقد شيئاً فشيئاً بتأثير المنافع الشخصية ، وستبكى البلاد يوماً على ما لا ترضى به الآن » •

الفصل السادس

قــانون جــديد

« هل القانون غير اداة بيد الاقوياء ، تخولهم حق السيطرة على الضعفاء ؟ واذا كان الامر كذلك ، فلماذا لاتحور هذه الاداة لتؤدي الغرض المطلوب منها تماما ؟ »

لم يدع صاحب الفخامة الى العشاء ذلك المساء غـيري وغـير رئيسى الجديد • وقد ذهبت الى ان صاحب الفخامة لم يدعنا لوحدنا الا لأمر هام • وقد شغلني التفكير بالغرض من تلك الدعوة ، عن الم حرماني من ذلك المنصب العظيم الذى كنت امنى النفس به ، وقد كان ظنى في محله ، فما كدنا نرتاح فوق مقاعد غرفة استقباله المريحة حتى امر صاحب الفخامة خادمه ان يجهز مائدة الشراب في ركن من الغرفة ، ثم ينصرف ويقفل الباب • وكان رئيسى الجديد اسرعنا الى مائدة الشراب ، فملأ كأسا مترعه ارتشفها ببضع رشفات ، ثم شرع يمزح ويثرثر عندما دب دبيب الخمرة في جسمه ورأسه ، وشـــاع الاحمرار في وجنتيه • أما الرئيس فقد اقتصد في الشراب • ولم اذق انا من الخمرة ، رغم الحاح الاثنين ، الا قدرا ضئيلاً ، فقد كنت بحاجة الى كل عقلى وحواسي ما دمت قد ايقنت ان وراء الاكمة ما وراءها •

وافتتح صاحب الفخامة الحديث فقال : « اما وقد احتللنا الوزارة فيجب علينا ان نفكر في اساليب المقاومة والدفاع ومطاردة المشاغبين والاعداء • انى ارى ان القوانين التى اتينا بموجبها الى الحكم تكفل لغيرنا ان يأتى اليه أيضا بنفس الطريق ، والطرق التى اتبعناها في الشعب يمكن ان يتبعها غيرنا ايضا ،

وان بقاء الاحوال على ما كانت عليه قبلنا لا يكفل لنا الاستمرار مدة طويلة لاكمال مشاريعنا العمرانية ، ففي سبيل الوطنية يجب ان نحدث حدثا جديدا في البلاد . »

وقفز سعدالدين بيك قفزة عسكرية وصاح : « يجب ان نكون اقوياء ، ويجب ان نضرب بيد من حديد ، يجب ان نستعمل كل ما لدينا من قوة لارهاب اعداءنا ، دون التفات الى كلام مغرض او انتقاد عدو . ويجب ان نعلن الحكم الدكتاتورى في البلاد . »

والتفت الي صاحب الفخامة متسائلاً : « وما رأى الدكتور ابراهيم ؟»

فأجبت : « يخطىء كثيراً من يظن ان الشعب هنا يتدخل بصورة فعلية في السياسة ، او يعيرها أدنى اهتمام . والحكم الديمقراطى عندنا صورى مشوه ، فاكثرية الشعب لا تفهم من كل ما تقوله الجرائد أو الاحزاب شيئاً ، ولكنهم قد يتكتلون وراء الاصدقاء والاصحاب وذوى اللباقة في الكلام ، ويسيرون وراءهم حتى القبر . ان أهم طبقة في البلاد هي طبقة الموظفين والملاكين والصحفيين ورجال السياسة ، فالذي يكفل معاونة كل هؤلاء او اخضاعهم يخلد في الحكم ، على ان يأمن جانب الانكليز ، ويكفل لهم مصالحهم . لذا يجب أن تدرس كل هذه النواحي درساً دقيقاً ، ويسن قانون يكفل السيطرة على هذه الكتل واخضاعها . »

وأجاب صاحب الفخامة : « رأى مدهش . انى لم اتوصل الى غير ذلك في كل مدة الحكم ، ولكنى اكثر منك خبرة بحقيقة الزعماء والصحافيين ، واكثر منك علما بأخلاقهم . ان اغلب الزعماء هنا ، بل كلهم تقريبا ، لايتصفون بصفات الزعامة الحقيقية ، اذ ينقصهم الذكاء والجرأة والتضحية ، فهم زعماء بالاسم فقط . أما الذين يلعبون دورا فعالا من ورائهم ، فهم طبقة الموظفين والصحفيين ، فهؤلاء هم الذين يحركونهم فيضعونهم على الكراسى ، ثم

يعودون فستبدلونهم بغيرهم عندما يجدونهم غير لائقين او قادرين على تنفيذ آرائهم ، وتحقيق مطامعهم واهدافهم » .

وأضاف سعدالدين بيك : « اذن ففى استطاعتنا أن نجعل الحكومة كتلة حزبية واحدة متجانسة تخدمها الصحافة وتدعو لها . »

فأجبت : « هو ما تقول أيها البيك ، ولكن يجب ان لا تنسى بأن التشريع يجب ان يسبق كل ذلك . اننا باسم القانون نستطيع أن نفعل كل شيء ، وبدونه لا نستطيع ان نعمل شيئاً » .

فقال صاحب الفخامة : « لك ان تقترح ماتريد من هذه القوانين وعلينا التنفيذ » .

فقلت : « نحن باشد الحاجة الآن الى طرد القسم الكبير من الموظفين ، وابدالهم بآخرين من ذوى الكفاءة ، على ان يكونوا من انصارنا ، وفي حاجة الى سد الصحف التى لا تتفق معنا ، وتقوية الصحف التي تسايرنا وتخدمنا . والقوانين التى بين ايدينا لا تكفل لنا السيطرة على الموظفين والتصرف بمقدراتهم . فيجب ابدالها او اضافة حاشية لها تعيننا على ما نريد ، وتمهد لنا السبل الى الخطوات الواسعة التى سنخطوها » .

فأجاب صاحب الفخامة : « هذا سهل ميسور ، ففى حزبنا الكثير من رجال القانون الذين باستطاعتهم أن يسنوا مثل هذهالقوانين التي بها سنطرد كل اعدائنا من الموظفين ، صغاراً كانو ام كباراً ، ثم نقضى على الصحف التى تناصرهم ، ونبدأ طرازاً في الحكم يختلف كثيرا عن الطراز المتبع حتى الآن ، فنكون قد جددنا أسلوبالحكم ، وارحنا الناس منعبث المشاغبين والمتصيدين وبعد ذلك نضع برنامجا واسعا لاصلاح البلاد وترقيتها . وبذلك نبرر كل ما عملنا ، ونثبت للملأ بصورة عملية فائدة هذه الطريقة ، ونريهم البون الشاسع بينها وبين الطريقة السابقة » .

فقال البيك : « علينا ان نقوى الجيش ايضا ونجعل له مظهرا فخما يملأ عيون الناس ، ويبرهن على قوتنا وعظمتنا » •

وقلت : « ولا تنس فخامتكم ان الشعب العراقى الساذج لا يفهم الجواهر بل تخدعه الظواهر ، فوضع برنامج طويل جدا للعمل يحوى كل ما تتوق اليه نفوس الناس يهمهم اكثر مما يهمهم تطبيق هذا البرامج ، فاقامة المعارض والمهرجانات تقنعهم بصدق نوايانا اكثر مما تقنعهم الاعمال المفيدة الهادئة ذات الاثر البعيد ، وكذلك وضع رجل اختصاصي ، في علم من العلوم او في فن من الفنون ، على رأس دائرة فنية يوحى الى الناس الاقتناع بصحة كل اعماله واجراءاته ، حتى ولو كانت عين الخطأ ، بينما وجود رجل لا يعلم الناس درجته العلمية على رأس الدائرة يوحى الى الناس عدم الثقة به ، والاطمئنان الى مشاريعه واعماله ، حتى ولو كانت هي عين الصواب • »

وقال صاحب الفخامة : « فلنفرض اننا استطعنا القيام بكل ما اقترحت ايها الدكتور ابراهيم من مشاريع وآراء ، فهل تكفل لنا الخلود في الحكم ، وتأسيس دولة دكتاتورية لايمكن ان تزعزعها قوة أخرى في هذه البلاد ؟ » •

فاجبت بحذر : « لا تنس فخامتكم ان في البلاد ملكاً • وفيها مصالح لدولة اجنبية لا يروق لها مطلقاً ان تقوم هنا دولة قوية عظيمة مهما كان نوعها ومهما كانت مبادؤها ، فالتفاهم مع هذه الدولة ونيل رضا صاحب الجلالة هما امران يجب ان يكون في مقدمة اعمالنا•والا فلا نجاح مطلقاً لكل مانقوم به • علينا ان نجذب نحونا كل المتنفذين والاقوياء في البلاد ، وعلينا ايضا ان ان نفهم عقلية البسطاء الذين هم الاغلبية الساحقة في المملكة لوضع الخطط التي تكفل ارضاءهم وتكسر مقاومتهم ، فلا يكون في امكان اعدائنا الاستفادة منهم •

ان صاحب الفخامة ذو صلة وثيقة بكبار موظفى الحكومة الانكليزية ، ولكن صلته دبلوماسية بحتة لا تكفل معونتهم • أما لو كانت صلته بهم صلة اخوية، او صلة صداقة ، او وليدة اشتراكه معهم في جمعية واحدة او ناد واحد ذى مبدأ معين ، لكان لهذه العلاقة شأن آخر • »

واعترض البيك ، وقد غاظه ان استبد بالحديث دونه ، واملك اسماع صاحب الفخامة الرئيس فقال : « انا اكره هؤلاء الانكليز الذين تتكلم عنهم باعجاب ايها الدكتور ابراهيم ، واعتقد اننا لا نستطيع ان نحوز ثقة الشعب اذا اعتمدنا عليهم ، ومددنا يد المساعدة لهم وطلبنا مشورتهم • اننا حكومة مستقلة ، ففي استطاعتنا ان نقوم ضمن هذا الاستقلال بما نريد القيام به من مشاريع وخطط ، وليس في استطاعة الحكومة الانكليزية معاكستنا • »

فأجاب صاحب الفخامة « لا تنس ان في نيتنا مقاومة الطامعين في الحكم، وفي نيتنا ان نقوم باعمال غير مشروعة بالنظر الى الدستور والقانون ؛ فاذا لم نأمن جانب الانكليز اتفق اعداؤنا معهم ، وشهروا الدستور في اوجهنا سلاحاً ماضياً يحطموننا به • »

فقال البيك مسلماً : « اذن فما العمل ؟ وكيف يمكن ان نحصل على هذه الثقة الاخوية التى يتغنى بها الدكتور ابراهيم مع موظفى الانكليز الكبار هنا ؟ » •

فاجبته : « ان موظفى الانكليز في كل بلاد العالم هم كغيرهم من البشر، لهم آراء خاصة لا علاقة لها بالوظيفة ، ولهم مبادىء يدينون بها ، ولهم نواد وجمعيات تضم الناس من مختلف الطبقات والشعوب ، واظنكم لم تسمعوا بجمعية البنائين الاحرار (فريمسن) تلك الجمعية الحرة الانسانية التى وضعت لمقاومة الظلم والاضطهاد وتقويم الاخلاق • ان اعظم رجال الانكليز العظماء هم من المنتمين الى هذه الجمعية ، واعتقد ان المندوب السامى الحالى ، وكبار

موظفيه من اعضائها ايضا ، ومبادىء هذه الجمعية تفرض عـلى اعضائها ان يتعاونوا دائما ، ويشد بعضهم ازر بعض في كل الظروف والاحوال • »

ولم الاحظ ان صاحب الفخامة كان يبتسم ابتسامة الرضى اثناء حديثي، ولم يلبث ان قال : « ومتى تنوى الانتماء الى هذه الجمعية ايها الدكتور ؟ » •

فاجبت : « عندما تنتمى فخامتكم » فقال ضاحكاً : « انى عضو فيهـا من زمن بعيد ولى رتبة لا بأس بها • فاذا رغبت الانتماء فسأساعدك ، واقدمك الى (اللوج) البغدادى ، وسأجد من يزكيك •

اما سعدالدين بيك فيدخلها معك • وانى اكفل انضمام كـل اعضـاء الحكومة وموظفيها الكبار الى هذه الجمعية ، فاطمئن من هذه الناحية • »

فقلت متملقاً : « ارى ان صاحب الفخامة قد قطع شوطاً بعيداً في هذه المشاريع التى ينوى القيام بها ، وانى متأكد بان رجلاً يحمل مثل هذه العقلية، وله مثل هذا الحزم ، والنظر الثاقب ، سيكون له شأن يذكر في مستقبل الامة العراقية ، وربما لا يمضى وقت حتى ارى فخامتكم دكتاتوراً عاملاً كموسلينى مثلاً ، ينهض بهذه الامة نهضة مباركة ، ويخلد له صحيفة في تاريخها » •

الفصل السابع

خطة جديدة مع الرئيس الجديد

« اذا كان لابد من احتمال هذا الصنم ، فسأعرف كيف اظهر حقيقته للملأ ، واجعله سخرية للناس ، وعبرة لمن يعتبر »

بدأت العمل في منصبي الجديد تحت امرة هذا الرجل العسكري البليد، الذي اغتصب منصبي وبدد احلامي ، فشمرت عن ساعد الجد ، وعملت بهمة ونشاط ، ولم يكن عملي ذا علاقة بالزراعة والفنون الزراعية كما يفهم منه، بل كان عملا سياسيا بحتا ، يتناول موظفي الدائرة ورئيس الدائرة ، وسياستها • لقد اشتغلت بتطبيق القانون الجديد الذي اقترحت على صاحب الفخامة ان يسنه ، ففصلت من الدائرة كل انصار المدير السابق ، دون التفاوت الى الكفاءة والاخلاص ، وفصلت كل اولئك الذين يتباهون بمقدرتهم على العمل ، فتدفعهم كبرياؤهم واعتزازهم بأنفسهم الى رفض الخضوع المطلق والطاعة العمياء للرئيس ، واني لاعتقد ان في استطاعة كل انسان ان يقوم بالواجب الملقى على عاتقه ، بعد قليل من المران ، باخلاص مهما كان غبياً او بليداً ، فليس من الحكمة ان نفضل المتصلب المتعجرف على المرن سهل الانقياد ، الذي يكون عادة اطوع من البنان وآمن من الكلب ، وقد ربطت جميع الموظفين بي بصورة رسمية وغير رسمية ، ساعدني على ذلك شعور هؤلاء بقوتي الجديدة المطلقة ، فشرعوا يقدمون آيات الولاء والاخلاص ، الا اقلية ضئيلة اكتسحهم قانون الذيل بجرة قلم ، دون سؤال ولا جواب ، ولا محاكمة ولا اجراءات ،

وبدون وجود أمل في الاعتراض ايضا • ولم يبق في كل تلك الدائرة من يشك بان الدكتور ابراهيم صديق صاحب الفخامة ، وصاحب الكلمة النافذة عند البيك (المدير العام) هو الكل في الكل في تلك الدائرة • وحينذاك بـدأت بوضع برنامج طويل لاصلاح الشؤون الزراعية التي لم تلاق من الاخلاص والاهتمام شيئاً في عهد مديرها السابق ، وامتلأت اعمدة الصحف بتلك المناهج، ونشرت أغلب الصحف التى أصبحت حكومية بحتة ، تصويرى مع تعليـق مسهب على اعمالى والاصلاحات التى ادختلها على الشؤون الزراعية •

ولم أنس خلال تلك الفترة بأن هذا الرجل الغبى الذى اغتصب منى منصبى يتمتع بثمرة الجهود التى سأقوم بها ، فلم اعمل اكثر من قرن اسمى بكل خطوة من خطوات العمل ، بشكل يشير الى اننى أنا القائم بكل تلـك الاعمال • ولما كان الرجل مسؤولاً عن الدائرة من الوجهـة الادارية فقط ، نصبت له فخاً وقع فيه بسهولة ما كنت احلم بها • كان الرجل يثق بى ثقـة عمياء ، وينفذ كل ما اقترحه دون تمييز بين ما يدخل ضمن نفوذى او يتعداه ، فاصبحت بذلك المتصرف بكل شؤون الدائرة ، فوضعت تحت امرته اكسل الكتاب ، وأقلهم شعوراً بالمسؤولية واحتراماً للواجب ، وشددت في كـل الامور صغيرها وكبيرها ، مدعياً ان هذه الشدة ضرورية من الوجهة الفنية ، ثم وضعت نظاماً أمنع به بعض المزارعين من زراعة أنواع خاصة من المحاصيل، وتركت لهم المحاصيل التى تكفل خرابهم اقتصادياً ، وفرضت عليهم واجبات ثقيلة لا قيمة لها من الوجهة الفنية ، ولكنها تكفـى لاثـارة روح السخط والتذمر • وكان رئيسى المسكين ينفذ ما اطلبه منه بكل صرامة وشدة ، وهو فخور بقوته وصلابته •

ولم تمض على تلك التدابير مدة من الزمن ، حتى ظهر الارتباك جليـاً في دواليب الاعمال في الدائرة العليا ، وتبعتها ضجة عظيمة من ناحية المزارعين وأصحاب الاراضى ، وكان أغلبهم من ذوى النفوذ ، وممن لا يستهان بقوتهم،

ووجدت الوزارة نفسها فجأة امام زوبعة تهددها ، رغم كل الاحتياطات التى اتخذتها ، بالسقوط ٠

وارسل صاحب الفخامة ورائى وسألنى عن معنى ذلك الارتباك والاستياء ، وكان قد بحث مع رئيسى في ذلك دون جدوى ٠

فقلت له باسماً : « انى غير مسؤول ، يا صاحب الفخامة ، عن الدائرة الا من الوجهة الفنية ٠ وأمامكم ٠ منهاجي وارشاداتى يمكنكم ان تدققوها ، وتحاسبونى على كل صغيرة وكبيرة فيها ، ولقد نسبتم ان تعينوا للدائرة مديراً حازماً ، وفعلتم ذلك لانقاذ الدائرة من الفوضى الادارية التى كنتم تخشون ان اسببها نظرا لقلة خبرتى وتجاربى ٠ وقد قبلت حكمكم ، ونزلت عند رغبتكم ، واستمعت لنصائحكم ، فلم اتدخل في الادارة مطلقاً كما ترون ، فاذا كان حدث شيء مما تذكرون بعد كل هذا ، فارجو ان تسألوا عنه المدير » ٠

وكان في كلامى اشارة لم تخف على صاحب الفخامة ، ومع انه لم يرتح لها ، ولكنه وجد نفسه امام الامر الواقع ، اذ لابد له من القيام بما يكفل له ازالة هذا الارتباك الذى سبب مثل تلك الازمة ٠ وقد سألني عن سياسة المدير فاجبت ان سياسته قوية حازمة ، ولكنها شديدة بدرجة لا يحتملها الناس بعد ذلك التراخى الذى الفوه في عهد المدير السابق » ٠

ولم يعلم صاحب الفخامة ان تلك الشدة كلها كانت لتنفيذ سيل الاقتراحات التى انهلت بها عليه ، بعد ان اكدت له ان الدائرة لا تتقدم بدونها بتاتا ، وانه لولا تلك الشدة لافلت الرئيس من ذلك الفخ الذى نصبته لاصطياده ٠

ولما عدت من مقابلة صاحب الفخامة دخلت غرفة البيك ، وشرعت اطرى أدارته الشديدة الحازمة ، ثم حملت حملة شعواء على اولئك الذين

لا يحبون الاصلاح ، ويتذمرون من كل تجديد ، وقلت : « ان مثل هـذه الصرامة ضرورية لكل دائرة من دوائر الحكومة على اختلافها ، ولما كان وجود امثالكم من العباقرة والمصلحين نادرا قليلا ، ففى استطاعة الحكومة ان تقسم اوقاتكم بين الدوائر المختلفة في الدولة ، لتنال كل دائرة نصيبها من حزمكم وصلابتكم • »

وقد كانت رميتي تلك صائبة تمام الاصابة ، فقد اجابنى ذلك الاحمق المغرور بان صاحب الفخامة قد ذكر شيئاً مما ذكرت ، وادعى ان دائـرة الاشغال العامة في حاجة ماسة لمثل هذه الصرامة والقوة لاصلاح ما فسد من شؤونها ، وقد طلب منه ان يساعده في اصلاحها ، فوعده خيراً ، لذلك قد يكون امر تحويله الى مديرية اخرى قريباً •

وابرقت اساريرى وسألته : « ترى من سيكون المدير الجديد في هـذه الدائرة » •

فأجابنى « لو اردت الحقيقة لما كان هناك من هو جدير باشغال هـذا المنصب غيرك ، فقد تمرنت خلال هذه المدة القصيرة على الاعمال الاداريـة ، واتقنت اساليبها ، لذا سأقترح ان تدمج الوظيفتان بوظيفة واحدة ، فتكون انت المدير العام والمستشار الفنى في ذات الوقت • وقد تباحثت مع الوزير في هذا الامر ، فايد وجهة نظرى ، وقرر ان يرفع اقتراحا بذلـك الى مجلس الوزراء • واعتقد ان امر تعينك مديراً عاماً للشؤون الزراعية قد بات في حكم الواقـع » •

واجبت البيك بما يناسب المقام ، واكدت له بان خروجه من الدائـرة خسارة عظمى ، وانى اشكر الظروف الذى ستبقيه قريباً منى ، وفي دائرة لها علاقة كبرى بهذه الدائرة ، ليكون في الامكان الاستفادة من مواهبه وتجاربه في كثير من الامور • »

ولم اقف عند ذلك الحد ، بل أسرعت بنشر تلك الاشاعة ، التى لم يبت فيها بعد ، في كل الاوساط السياسية ، وكل الجرائد ايضا ، لكي يكون امر تحقيقها سريعا ، وفي غداة ذلك اليوم نشرت الجرائد اشاعة تحويل سعدالدين بيك الى مديرية الاشغال ، بعد ان اكمل النواقص الادارية في مديرية الزراعة، وان هنالك اشاعة مؤداها تعيين الدكتور ابراهيم في هذا المركز الجدير به ، فهو العالم النحرير ، صاحب اعظم شهادة فيالفنون الزراعية الحديثة ، وتمنيت ان تتحقق تلك الاشاعة ، وان يعطى القوس باريها • »

وتنبأ بعض الموظفين في دائرتى بقرب تعييني مديرا عاما ، فأسرع بعضهم ينشر مقالات اضافية في بعض الجرائد المهمة عن الاصلاحات التى ادخلتها على الشؤون الزراعية ، وذكروا ارقاما واحصائيات لم أعلم انا نفسى بها ، ولم أجد من الحكمة ان أسألهم عن حقيقتها طبعا ، بل هنأتهم على مقدرتهم في الكتابة ، والبحث في شؤون الزراعة ، واملتهم خيرا ، بعد ان اكدت لهم ان الدائرة ستستفيد من مواهبهم تلك • وبعد يوم واحد أتاني امر ادارى لم اشك مطلقا في مضمونه قبل ان افضه ، وكان يحوى امر تعييني مديرا عاما للزراعة خلفا للبيك الذى انتقل الى مديرية الاشغال العامة•

ولم أكد انتهى من قراءته حتى رن جرس التلفون ، وسمعت صوت صاحب الفخامة يهنئنى ، ويؤكد لى بنبرة فيها خبث كثير ، بأن الدائرة سوف لا تكون عرضة لهجمات الناقدين والمتذمرين بعد الآن •

ودخل بعد ذلك موظفو الدائرة فهنأونى واحدا بعد واحد ، واوجههم تطفح بشرا وتفاؤلا •

وانتشر الخبر ، فانهالت التهنئات والتمنيات من جميع الذين لهم علاقة مباشرة بوزارة الاشغال ، وبدائرة الزراعة بصورة خاصة ، اما اصحاب المصالح فقد ملأوا دائرتي مدة اسبوع كامل دون ان يتركوني اخط حرفا واحدا او اقوم بعمل من اعمال الدائرة الرسمية ، مما اضطرنى الى أن أكل

كل الاعمال المستعجلة الى أحد الكتبة ، بعد أن اوصيته بالحـذر ، واعطيته (كليشة) تحمل اسمى ليوقع بها الاوامر الادارية المستعجلة •

اما بيتى فقد اصبح كعبة الزوار المهنئين مدة اسبوع تقريبـاً ، فأمـه اقارب الموظفين ، والموظفون انفسهم مع بقية الزوار المهنئين • وقد وجدت الموظفين يطيلون الجلوس ويتكلمون كثيرا ، ففتحت اذنـى لكـل اقوالهم وفتحت صدرى لاقتراحاتهم ، وبذا استطعت ان اسمع شـغبهم واغتيابهـم بعضا لبعض ، وفضح اعمالهم • وافشى بعضهم اسراراً تافهة او مهمة • وبعد نهاية الاسبوع احطت علما بكل ما قيل في الدائرة مدة وجودى فيها ، وعرفت من انتقدنى او مدحنى ، واحطت علما بكل ما قيل ونفذ في تلك المديرية ، فلم تبق صغيرة ولا كبيرة الا احصيتها ، وكنت أشجع الخبثاء على الاستمرار في هذا الشغب ، فكانوا يزيدون ويزيدون • وقد فضح بعضهم مؤامرة دبرت للكيد لى ، وفضح آخر أحد الموظفين الذين استغربوا أوامرى وارشـاداتى الفنية غير الضرورية ، والتى احدثت تلك الضجة في وزارة الزراعة ، وقالوا عنها بأنها متقصدة من الدكتور ابراهيم لطرد المدير الجديد واحتلال محله •

وقد اخذت تلك الاحاديث بنظر الاعتبار ، فقد ادركت أن الانسان قد تفتضح نواياه مهما حاول سترها ، وشكرت هؤلاء المشاغبين من كل قلبى ، فقد ارشدونى الى أمر لم أكن لأعيره شيئاً من الاهتمام قبل ذلك •

الفصل الثامن

في القمة

« هأنذا في قمة البرج ، رفيعا لا تصل الي الايدي ،
منيعا لا يقتحمني الاعداء ، ولا يجرؤ على مناواتي منافس »

هأنذا قد بلغت القمة ، فعلى ان أضع خطة محكمة للاحتفاظ بهذا المركز الذى توصلت اليه بعد جهد جهيد ومتاعب جمة • عليّ ان احيط نفسى بسور يمنع عنى كيد الكائدين ، واضع منهاجاً لتحطيم آمـال الذين يحاولون ان يقتربوا من مركزي ليغتصبوه منى • وقد كنت مطمئناً بعض الشيء الى عدم وجود من يؤمن بفلسفتى ليستعمل عين الطرق التى استعملتها ، وينسج على منوالى • ولكن سوء الظن من حسن الفطن كما يقول المثل ، اذن فلأفترض المستحيل واعتقد بوجود من له مثل هذه القابلية ، ولكى اقاومه يجب عليّ ان اهدم الطريق الذى سلكته ، واضع حجر عثرة في كل خطوة منه • وكان اول ما فعلت لهذا الغرض ان قسمت موظفى الدائرة الى قسمين ، وكلفت كل قسم من هذين بمراقبة القسم الآخر ، وافهمته بأنى اوليته ثقتى دون الاخر ، وبذلك احصيت على كل موظف كل اعماله وأقواله وسجلت عليه عددا كبيرا من الاغلاط لكى استعين بها عند الحاجة لتهديده ، ومنعت كل الموظفين منعا باتا من الاتصال برجال السياسة ، والكتابة في الصحف ، وكنت الوح لهم بقانون الذيل كلما رأيت بادرة تشير الى العصيان والمقاومة •

اما فيما يخص الضجة التى قامت في عهد المدير السابق فقد اخمدتهـا وارضيت كل المتذمرين ، ولم يكلفنى ذلك اكثر من تمزيق الاقتراحات التي

قدمتها الى المدير السابق ، والعمل بخطة معاكسة تمام المعاكسة ، ولم اجد من يجسر على ابداء اى ملاحظة تخص هذا النكوص العجيب ، وكم كانت غبطة صاحب الفخامة واعجابه بى عندما رأى جميع رؤساء الاقطاع والمتنفذين يثنون عليّ ثناءً عاطرا ، ويمتدحون سياستي ويشيدون بذكر اصلاحاتى واعمالى .

واما الجرائد والنقاد السياسيون فقد قدمت لكل منهم فائدة تتناسب مع قوة مركزه وقوة جريدته ، فلم تلبث الجرائد أن شرعت تملأ الاعمدة ، بالمقالات ، تطرى اعمالى وتبث الدعاوة لى وتذم المدير السابق عدوى ، وتلعن عهده .

والتفت بعد كل ذلك الى وجوب جر المغانم المادية من هذا المركز ، وجمع اكبر عدد ممكن من الدنانير والارباح لازداد قوة ولاجمع ثروة اعتمد عليها اذا نزل الزمان بي يوما ، فما لا اثق باحد ، فلماذا اثق بهذا الزمان المتقلب ؟

وكان اول من نبهنى الى الاستفادة من مركزى دون تعرضى للمسؤولية القانونية شيخ من شيوخ الاقطاع يملك مساحات شاسعة من الارض الخصبة لا تصل المياه بعض اقسامها لعظم مساحتها . فطلب منى ان اشق جدولا لاحياء القسم الباقي منارضه ، فراقلى ان أمنّ عليه ، واجبته بأن مقدار المياه لايكفى لارواء تلك الارض ، فأجابنى بأن في الامكان أن اقطع المياه او اقللها عن بقية الاراضى غير المهمة ، ثم اشار ملمحا الى سعة اراضيه مما يجعل أمر ادارتها عسيرا ، وعاب على عدم وجود ارض في حوزتى اجرى فيها تجاربى واعلن لى بأنه مستعد لبيع قسم من أرضه ، فاذا رغبت فسيتساهل معى كثيرا في الثمن. وقد تمت الصفقة فعلا . وكم كانت دهشتى عظيمة عندما وجدت الرجل يماطل في اخذ ثمن قطعة الارض ، وما زال يماطل ، حتى نسيت امرها وذلك بعد أن سجلها باسمي في الطابو واصبحت من املاكي . وقد كافأته طبعا بفتح جدول عريض يسقى تلك الارض ومن ضمنها قطعتى الجديدة ، ومن حسن حظى ان

وجدت منسوب المياه يكفى لكل تلك الاراضى دون حاجة الى قطعه عن بقية المزارعين • وبطرق تشابه هذه وجدت في حوزتى ، بعد ان مكثت في مديرية الزراعة سنة واحدة عددا من المزارع يدر عليّ سنويا ما يوازى ضعف راتبى • ولم اكتف بذلك بل اجبرت مدرسة الزراعة ان تضع في منهاجها مواضيع لا يستطيع ان يقوم بتدريسها غيرى ، ووضعت لهذه الدروس اجورا لانى جعلت مواعيدها خارج الدوام ، واذا اضفنا الى ذلك اجور المقالات التى كنت انشرها في مجلة الزراعة ، فاتقاضى عليها ابهظ الاجور ، وكذا ثمن النشرات الزراعية التى كنت اتقاضى ثمن وضعها من خزينة الوزارة ، والتى كنت أكثر منها ، يكون راتبى قد اصبح بقدر راتب رئيس الوزارة مرة ونصفا • ولكنى كنت اخفى هذه النعمة خوفا من اثارة الخواطر والشغب • وقد وجدت ، بحكم مركزى العظيم ونفوذى الواسع ، بأنى قد اصبحت مطمح انظار الجمعيات والنوادى ، تتسابق الى كسب ودى ونيل رضاى ، وكان أول من خطب ودى جمعية الشبان المسيحيين فقد دعتنى لالقاء محاضرة في بعض الشؤون الزراعية ، فلبيت الطلب مسرورا ، وبعد ان انتهيت منها اطلعنى الرئيس على اسماء المنتمين وكانوا كلهم من اعظم الشخصيات البارزة من موظفى الانكليز ، من مستشارين ، ومفتشين اداريين ومندوبين ، فلم أتردد من أن أطلب بتواضع أن يكون لى ولزوجى شرف العضوية في النادى المذكور •

ولم يمض على ذلك اكثر من شهر حتى وجدت بعض رجال وزارة المعارف يتحدثون كثيرا عن قضية العرب الكبرى ، ويحبذون تأسيس ناد او حزب يكون الغرض منه وضع الخطوات التمهيدية للعمل في سبيل تحقيق الجامعة العربية الكبرى على اسس ومبادىء قومية متطرفة ، ووجدت بعض هؤلاء يؤمنون بقضية الدم التي وضعها هتلر ، ويضعون مقاييس للتفريق بين العربى

الصحيح والمزيف • فأثيرت قضية الاحساب والانساب ، وتطرق بعضهم فقال بوجوب فحص الدم بالمجهر للتفريق بين الدخلاء الخونة ، والعرب الاقحاح المخلصين • وكنت كلما تكاثر عدد هؤلاء المتطرفين أزداد رعبا • فان ابى كما بينت سابقا فارسى الاصل وامرأتى انكليزية ، وشعرت بشيء من الخـوف عندما تم تأسيس هذا النادى وبدأ اعضاؤه ينفذون برنامجهم ، فقد ادركت انه سيكون نقطة ضعف يمكن ان اهاجم منها بكل سهولة • ولكن مخاوفي تبددت عندما رأيت ان جميع الموظفين الكبار من غيرالعرب، ومن كانلآبائهم مراكز نفوذ في العهد العثمانى ، ينتمون الى النادى ، ويتعصبون لقضايا الدم اكثر مما يتعصب لها العرب الاقحاح ، فمـا كـان منى الا ان طلبت الانتماء بدورى ، وافتتحت الخدمة فيالحقل القومي بالقاء محاضرة رائعة عن مزايا الدم العربي ، وكيف يفسد بالاختلاط ، وشرحت النظريات الجنسية والعنصـرية ، واكدتان لها قيمةعلمية فيالوقتالحاضر، واستشهدتبتقسيمهتلر للامم حسب دمائها وقابليات بنيها ، واستشهدت بما فعله هو وموسيلني ، وكيف احييـا قطريهما بمدة وجيزة ، ونهضا بهما الى اوج القوة•وضجت القاعة بالتصفيق، وتناولت الجرائد تلك الخطبة وعلقت عليها ، واشارت الى قوميتي الصحيحة ، ووطنيتى الصميمة ، وقد اضافت بعضها الى انى من عشائر شمال العراق وهم عرب اقحاح فابى احد الشيوح من قبائل شمر العريقة في العروبة ، وانى سيد من عترة الرسول زيادة على ذلك ، فلا ريب ان اتعصب للعروبة بمثـل هـذا الحمـاس •

وعلى اثر ذلك استلمت من أبى رسالة رقيقة يهنئنى بها على ما وصلت اليه من قوة وعظمة ، ولكنه ينبهنى الى أن بعض العلماء قد بدأوا يغتابوننى في الموصل بسبب زواجى بانكليزية ، وان الاوساط الدينية هناك غير راضية

عنى ، وان جمعية الشبان المسلمين التى تشكلت حديثا غير راضية عنى ايضا ، فلماذا لا احتل مركزا فيها كالذى احتللته في النادي القومى الجديد ؟ وكانت ملاحظة ابى في محلها ، وقد اتت في وقتها تماما اذ بلغت ان بعض المنتسبين الى الجمعية المذكورة ، وممن اسأت الى بعض ذويهم ينوى ان يشن غارة شعواء عليّ وينهمني بأنى قد طعنت بخطبتى القومية بالدين الاسلامي العالمى الذى لا يفضل العربي على الاعجمي الا بالتقوى ، فعزمت على ان اسد هذه الثغرة التى احدثتها دون تقصد ، وقد خدمنى الحظ اذ زارنى في ذلك اليوم احد كبار اعضاء تلك الجمعية ، وطلب منى ان اتوسط له عند وزير الاوقاف لحل قضية يلحقه منها ربح وافر ، واظهرت له بشاشة وسرورا ، وقلت لـه بأن الحظ قد ساعدنى على خدمته ، وسأنجز له القضية باسرع ما يمكن فما كان من الرجل الا ان بدأ يكيل لى المدح جزافا ، ويثنى على ادبى واخلاقى وطيب أصلى ، وقد ادعى بأن بين ابيه وابى رابطة صداقة اذ هما ينتسبان الى طريقة واحدة في المشيخة ، وقال ان الدين والعلم قد اجتمعا في .

ولما رأيت منه ذلك الاقبال على فاتحته في تقصيرى في واجب زيارة الجمعية الدينية الحديثة ، والتشرف بخدمتها ، فتهللت اسارير الرجل ، واسرع فقال ان انتمائي الى الجمعية هو شرف لها وانها ستعتز وتفخر بأن ينتمى اليها احدث الشبان ثقافة ، وان ذلك سيكون اكبر دعاية لها . ولم يتمالك ان بشر رئيس الجمعية فورا بالتلفون بانتمائي لجمعيتهم خوفا من ان اغير ما عزمت عليه .

وقد طلبت منى الجمعية ان ألقى محاضرة في مزايا الدين الاسلامي ، فأفتتحت خطبتي بشهادة مستر ونسفيلد بقيمة الدين الاسلامي ، وقلت : « اذا كان الشيوعيون والاشتراكيون يدعون بأنهم عالميون فقد اتى الدين الاسلامي بالمبادىء العالمية قبلهم بالفى سنة » .

وتطرقت الى العدل والمساواة التي يفرضها الاسلام ، ويبشر بها ، وحبذت وجوب تأسيس مثل هذه المنتديات الدينية العصرية لتقوية الشعور الديني في النشء لان المدارس التبشيرية والاجنبية تنال كثيراً من اعتقاد المرء ودينه ، وان هذه المؤسسة ستكون ندا لجمعية الشبان المسيحيين فتفهم العالم بان المسلمين لا يقلون نشاطا وغيرة عنهم في الدفاع عن دينهم ومعتقدهم .

وبعد ان انهيت خطابي تحمس أحد الحاضرين فنهض معلقاً على خطابي بقوله : « يكفي الدكتور ابراهيم فخراً بأنه اول رجل يتهذب تهذيباً عصرياً ، ويقضي كل عمره تقريبا في جامعات الغرب ، ثم يقف مثل هذا الموقف ليمجد الاسلام ويبرهن على ان ايمانه اعمق من ان تزعزعه سفاسف العصر ونظرياته والحاده ، وان الدكتور يختلف كثيراً عن اولئك الحمقى الذين لا يكادون يتعلمون القراءة حتى ينكروا الله. ولاريب ان يكون الدكتور ابراهيم كذلك . فهو ابن السيد اسماعيل الشيخ الورع المشهور بالتقى والمكرمات » .

وكان هذا الخطيب المتحمس احد موظفي دائرتي البلداء ، وقد نال مكافأة طيبة على خطابه ذاك ، فزاد راتبه ، واحتل مركزاً مهما .

ومهما بلغ اعجاب القارىء بخططي المحكمة وسياستي الرشيدة فان اعجابه سيكون اعظم حين يطلع على الخطة التي اتبعتها لاحوز على ثقة اكبر طائفتين متناحرتين على السلطة في العراق، طائفة السنة من اهل الشمال ، والشيعة من أهل الجنوب . فبعد ان ماتت الحزازت والبغضاء بين الطرفين بسبب اشتراكها في ثورة واحدة وثورة ذات هدف واحد عمل عمل بعض المتصيدين على احيائها . وكان اغلب هؤلاء من الذين لم يتح لهم الحظ سلاحا آخر يناضلون به ، فما كان منهم الا ان شرع كل قسم يدعي بأنه مغبون ، وشرع يتمسك بدعوى الدفاع عن مصالح طائفته . وكنت بحكم مركزي على اتصال وثيق بشيوخ الجنوب واهم اقطاب الحركة الطائفية ايضا . ولما وجد بعض هؤلاء اني لاافق قط ضد مصلحة من مصالحهم ركنوا الي ، وقد قال أحد اصدقائي

من الشيوخ ، وهو الذى وهبنى قطعة الارض ، في موقف مزاح بينه وبين صديق له : « يبدو ان الدكتور ابراهيم من جماعتنا ، يتعصب لمصلحة اهل الجنوب اكثر من تعصبنا نحن لها ، حتى لكأنه غير سنى » •

فانتهز الفرصة وسألته : « وهل يمكن ان يكون الانسان سيدا وسنيا في عين الوقت ؟ وهل تعنى الشيعة غير التشيع لآل الرسول ؟ وعدا ذلك فهل تدرى بأن ابى من مازندران قد هاجر الى العراق قبل ولادتى ، واذا كنتما تريانى ملتصقا بالسنة فلست افعل ذلك الا لاتقاء شرهم • أما خدماتى الحقيقية فقد رأيتما بنفسيكما من أقصد بها • واظن ما فعلته معكما يزيل الغشاوة ، ويؤكد لكما بانى غيور على مصالح الطائفة اكثر من كل افرادها ، ولكن من صالحنا جميعا الا اعلن نواياي • »

ومن تلك اللحظة اصبحت ركناً مهما من اركان الحركة الطائفية السياسية، دون ان يعلم اى طرف من الطرفين بأنى متصل بعدوه الطرف الآخر •

القسم الرابع

جرائم الدكتور ابراهيم

الفصل الاول

ثـأر قديـم

« واذا كان هذا الجاه وهذا السلطان لا يمكنني من اشفاء غليلي ، والانتقام من اعدائي ، وممن اساءوا الي ، فما احقـره ؟ »

كنت في صباح احد الايام في الدائرة ، منهمكاً في اعداد كلمة مناسبة لألقيها في حفلة عقدتها جمعية الشبان المسلمين بمناسبة ذكرى المولد النبوى ، وبينما انا منهمك في هذا العمل غير الرسمى الذى لم يكن بين يدى سواه ، دخل الحاجب يعلنني بزيارة صديقين ، ودخل في اثره شابان ، احدهما طويل القامة ممتلىء الجسم تلوح امارات النشاط والقوة في وجهه وعينيه ، والآخر وسيم الطلعة ، رقيق الملامح ، وديع النظرات . وبنظرة واحدة علمت ان لهما صورة في اغوار ذاكرتي ، وتقدم اولهما مختالاً بثوبـه العسـكرى ، تبرق النجوم فوق كتفيه ، وعلى صدره علامة تمثل جناحين مبسوطين . وتقدم الاثنان من المنضدة وقال النحيف وهو باسط يده : « اتكفى عشر سنين حقاً لتغيير الانسان الى حد لا يعرفه اصدقاؤه وابناء صفه ؟ » .

وانقشعت غيوم النسيان من ذاكرتى بمجرد سـماع صوتـه ، ووثبت فمددت يدى لاصافح تلك اليد الرقيقة وأنا اقول : « لا طبعاً ايها الصديق ، وكيف تنسيني هذه المدة القصيرة (سامى) اخلص اصدقائي » .

صافحت الضابط واستطردت : « وهذا غسان ايضا ومع انه قد تغير اكثر من سامى ، ولكنه ما زال محتفظاً بهيئة الشقاوة والميل الى العنف • وما أجدره بهذا اللباس الذى يرتديه ؛ »

واجلستهما قريباً منى ، وأمرت الخادم باحضار القهوة ، وأظهرت لهما حفاوة واعزازا ، ولم استطع ان اقاوم رغبتى في اظهار ما لدى من قوة فاتتصبت وراء منضدتى ، وقلت لسامى بنغمة ازدراء وسخرية « ترى ماذا تعمل الآن ؟ •

فقال « موظفاً طبعاً • انى اشتغل مهندساً في وزارة الاشغال » فسألته : « وكم الراتب ؟ » فاجاب : « خمسة وعشرون دينارا لم تزد او تنقص طيلة خدمتى التى تقرب من سبع سنين • لقد درست الهندسة المدنية في امريكا على نفقة الحكومة ، وحصلت على شهادة في هذا الفن ، انى لا اتذمر من الراتب فهو غير قليل في نظرى ، ولكنى غير راضٍ عن العمل • لقد مرت بى ظروف تمنيت فيها لو استطيع ان احصل على قوتى بعرق جبينى ، فقد وجدت انى مضطر في كثير من الاحيان الى خيانة واجبى ، اذ اجبر على غض النظر عن خيانات وجرائم وسرقات علنية من خزينة الدولة ، دون ان يكون في امكانى ان اعترض عليها او اتلافاها • لقد كلفت مرة بمراقبة دفن مستنقع واسع ، وكان متعهد الدفن قد اتفق مع الدائرة على سعر معين لما تحمله سيارة نقل كبيرة من التراب ، ولاحظت ان السيارة لا تحمل من التراب في كل مرة اكثر من نصف حملها فقدمت تقريرا بذلك الى رئيس دائرتى ، فلم يعره شيئاً من الاهتمام ، فتعديت المرجع واوصلت خبر هذه السرقة الى الدائرة العليا ، وكانت النتيجة ان تنكر لي جميع الرؤساء الذين تقدمت اليهم بالاعتراض وقد عوقبت على الاثر بالتحويل الى محل بعيد ، واعطيت عملا متعبا ، وبدأت سمعتى تسوء تدريجيا ، ولم ارتدع عن المداخلة في قضايا كثيرة من هذا النوع على الرغم مما حدث ، فسميت مشاغباً ورشحت للذيل مراراً ، وكنت اعفى في كل مرة لان الدائرة تحتاج كثيرا الى ارشاداتى الفنية • »

وقال غسان : « فلنتذكر يا سعادة الدكتور ان سامى كان الاول في الصف ، كان يضرب بذكائه المثل ، ومن مضحكات القدر ان نجده الآن اقل منا الاثنين راتبا ، وأبعدنا عن السطوة والسلطان ، » فتبسمت وقلت متباهياً : « هنالك فرق عظيم بين الحياة المدرسية والحياة العملية ، وليس من الضرورى ان يكون المتفوق في الدراسة متفوقا في الحياة العملية ، فقد يكون العكس تماما . »

وقال سامى مصراً : « لست معك يا دكتور . ان الحياة العملية عندنا ليست الا سلسلة اغلاط وخيانات واكاذيب وغش ، والمتفوق في حياة الدراسة يسمو على هذه الدنايا ، اما المتأخر فيها فيتقنها لانه لا يجد غيرها بضاعة للعيش.واذا استولى على زمام الامور عدد من الاذكياء على أن يكونوا اكفاء ومخلصين فان ايام الشعوذة والتدجيل ستنقضى حتما . »

وشعرت بأن كل كلامه موجه ضدى ، فتملكتنى عاطفة غضب كتلك التى كانت تتملكنى يوم كنت تلميذاً ، وقلت لنفسى : « حقاً لو ملك زمام الامور امثال هذا الارعن لكان في ذلك نهايتى ونهاية امثالى . اذن فلنتنبه ونعمل المستحيل لمطاردة امثاله . »

وقال غسان : « ولكننا نؤمل ان يملك امثال الدكتور زمام الامور في كل دائرة لتسير وفق القواعد الفنية الصحيحة ، وتنجو من الاخطاء والاخطار . »

فشكرت الشاب ، وتوقعت ان يكون وراء هذه المداهنة مطلب آخر، وقد صدق حدسى ، اذ لم يلبث ان اضاف : « ان سعدالدين بيك مدير الاشغال العام هو من اخلص اصدقائك كما بلغنى ، واخى كان في الدائرة المركزية ، وقد حان وقت ترفيعه فلم يلتفت له احد رغم شدة الحاجه في المراجعة ، فعسى ان تدفعكم روابط الصحبة المدرسية الى تذكير سعدالدين بيك بواجبه . ثم هنالك سامى ، وقد بدأت الدائرة تضايقه ، وتشدد عليه

النكير ، فيجب الا تنساه • اقول ذلك مع علمى بأن سامى يكره التوسط • ولم يأت معى لهذه الغاية ولكنى لا اعتقد انه يرفض مساعدة صديق مثلك اذا مدّ له يده » •

وابتسمت ابتسامة تشفى وحقد ، وتذكرت ما كاده لى هذا اللعين يوما من الايام ، وتذكرت كره التلاميذ لى وحبهم لسامى هذا ، فشعرت بهما الآن كفأرين تحت رحمتى ، فقهقت قهقة فهم الاثنان منها غير ما تعنيه ، وقلت : « انكما لا تدريان اى نوع من الرجال سعدالدين بيك هذا ، ولا تعلمان الى اى حد يصل به العناد في بعض الاحيان ، لقد قاسيت منه الامرين يوم كنت تحت امرته ، فرأيت من صلابته ما حيرنى ، ولو كانت صلابته هذه في مصلحة الدائرة لهان الامر ، واتت بنتائج حسنة ، ولكن الرجل بليد الذهن ، بطىء الفهم ، ملتوى الاساليب احمق ارعن ، خططه كلها معوجه • واساليبه جميعها مغلوطة ، ولكن يصعب ان تتفاهم معه في شأن من الشؤون • وهو يعتقد ان ما يقوله منزل بوحي ، وان من الحزم عدم الرجوع عن الخطأ • وانا ارثى لسامى ولاخيك هذا مما يلاقيان منه ، ولكنى مع كل ذلك سأخاطر واحاول ان اقنعه بمساعدتكما مهما كلفنى الامر ، وانى اشكر لكما ان تتذكرانى في اوقات الضيق ، واشكر هذه الفرصة التى جمعتنى بكما ، ويظهر انكما ما زلتما صديقين كما كنتما ايام التلمذة رغم التباعد العظيم بين مهنتيكما » •

فضحك غسان واجاب ، « انى لا انسى فضل سامي عليّ ، ويستحيل ان اقلل من احترامي له حتى ولو جعلتني الظروف ملكاً ، وابقته موظفا صغيراً ، فلولاه لما وصلت الى ما وصلت اليه » •

واجابه سامى محمر الوجه : « انك تغالى يا عزيزى دائما كعادتك عند اعترافك بالجميل ، وهذه صفة ملازمة لذوى القلوب النبيلة • انى

لم افعل اكثر من مساعدتك في فهم بعض الدروس في ايام التلمذة ، وهل هنالك اتفه من هذه المساعدة ؟ » •

وشعرت بشيء من الحسد لهذا (السامى) رغم كون راتبى ضعف راتبه والفرق بين مركزى ومركزه كالفرق بين الثريا والثرى •

وودعتهما الى الباب ، وأنا اعدهما خيرا ، وما كادا يبرحان غرفتى حتى اخذت التلفون ، واتصلت بسعدالدين بيك • وبعد ان حييته وسألته عن صحته واخباره ، فاجأته مازحا : « لقد سمعت شكايات مرة عن سلوكك نحو موظفيك الصغار ، فقد كان عندى احد رفاق الدراسة ، واسمه سامى، وهو مهندس عندكم يروى العجائب عن الخيانات والسرقات التى تحدث في الدائرة ، وهنالك كاتب ايضا يدعى بأنه لم يترفع حتى الآن (مع انه يستحق ذلك طبعا) فدافعت عنك دفاعاً مجيداً ، ولولا انهما من رفاقى في المدرسة لبطشت بهما ، فانا اعرف الناس بكم وبعدالتكم ، ولكن لا احب ان يبقى هذان يدوران في كل مكان ويرويان ما يرويان ، والاحسن ارضاؤهما بالتى هى احسن ، ودفع شرهما • »

ونقلت لى اسلاك التلفون اقبح ما سمعت من شتائم كان آخرها قوله : « ارى ان قانون الذيل هذا ليس بذى فائدة في معالجة اخلاق بعض الموظفين ، ولو كان الامر بيدى لجلدتهم علنا ، واريتهم كيف يتطاولون على رؤسائهم ، وعلمتهم من اين تؤكل الكتف » •

واقفل التلفون بعدها بعنف ، وفركت يدى سروراً وشرعت ادور فوق كرسيى وانا اقهقه جذلاً ، وقلت : « لو كان غسان في غير السلك العسكرى لاريته من انتقامى ما تشيب لهوله الولدان ولكن صبراً وسنرى • »

الفصل الثاني

((خطة دفــاع))

« أنا في قمة البرج والطريق اليه لا يتسع لاكثر من
واحد ، فلانتبه ولا حفظ المسافة بيني وبين الصاعدين »

ان اعمال الدوائر توزع على الموظفين الصغار بصورة تتناسب عكسيا مع مقدار رواتبهم ، واهمية العمل المسند اليهم ، فأقل الموظفين راتبا هــو اكثرهم عملاً ، واقلهم اعتبارا ، ولم تشذ دائرتى عن هذه القاعدة ، وبذلك كنت اشتغلّ في كل شيء عدا ما يدخل ضمن نطاق فن الزراعة . اما اعمالى الحقيقية فتنحصر في استقبال المراجعين وارضاء كل حسب مركزه وقيمته الاجتماعية . والمهارة في الادارة تتوقف في الدرجة الاولى على تقدير مراكز الناس ونفوذهم في الحكومة وفي المجتمع . فاعطاء رجل غمر اكثر ممـــا يستحقه من الاهتمام خسارة للدائرة ، حتى ولو كان ذلك لا يتعارض مع مصالح آخرين ، وكذلك اعطاء رجل كبير أقل مما يستحق من الاهتمام معناه ايجاد مشكلة قد تؤدى بمركز الرئيس ، وتؤدى الى شغب عظيم ، حتى ولو كان ما يعطى لهذا مغتصبا من الالوف .

وكانت دائرتى منتدى خاصاً للاصدقاء والاقارب والمناصرين وارباب المصالح والمشاغبين ، فالدائرة مكتظة بهم على الدوام يستهلكون من القهوة والشاى والسجاير ما يساوى ثمنه راتب موظف صغير من موظفى الدائرة، ولكنها لا تصرف من جيبى اذ من واجب الحانوت ان يعرف ان حســاب رئيس الدائرة لا يخضع للقواعد الحسابية الاعتيادية التى يخضع لها حساب

صغار الموظفين ، والا كانت ديونه عند موظفى الدائرة في خطر الاهمـال والانكار ، وتصبح بالنتيجة في بطون هؤلاء نسياً منسياً •

وبمثل هذه الزيارات الرسمية كنت استطلع خبر كل ما يحدث في البلد، ويدور من اشاعات على الالسنة وبها كنت اغمز قناة رجال الحكم والوزارات فأعلم متى تضعف الوزارة ومتى تقوى ، واى الرجال سيكون بطل الساعة، وأيهم سيسمى الخائن ، وقد وجدت بعد تجـارب كثيرة ان النصائح التى قدمتها للرئيس الذى رفعنى الى منصب الرئاسة كانت ذات فائـدة لى فقـد عادت عليه وعلى من تمسك بها باوخم العواقب وذلك لان عدد من يدوس حقوقهم القانون الاستثنائي يكون عظيماً ، ويضم أقوى الشخصيات وأكفأ الموظفين على الغالب ، ولا يسكت هؤلاء طبعـا عـلى ما حاق بهم من اذى ، ولا يوجهون سهام كرههم الى خالق هذه القوانين ، بل يوجهون هجومهم الى الوزارة التى طبقتها عليهم ، والى رئيسها بصورة خاصة • ولما كانت الاحزاب قد عطلت ، والجرائد قد قيدت ، تحولت تلك المناورات السياسية الى عداء شخصى ، وكثر عدد الطامعين ، وزاد عدد الجمعيات ونشـطت الحركـات الطائفية والاقليمية ، وحركات الاقليات ، بسبب كثرة من يعتمد عليها بعد يأسهم من وجود حزب ينتمون اليه ، او صحيفة تدافع عنهم ، ففى السر ينمو المباح والممنوع ويقوى المفيد والمضر معاً ، ولكثرة المنتهزين استفحلت هذه الحركات المضرة ، واتخذ بعضها شكلا مسلحاً يهدد المملكة بالخراب •

في هذا الجو كثرت التهم ، وتعددت المثالب ، وتنوعت المطاليب ، وازداد عدد الجمعيات واللجان والنوادي التى تستر اعمالها السياسية بستار مضحك شفاف ، واختلط الحابل بالنابل • اما القائمون بهذه الضجة فهم المتعلمون والموظفون وذوو المصالح الشخصية • وبقى الشعب بعيدا عنهـا يراقبهـا ويراقب ما ينتج عنها من قلاقل واضطراب بخوف وفزع ، لا يبدى رأياً ، ولا يحرك ساكناً • فقد يئس من رجاله وقادته بعد ان صار كل منهم يفضح

رفيقه ، ويشوه سمعته بكل الوسائل • وكنت على اتصال دائم بكل الحركات السياسية ، افتح صدري لها كلها واناقش في ما يخصها ، وابدى رأياً فيها ، وبذا اصبحت موطن ثقة كل الجمعيات والنوادى تقريباً •

وفى احد الايام زارنى شاب يحمل شهادة عالية ، ولكنه لا يحمل وظيفة عالية ، وبدأنى بمحاضرة طويلة ذهب فيها الى ان معظم واردات العراق تصرف في مصلحة ابناء الشمال ، ومعظم هذه الواردات من نتيجة كدح ابناء الجنوب ، فمن العدل ان يصيب هؤلاء قسماً وافراً منها ، ثم اسهب في بيان حالة اهل الجنوب ، وما هم عليه من تأخر وفوضى ، وجهل • فالبعثات العلمية كلها من نصيب ابناء الشمال ، فما دامت درجات الامتحانات بايدى وزارة منهم ، وهى وزارة المعارف فمن صالحهم طبعا ان يساعدوا ابناءهم وذويهم ، لذلك يرى من واجبه وواجب كل مثقف من ابناء الطائفة الجعفرية ان يشمر عن ساعد الجد ، ويستهدف ترقية حالة هؤلاء ، ومساعدتهم ، ويضحى بالغالى والرخيص في هذا السبيل •

واظهرت تحمسا لمبدأ الرجل كفرد يغار على مصلحة طائفته ، وطلبت منه ان يعتبرنى واحدا من هذه الجمعية التى تدافع عن مصالح الاكثرية الساحقة الذين هم ابناء البلاد الشرعيين ، واكدت له بأن الالحاح يضمن اعطاءهم ما يبتغون •

وكان لكلام هذا الرجل صداه العميق عند الانتهازيين والمتصيدين ، فقامت الضجة ، المدافعون عن حقوق الشعب المهضومة من كل حدب وصوب ، واضطرت الحكومة ان تعير هؤلاء الكثير من الاهتمام وترضى قسما منهم باعطائهم المراكز اللائقة بامثالهم المخلصين ، حتى ولو كان ذلك يخلق وظائف جديدة لا لزوم لاحداثها ، واجابتهم الى فتح المدارس وملاحظة امر البعثات العلمية •

وقد حلت مشكلة البعثات العلمية بجعلها في ايدى لجنة تنتخب من اناس مثقفين محايدين ، وقد كنت احد افراد هذه اللجنة ، بل المتنفذ فيها • ومع انى كنت معدودا من طائفة ابناء السنة في الظاهر فقد كان ابناء الشيعة يعدونى نصيرا قويا لهم • وقد حبذت لهؤلاء ان يقدموا للبعثة اناساً متشبعين بمبادىء الطائفة ومتعصبين للمذهب ، ممن لم تفسدهم المدارس الرسمية وتقضى على هذه النعرة فيهم • وتجد امثال هؤلاء في المدارس القديمة في النجف او من ابناء الشيوخ وتلاميذة المدارس الدينية •

واقتنع بصحة رأيى جميع الاعضاء المحسوبين على هذه الطائفة ، وبذلك ضمنت الانتصار لآرائي واقتراحاتي عند الاجتماع للبت في أمر اختيار اعضاء البعثة • ومما دفعنى الى ترويج هذه المقترحات ، في الحقيقة ، هو معرفتى بأن اختيار المتقدمين في الدراسة والاذكياء من التلاميذ من كلتا الطائفتين معناه تربية نخبة صالحة تجعل مراكزنا في خطر • فاذا رجع البعض ،وقد يكون من المتنفذين ، حاملا شهادة عالية في الزراعة مثلا فلابد له لكى يثبت اهليته للخدمة ، ان يحاسبنى على تلك الخطط الطويلة العريضة التى كانت في الحقيقة حبرا على ورق ، او كتابا مهملا لا يجد حتى من يقرأه •وسوف لا ينخدع طبعاً برضاء المزارعين وسكوت المشاغبين ، وسوف يكشفون الغطاء عما انخدع به المحايدون الذين يقرأون ولايحققون•

وحل موسم الامتحانات ، وانعقدت الجلسة لتعيين اعضاء البعثة وراجعت قائمة اسماء الموصى بهم قبل ان اذهب الى هذه الجلسة • وقد كنت اعلم انه كلما كثر عدد الذين يوصون على واحد ، كلما كان ذلك الموصى به غبيا كسولا • فمساعدة هؤلاء ذات فائدتين ، ارضاء المتنفذين، وتحطيم آمال الطامحين العصاميين •

وبلغ سرورى منتهاه حين علمت ان المتطرفين من ابناء الطائفة قد نفذوا نصائحى بحذافيرها ، فاختاروا بعض تلاميذ المدارس القديمة ،

ورشحوهم للبعثة بدعوى انهم اكثر اخلاصا للطائفة واهتماما بامورها ، فضممت صوتى الى اصواتهم ، وانتهت تلك الجلسة التى كانت الغاية منها حل مشاكل البعثات واختيار الاكفاء من التلاميذ ، واحباط مساعى الانانيين .

واكثرت الجرائد من ذكر اعمال هذه اللجنة التى قضت على الوسائط والحزبيات ، واختارت الاكفاء من ابناء الشعب ، ولم يهتم احد بالبعثات سوى اولئك الاذكياء من التلاميذ الذين حرموا من البعثة ، ومن حقوقهم الاخرى ، فاضطروا الى دخول بعض المدارس العالية في بغداد .

بهذه الوسيلة ضمنت الى حد ما عدم وجود من يستطيع ان يفوز بشهادة يستطيع بها ان يزاحمنى او يحاكمنى ويناقش اساليبي ويكتشف حقيقة سياستى .

وكنت أتتبع أخبار هؤلاء التلاميذ (النخبة) فكانت الاخبار المضحكة المبكية ترد عنهم مبينة رسوبهم الفظيع ، وانهزاماتهم المتوالية ، حتى ضجت الخزينة من كثرة مصاريفهم دون جدوى وتنقل بعضهم من موضوع الى موضوع عبثا ، وقد لفتت اخبارهم انظار الكثيرين ، حتى ان احدهم سألنى عن سبب فشل هؤلاء النخبة . فاجبته : « او تظن ان نيل شهادة عالية في فن من الفنون أمر ميسور ؟ ان دون ذلك خرط القتاد ، وليس في استطاعة الانسان ان يتوصل الى مثل هذه المرتبة من الدراسة الا ان يكون نابغة عصره وعبقرى زمانه ، وامثال هؤلاء قليلون بل شواذ معدودون لا يجود بهم الزمن الا بين الحين والحين » .

ونظر الى الرجل نظرة اعجاب واكبار ثم سألنى : « وهل هنالك من يحمل شهادة دكتوراه غيرك ايها الدكتور ابراهيم ؟ » .

ففكرت قليلا واجبته : « ان هنالك ثلاثة آخـرين ولكنهم يحملون شهادة من فروع أخرى أقل اهمية من فرعي ، ثم هم قد حصلوا على شهاداتهم تلك من فرنسا وامريكا والمانيا ، ومعظم جامعات هذه الامم تجارية بحتـة تعطى شهاداتها لكل من يريد او يروم مقابل مقدار من المال ، او بعد اكمال عدد معين من السنين ، وصرف مبلغ معين من الدراهم » •

فأجابنى : « انها لجريمة ان يتساوى هؤلاء بالدكتور ابراهيم بالدرجة، ويكون لهم عين حقوقه » •

فاجبته : « حتى ولو كان ذلك فانهم سيخيبون في الحيـاة العملية ، ويبرهنون على ضعف مقدرتهم وقلة كفاءتهم ، فالحياة هي المحـك الذى يبدو به زيف البعض ، وهاهم لا يستطيعون غير التدريس في بعض المدارس، اما انا فقد توصلت بمدة وجيزة الى هذا المركز المحترم بفضل خبرتي وكفاءتي، لا بفضل شهادتى ، فالشهادة لا تخولنى كل هذا التقدم مرة واحدة •

الفصل الثالث

لم يكن هذا في الحسبان

لم اشعر قط فيما سبق بما شعرت به من توجس وحذر عند رؤية ذلك الشاب الذى دخل عليّ لاول مرة • كان طويل القامة عريض الالواح ، متين التركيب ، تطل نظرات الاصرار والعـزم من تحت حاجبيه المعقودين قليلاً ويكاد ينبثق الدم من وجنتيه الممتلئتين ، وخطا نحـوى خطى ثابتة ، ومـد يده يصافحنى ، ويقدم لى نفسه بابتسامة لطيفة : « هاشـم عباس دكتور في الزراعة من جامعة لندن » •

وخفق قلبى بعنف ، ومددت يدى أصافحه وانا أقول مجاملا :

« اهلاً بك • اذن فأنت من نفس جامعتى • هل من خدمـة اقدر ان اسديها لك • وخبرنى اولاً هل ذهبت للدراسة هناك على نفقة الحكومة ؟ اذ لم يسبق ان سمعت اسمك قبل الآن ؟ » •

فتبسم وقال : « ان أبى مزارع بسيط ، وقد ادخر مقدارا لا بأس به صرفه على تثقيفى فهو من القلائل الذين لم يتعلموا ولكنهم يقدرون العلم • ولم أخيب أمله فقد اظهرت جداً وكفاءة في الدراسة فكنت دائماً من المتفوقين، ولعدم وجود واسطة استند عليها لتحصيل بعثة على نفقة الحكومة ، قررت أن أدرس على نفقتى ، وهكذا كان ولم اتأخر في الدراسة مطلقاً ، بل كنت مثال الجد والاجتهاد حتى حصلت على درجات عاليـة جـداً ، وكنت اول الناجحين في فرعى • وعندما علمت بأنكم درستم في نفس المدرسة التى درست

فيها سررت كثيراً ، اذ أيقنت بأنكم ستمدون يد المساعدة لى ، كما انى آيقنت بأنكم ستفسحون لى مجال العمل معكم • »

وسألته عابسا : « اتعنى انك ترغب في أخذ وظيفة في هذه الدائرة ؟ » •

فاجابنى مؤكدا « طبعاً ، اذ لم يبق لى رأس مال اعتمد عليه للعمل مستقلاً » •

فاظهرت له اسفاً عظيماً ، واكدت له بأن ملاك دائرتى ليس فيه شاغر ونصحت له ان يطلب من وزارة المعارف وظيفة ، فهى بحاجة الى مدرسين ، وقد سبق لها ان وظفت الكثيرين من متخرجى كليات الزراعة في اميركا وغيرها لتدريس اللغة الانكليزية ، وما يماثلها • فاجابني ضاحكاً :

« وهل في الامكان ان اشطب من عمرى هذه السنين التى قضيتها في الدراسة ، فأهمل كل ماتعلمته فلا أستفيد منه ولا اعمل في دائرةاختصاصي؟ ان هذا لا يطاق ايها الدكتور ، وارجو ان لا تهتم بقضية الراتب اذ ليس لى من رغبة غير الخدمة ، وانى مستعد للخدمة بأى راتب كان » •

واردت ان اقطع على هذا الشاب خط الرجعة فاظهرت له استحالة امكان اجابته الى طلبه ، واكدت له بأنه ليس في امكانى مساعدته • ولما خرج تنفست الصعداء ، وقلت لنفسى : « لقد تخلصت من هذا الشاب الى الابد ، وتخلصت من الاخطار التى كنت اتعرض لها بمجرد امكان وجوده في وظيفة مهمة في دائرتى التى يجب ان تكون تحت سيطرتى تماماً ، ولكننى لم ألبث ان علمت بأن التخلص منه ليس هيناً الى هذا الحد ، فقد اصر الشاب على مطاردتى ، ومحاولة التوظف في دائرتى بكل وسيلة ، وقد ظهر لى نشاطه في اليوم الثانى، اذ زارني رجل ذو نفوذ لا يستهان به ، وفاتحنى في امر توظيفه ، وكان هذا الوسيط الجديد هو سعدالدين بيك نفسه ، ولم أعلم كيف وجد هذا الشاب طريقة الى سعدالدين بيك وفاز بمساعدته وقد سألت زائرى عن ذلك فقال :

« انه صديق حمدى ابن اخى ، وقد درسا معا في عين الكلية ، وقــد طلب حمدى ان اساعده بالحاح فلم استطع ان ارده خائبا » •

ولما بسطت له اعذارى قال : « اذا كــان هذا هو المانع الوحيد ففى استطاعتى ان اقنع الوزير باحداث وظيفة مناسبة له ؟ » •

فسألته : « ولكن لماذا لا تحدث له وظيفة في دائرتك ؟ »

فقال ضاحكا : « يظهر ان الشاب قد عشق خصالك ، فهو يأبى الا ان يكون بمعيتك وهو لا يريد العمل في غير الزراعة ، ويدعى انه سيكون كفوءا لكل ما يلقى على عاتقه من المهام » •

ولم أعلم بأية طريقة اتملص من هذا القيد الذى اخذ يكبلنى به سعدالدين افندي ، وطلبته منه أن يمهلني الى الغد لعلي أجد لهذه المشكلة حلا موفقا •

وفي مساء ذلك اليوم زارنى احد المتنفذين من شيوخ عشائر الديوانية، وفاتحنى في قضية هذا الشاب ايضا ، وفي اثناء هذا الحديث أتى سعدالدين بيك، وقد شكرت الصدفة التي جمعتهما لان بين الرجلين عداء مستحكما فهذا الشيخ ممن اثاروا الضجة على سعدالدين بيك اثناء وجوده في رئاسة هذه الدائرة ، وتعمدت ان افتح حديث الشاب فأكثر من سؤال الشيخ عنــه وعن اهلــه ومركزه ، فكان الشيخ يطريه ويشيد باخلاقه الفاضلة ، ومركز عائلتــه في الجنوب ، وكان يلحف في رجائه ويؤكد لى وجوب مساعدته ، وكنت اراقب ملامح سعدالدين بيك فأجدها تنقطب ، وقد ظهر الامتعاض جليــاً في كــل حركاته •

وعندما انصرف الشيخ انطلق سعدالدين بيك يكيل للشيخ ولكل اهله واقاربه شتائم مقذعة ثم اضاف آسفاً :

« لو كنت اعلم ان هذا الكلب ينتمى الى هذه الطائفة الملعونة ، ومن نسل هؤلاء الاعاجم ، لما تكلفت مؤونة التوسط له عندك ، ولكن شكراً لله ، فان الوقت لم يمض ، واياك ان تحاول مساعدته ، ولو حاولت ذلك لقمت بكل الوسائل الممكنة للحيلولة دون توظيفه . ان اتصال هذا الشاب بعشائر الجنوب ما دام له مثل هذا المركز فيهم خطر عظيم يجب تجنبه مهما امكن . اما ابن اخى فساعرف كيف اوبخه على مد يد المساعدة لامثال هذا الشاب » .

وحمدت الله ، اذ مهد لى فرصة النجاة من مضايقة سعدالدين بيك وانقذنى من غضبه وقد كنت اعتقد بأن هذه الحادثة ستكون فصل الخطاب في امر الشاب ، لولا ان زارنى بصحبة ابن اخ سعدالدين بيك في اليوم الثانى. وبسط لى ابن اخ سعدالدين بيك سيرة هذا الشاب ، وكرهه للطائفية وبيّن لى فائدة توظيفه في مقاومة هذه الآفة اللعينة . واعقبه الشاب وصار يدلى بآرائه في الحركات التى قامت في الجنوب ، ؟ ويؤكد لى بأن كل الحركات الطائفية هناك قد قامت تحت ستار الدين ، وبتأثير الشيوخ على الفلاح ، وان الفلاح لو تعلم وارتفع مستواه العقلى فسوف لا يكون هنالك مجال لاستغلاله وتسخيره لمقاومة الحكومة ، واكد لى كرهه للنظام الاقطاعى واستبداد الشيوخ .

واردت ان اظهر له بمظهر الطيبة فوعدته خيراً شرط ان يرضى بذلك سعدالدين بيك .

وظهر اليأس على وجه الاثنين ، وقال بأن الامر قد اصبح مستحيلا من هذه الناحية ، ولا يعرفان كيف انقلب سعدالدين بيك عما كان عليه البارحة. وكان الشاب ينظر اليّ نظرة غريبة عندما رأى اصرارى على مقاومته ، ولم يلبث ان قال بكل جرأة :

« لقد طالعت مناهجكم في اصلاح الزراعة ولكنى تأكدت عندما زرت عشيرتى في الجنوب بأن الحالة قد زادت سوءاً عن ذى قبل ، الامر الذى لفت نظرى الى عظم الفارق بين القول والعمل ، ولا اعتقد انكم قد اطلعتم على ذلك ، والا لتلافيتم الامر ، وهذا يريكم بجلاء ضرورة وجود مفتش زراعي يراقب هذه الاصلاحات . »

ولو كان هنالك ادنى أمل بامكان مساعدة هذا الشاب لتلاشى عند سماعي ذلك التحدى منه فقلت له : « ان الدائرة تعرف واجبها بهذا الخصوص، وسوف تقوم بما عليها ، وانها تشكر لك ارشاداتك هذه . وسأحاول ان ارشحك لهذه المهمة . »

وبعد خروج الاثنين بما يقارب الساعة من الزمن افتتح الدائرة زعيم من أهم زعماء الوية الجنوب وممن بأمكانهم ان يقتلعونى ويطاردونى شر مطاردة اذا ارادوا ، وكم كان عجبى عظيما عندما رأيته يطرق عين الموضوع الذى طرقه آخرون قبله ، وهو مساعدة هذا الشاب اللعين ، وكان الزعيم الجديد من ألد أعداء المدافعين عن الفلاح ، فقد كانت له اليد الطولى في وضع معظم الانظمة القاسية التى سنتها الحكومة العراقية لتكبيل هذه الطبقة من السكان حتى جعلتهم عبيداً للملاك والشيخ ، وهنا وجدت فرصة للتخلص من هذا الوسيط فاعدت على مسامعه كل ما قاله الشاب ، وسردت له كل آرائه في الحكم الاقطاعي وسلطة الشيوخ ... الخ فاحمر وجه الشيخ وبدأ يصخب ويلعن . وخرج من عندى ثائراً حانقاً . وبعد خمس دقائق من خروجه سمعت ان سيارته قد انقلبت وأصابه جرح بليغ لم يمهله بل قضى عليه .

ويظهر ان للشباب كثيراً من الاصدقاء مهدوا له سبيل الاتصال بشخصيات بارزة اخرى ، فكنت اقنع كلا منهم بما يناسب عقليته ، ولكثرة من توسط بهم هذا الشاب وفشلهم كلهم ، في حملى على توظيفه ، اقتنع الشاب بانى اصر على عدم قبوله ، فدخل عليّ يوما محمر الوجه بدون استئذان وقال لي بدون

تحية : « اتدرى علام يدل عملك هذا ايها الدكتور ابراهيم في احباط مساعى، وعدم اعطائي فرصة للعمل معك ؟ انه يدل على انك تخشى ان يكون معك فنى آخر يستطيع ان يفضح اعمالك ، ويوقفك عند حدك ، ويطلع الناس على سوء ادارتك وغشك وخداعك للرأى العام . لقد اتصلت بمن طاردتهم وبرئيسك الاول ، فاطلعنى على كل دناءاتك ولكن صبرا وسأعلمك من اين يؤكل الكتف » .

وشعرت ان الشاب قد تخطى حدوده وجن فقلت له معنفاً : « لم أكن حقاً اعلم انك سيء الادب الى هذا الحد ، ولا يليق بأمثالك غير الطرد » .

ومددت يدى لاضرب الجرس . ولكن الشاب هجم عليّ كالمجنون ، ورفعنى من فوق الكرسى ، وكال لى لكمة ملاكم مدرب ، ثم اغار علي ومضى يبصق عليّ ويركلنى بقدمه ، وخشيت ان يقتلني ، فاندسست تحت المنضدة وأخذت اصيح مستنجداً ، فدخل الخادم ولم يستطع ان يوقف هذا المجنون عند حده ، فقد ضربه ضربة شلته فاستغاث بآخرين ، ولم يتمكن من التغلب عليه الا ثلاثة منهم وشرطى مسلح هدده بمسدسه .

وقد اعترف الشاب بجرمه طبعا بكل تبجح وسيق الى السجن مخفوراً ولم اره من ذلك اليوم .

الفصل الرابع

« خطر آخر »

« حذار من المنطق مع هؤلاء وكافحوهم بالتهم »
ولتعلموا ان لكل عهد تهمة ، ولكل مبدأ ضحاياه »

وخلال وجودى في منصبى سقطت ثلاث وزارات ، واحتلت ثلاث اخرى محلها • اما عدد المرشحين لكل هذه الوزارات المختلفة فثابت لا يتغير ، فقد يساهم وزير اذا كان مولعاً بالمنصب في ثلاث وزارات او اكثر ، وقد يعاكس الحظ آخر ، فلا تتاح له فرصة الاستيزار ولو مرة واحدة •

اما الطرق التى اصبحت تتبع في الآونة الاخيرة ، فقد كانت تختلف اتم الاختلاف عن سابقاتها ، أذ ان شهوة الخلود في الحكم اصبحت مطمح افئدة الجميع ، وما دام في استطاعة كل وزارة ان تسن ما تشاء من القوانين ، وترمى بمن تشاء في اعماق السجون ، وتتهم من تشاء بما تريد من التهم ، فقد اصبح المجال مفسوحا لهذا النوع من الخلود والذى يحلم به الكثيرون ، غير ان القرائن كانت تدل على ان لكل داء دواء في هذا القطر المضطرب ، فكلما ازداد الاستبداد ازداد عدد المؤامرات ، وكلما قويت شوكة الحكومة ازدادت كمية البارود تحتها ، وهكذا اصبحت كل وزارة لا تتخلى عن الحكم الا بحادثة مؤسفة يذهب ضحيتها شخصية بارزة ، او وزير قدير ، او قائد محنك •

وفي هذا الدور اخذ الجيش يلعب دوره ، لان الاعتماد على قوته وكفاءته اصبح هدف الكثيرين من القادة والزعماء ، وفى المرة الاخيرة اشتركت فرقة من الجيش في اسقاط وزارة قوية متماسكة • ومن المضحك ان تسمى تلك

الحركات بأسماء تشابه نعوت الحركات الكبيرة عند الامم الكبيرة ، فالثورة، والانقلاب ، والتحرر ، وزوال الاستبداد ، وحماية الديمقراطية ، ومطاردة الشيوعية كلها اصبحت اسماء تلصق بالكتل الوزارية ، ومايسري على الحكومات يسري على الزعماء ورؤساء الوزارات والشخصيات البارزة ، وحتى على المتكلمين والخطباء والكتاب ، فلكل اسمه وميله واتجاهه ومبدأه ، ففلان مثلا فاشستي ، وآخر انكليزى ، وثالث عربى قومى ورابع نازى ، وخامس شيوعى ، وآخر طائفي ... الخ والصقت هذه المبادىء بالجرائد والمجلات ، وحتى بالكتب سواء أكانت علمية أم ادبية او قصصية ، واستترت الاغراض الشخصية وراء هذه الكلمات ، وغدت امثال تلك العبارات اسلحة ماضية بيد الاقوياء يقاتلون بها . يهاجمون ويدافعون ، فيفوزون او يندحرون . اما القضاء ، والعدل ، والكفاءة ، والمحاكمة المنطقية ، والعلم ، والنزاهة ، فلم يعد لها من اثر . لقد ضاع صوت العقل في هذه الزوبعة الهوجاء ، ولم يعد هنالك من يفتح اذنيه ليسمع ، او عقله ليفهم ، ورفع كل عقيرته ينادى على بضاعته ويشير لنفسه .

وفي هذه الزوبعة شعرت بشيء من الراحة والطمأنينة ، فقد اختصرت كل اعمالي في امرين لا ثالث لهما ، ارضاء وزيرى اولا ، ثم التفاهم مع السلطة الانكليزية التى كانت تراقب هذه الاحداث عن كثب ، وعلى فمها ابتسامة ازدراء وسخرية يرافق ذلك حذر ويقظة واستعداد للتدخل عند الحاجة ، اى عندما تتعرض مصالحها للخطر . ولم يبق من يثق بقوة نفوذه وامكان خلوده في الحكم غيرى .

وفي هذا الدور امتدت الايدى الاجنبية للعبث ، واخذت تبث الدعايات المختلفة وتقاوم نفوذ الانكليز ، ومن هذه الدول المانيا التى اخذت تلعب دورها ، وكانت امهر من جميع رفيقاتها ، فقد فهمت اللغة التى يتفاهم بها القوم بكل سهولة وهي لغة الكلام الفارغ ، والدينار البراق ، وعداء الانكليز واليهود ، ووجدت على الفور عدداً كبيراً من الانصار ، في الجيش وفي وزارة

المعارف ، بين الزعماء والتلاميذ والجنود والضباط ، وحتى بين البقالين والحمالين • وكان يكفى ان ينعق رئيس دائرة بشكل معين حتى ينعق بعده جميع موظفيه وانصاره بنفس اللهجة والنبرة •

ونشرت في ذلك الوقت اقوال وخطب لو وعى القوم ما تحويه من هذر وسخف لذابوا خجلاً وتمنوا لو ان الارض انشقت فابتعلت اعمالهم وهذرهم، ولكن عقول القوم احيطت بغلاف سميك حجب عنها النور والحياة ، فانطلقت الحواس والالسن تحس بصورة مضحكة ، وتنطق بامور مضحكة ، حتى ليخيل اليك ان جنوناً قد اكتسح القوم ، او ان وباءً غريباً قد نزل بهم ، وفي اثناء كل تلك الزوبعة كنت أشعر بأنى ارتفع وارتفع •

ولكن تلك الفوضى لم تخل مطلقاً من بضعة افراد اخترقت ابصارهم تلك الدياجير ، واستطاعت آذانهم الحادة ان تسمع اصوات الخطر من وراء اصوات الفوضى فبدأوا يصيحون بطريقة معقولة ، ينبهون الناس الى الهوة التي ستبتلعهم عن قريب ، وارتفعت اصواتهم فجأة في وسط تلك الضوضاء المرعبة ، فكانت غريبة ، عن ذلك الهذيان ، بعيدة عن تلك السفاسف ، رصينة قوية ، يحكمها منطق سليم ، وامانة على الحقائق ، ورغبة حقيقية في الهداية والارشاد •

وثار غضب الناعبين جميعا حينما ادركوا على الفور بأن هذه الاصوات ستكون اقوى من اصواتهم وأرصن منها ، وانها ستعلو حتما على اصواتهم لو قدر لها البقاء ، لان غريزة حفظ النوع التي يتمثل في اختيار الاصلح لا يمكن ان تموت في الانسان ما دام فيه عرق ينبض ، فكان من الطبيعى ان يقفوا لها بالمرصاد •

وكنت انا من جملة من انتبه الى خطر هؤلاء على نفسه ، وانتبه الاجنبي ذو المصالح الى خطرها على مصلحته ايضا ، وانتبه الطائفى الى خطرها على سلاحه وانتبه السارق منتهز الغفلة الى خطرها على ثروته وماله ، وتداول كل هؤلاء

في طريقة يقبر بها هؤلاء قبل ان يستفحل خطرهم ، فقال بعض السذج فلنقارع الحجة بالحجة ونظهر بطلان اقوالهم ، ولكن الباقون ادركوا سخف هـذه المحاولة لانها ستكون فرصة لاعدائهم لا لهم •

وجاء دوري لابداء الرأي في هؤلاء ، وبعد اعمال الفكر توصلت الى هذا الرأي : « ان هنالك كثيراً من الحركات العالميـة المكروهـة في الوقت الحاضر ومن حسن الحظ ان الجماهير لا تفهم حقيقتهـا ، فالشيوعية مثلاً اعدى عدوة الامبراطوريات ، وعدوة حكومات العالم طـراً ، قـد صورت باشكال ينفر منها كل الناس دون ان يفهموا حقيقتها ، فيكفى ان تأتى باسمها حتى يرتجف الناس ذعراً ، ويثوروا اشمئزازاً ، اذ هي تدل في نظرهم عـلى مقاومة الدين ، والعنصر ، والقومية ، والشرف والوجدان ، والعدل ، وما هي الا رمز العدم ، ولو سألتهم عن حقيقة الشيوعية ، لما وجدتهـم يستطيعون بياناً ، لذا كان في الامكان اطلاق هذا الاسم على كل ما هو فـوق مستوى تفكير الجماهير ، فاذا أتى احدهم بنظرية عويصة وتساءل الناس عنها ووجد من يقول هي الشيوعية آمن الكل بذلك دون تفكير ، فالجماهير لا تفكـر ولكنها تؤمن ثم تثور وتصخب وتهدد • »

ولما كانت آراء هذه الطغمة ونظيراتها ارقى من مستوى الجماهير، لانها صوت العقل ، ولما كان الجمهور يجد في تفهمها وقبولها شيئاً من المشقة رغم عذب جرسها في اذنه واطمئنانه اليها • كان من المعقول ان توصم بهذه الوصمة (الشيوعية) ليهرب الناس منها وهم مؤمنون بانها هي الشيوعية بعينها والويل لها ولناشريها •

هكذا تم القرار على تسمية هؤلاء بالشيوعيين وقد كفى ان يقول ذلك انسان محترم حتى يوصموا بها وتخنق اصواتهم ويصبحوا أحقر من انجاس الهنود لا يسمع لهم رد ولا تقبل لهم حجة •

وانتشرت هذه الدعاية بمثل لمح البصر ، وتغلغلت في كل الاوساط ، وان هي الا فترة من الزمن ، حتى احس هؤلاء المساكين بأنهم امام تهمة لا عهد لهم بمثلها ولا يدرون كيف يقاومونها ، فمنهم من رمى سلاحه وفر ، ومنهم من تاب واستغفر ، ومنهم من اصر وعاند وحاول ان يفهم الناس الحقيقة فاكتسحته موجة المهاجمين ، وغدا اثرا بعد عين . وكان لهذه التهمة اثران : اولهما ان بعض عديمي الحول والقوة والمنطق ، من اولئك الطفيليين الذين لا يستطيعون ان يؤثروا في الحياة مثقال ذرة ، وصموا انفسهم بهذه التهمة عن عمد وهم مطمئنون الى عدم وجود من يمتحنهم في هذا الفن الجديد . والناس يعجبون في هذا المحيط حتى بالمجرم القاتل احياناً ، فلا غرابة ان يجد هؤلاء بعض الاتباع الذين يرضون غرورهم وادعاءهم ، مهما كانت التضحية التي يقدمونها في سبيل ذلك .

اما الاثر الثاني فان مجال التهمة قد انتشر الى درجة كبلت اصحاب الآراء الحرة ، والافكار العميقة ، والبحث الواقعي ، والاخلاص النزيه ، وذوي الذكاء الحاد . فقد تسلح الجهلة والعاطلون بهذا السلاح يهددون به كل من يحاول ان يظهر عطلهم وزيفهم ، فاذا برز ذكي من بين التلاميذ اتهمه الكسالى بالشيوعية ، واذا نطق البعض بكلام معقول حاز اعجاب الناس اتهمه الثرثارون الذين لا يستطيعون مجاراته بالشيوعية ، واذا سما البعض بتفكيره على الباقين اتهمه الناس بالشيوعية ، واذا كتب بعضهم كتاباً قيماً اتهمه كل من لا يستطيع ان يضع كتاباً ، بالشيوعية ، وحتى ولو وضع انسان قصة حازت قبولاً واتتشاراً تمكن الحساد اللئام ان يحطموه بتهمة الشيوعية . اذ أن مجرد ذكر هذه الكلمة يكفي لمطاردة المتهم بها واحتقاره دون محاكمة . وما اشبهها بتهمة الزندقة او الهرطقة في ايام محاكم التفتيش ؛ اما لو كان هنالك دعوة حقيقية شيوعية في هذه البلاد فانها ستنتشر بكل سهولة في وسط هذه الفوضى ، دون ان تلفت انظار احد اذ ان الشيوعية الحقيقية الحذرة تكون في هذا الوسط ابعد الاشياء عن هذه التهمة .

الفصل الخامس

« هراوة ثقيلة »

« ما دامت بيدي هذه الهراوة الثقيلة الجميلة
فسأستعملها ، واحطم بها الجماجم والاضلاع »

راجت تهمة الشيوعية بشكل غريب غير منتظر ، واستفاد منها كثيرون وخدمت اغراضاً كثيرة بعضها مضحك وبعضها مبك ، ولا ريب فقد كان جهل الناس بمفاهيمها الحقيقية يدفعهم الى ان يسندوا اليها كل ما لا يروق لهم ، ويكون فوق مستوى عقولهم . وكانت تهمة شنيعة معيبة في نظر البعض، كتهمة الزنا وقد يطلق عليها الافكار الهدامة والاباحية ايضا ، وهل الاباحية غير الزنا وما يشبه ؟

والمضحك في الامر أن تلاميذ المدارس صاروا يتنابزون بها ، فقد اشتكى تلميذ على آخر مرة مدعياً بأنه ينكر كرامة الولى الفلانى ، فهو شيوعى هدام ، وشكت امرأة زوجها الى القضاة وادعت بأنه لا يحبها لانه شيوعى ، وكبس الشرطة منزل احد المتهمين بهذه التهمة ، ولما لم يجدوا ما يبرر التهمة قرروا بأن الرجل شيوعى حقاً ، وكان اكبر دليل على ذلك في نظرهم مهارته في اخفاء معالم التهمة ، فالشيوعيون مهرة اذكياء . يحسنون طرق التملص ، ودفع التهمة . وشتم ضابط الشرطة احد المتهمين بهذه التهمة بقوله :

« ادبسزية لينينكراد كاعد بموسكو يشرب عرق ، وانتم تبثون له الدعاية هنا ؟ »

وأنب حاكم جزاء بعض المساقين اليه بهذه التهمة : فقال واعظاً :
« أليس من العيب يا أولادى أن تبثوا الدعاية لمثل هذا المبدأ الذى يبيح لى أن أزنى بامرأة غيرى ، ويبيح لغيرى أن يزنى بامرأتى ؟ »

ودفعت المغالاة احد الناس لان يقول ان الشعوبية والشيعية والشيوعية شيء واحد ، اذ هي كلها درجات في سلم واحد من مبادىء الهدم والتخريب ، وانتهى لواط مرة من اللوط بغلام وخرج تواً فاجتمع برفيق كان يقرأ مقالاً في السفور وتحبيذه ، فصاح بوجهه « اما تستحى من مطالعه هذه الوريقات التى تنشر المبادى الشيوعية والاباحية ؟ » .

واتهم شاعر بارز بالشيوعية لانه لم يقل قصيدة في مدح احد من العظماء ، اما كلمة فلاح وعامل وفقر واكواخ وعدل ومساواة . فكلها مترادفات للشيوعية ، وقد روى احد الصحفيين لى بانه تلقى قائمة تحوى كلمات كثيرة مع امر يحذره من قبول اى مقال ترد به احدى هذه الكلمات مرسلة من مديرية الدعاية والنشر في عهد احدى الوزارات مهما كان المقصود من هذه الكلمات .

اما رؤساء الدوائر وكبار الموظفين فقد وجدوا في هذه التهمة اداة سهلة التناول يستعملونها متى يريدون ، فاذا غضبوا على احد موظفيهم ولم يجدوا ما يتهمونه به كتبوا على ملفته بقلم احمر (شيوعى) فيكون ذلك كافيا لتشريده او طرده وتوقيفه وسجنه في بعض الاحيان . »

وقد رفض مهندس مرة ان يقبل رشوة لقاء تغاضيه عن قبول مواد مغشوشة لمشروع حكومي فاتهمه المتعهد بالشيوعية وساعده على ذلك بعض المهندسين الذين يقبلون مثل هذه الهبات ، وقد حرم المسكين من وظيفته من جراء ذلك .

اما انا فقد استعملت هذه التهمة بحكمة وحذر ، فلم اتهم بها كل اعدائي ولم استعملها الا عند الضرورة القصوى ، فاذا وجدت مجالاً لمقاومة احدهم بتهمة غير الشيوعية استعملتها ، وكنت ادخرها دائماً للملمات• فاذا وجدت بين موظفي من يهمه امر عمله اكثر مما تهمه طاعتى ، واطلع هذا بالصدفة على بعض المتناقضات من اعمال الدائرة ، والح في وجوب اصلاحها، وصرح مستغربا بما اطلع عليه ، ثم اخذ يخامره الشك بحقيقة نواياى ، وصمته بهذه التهمة وتخلصت منه • وقد حدث مرة ان قبلت واحداً من هؤلاء في دائرتى رغم حذرى في قبول امثاله وكان شاباً نحيف البنية ، عصبى المزاج يدعى خالداً • وكان يحمل توصية من اعظم رجالات الحكومة، وشخصيات البلد المتنفذين • فوظفته براتب قدره ١٠ دنانير في احدى مناطق الرى ، لمراقبة توزيع المياه على الاراضى ، وكان لديه جدول رسمى لاوقات التوزيع وكانت تدخل ضمن حدوده اراضٍ لاربعة ملاكين ، احدهما مزارع صغير لا قوة له ولا نفوذ • ووجد هذا الموظف في احد الايام ان احد المزارعين الكبار قد وسع مجراه بحيث يستوعب كمية من الماء اكثر من غيره ، وشكا له الباقون ذلك فأرجع المجرى الى اصله فشكاه اليّ صاحب المزرعة المعتدي ، وكان من اولئك الذين يستحيل أن أرفض لهم طلباً ، فأنذرت هذا الموظف ، وحولته الى منطقة أخرى ، ولكن وجدته يدخل عليّ بعد هذه الحادثة بيوم واحد صاخباً مستغرباً ان انذره واحوله قبل أن أسأل منه عن حقيقة الشكاية التى وردت بحقه وقد أخافتنى لهجته ، فوعدته أن أرفع الانذار عنه ، ولكن لا مناص من تحويله ، فأصر على البقاء في محله لايقاف المعتدي عند حده ، ولما افهمته بأنه لا يسوغ له التدخل في شؤون الدائرة الخاصة أجاب صاخباً :

« كان يجب عليك أن تكافأنى بدلاً من أن تعاقبني علـى اخلاصى في القيام بواجبي ، واهتمامي بعملي • أما وانت تحوالني رغم كل ذلك ، فدليل على انك تحابي هذا الملاك المعتدى خوفاً من سطوته ونفوذه ؛ واذا كان رئيس الدائرة جباناً الى هذا الحد ، فكيف يمكن أن ينتشر العدل ؟ » •

وغاظني استهتار الشاب فصحت في وجهه مؤنباً واوعدته بشر العقوبات جزاء تطاوله ووقاحته أمام رئيسه الاعلى ، فخرج غاضباً •

وبعد نصف ساعة من خروجه دخل عليّ الرجل الذىأوصى به ، وسألني عن سبب غضبي على هذا الشاب ، فشرحت له وقاحته وعدم اعتداده بأوامر الدائرة واضفت : « ان الدعايات الفاسدة قد انتشرت في هذه البلاد انتشارا عظيما ، ومن جملتها هذه الشيوعية اللعينة التى تستهوى الكثير من النشء • لقد نصب خالد نفسه مدافعاً عنفلاح صغير دون أن يجد هذا الفلاح مايشتكي منه ، بدعوى انه مسؤول عن حقوق الفلاحين والعمال ، وهـذه من جملـة الاساليب الشيوعية في بث هذه الدعايات ، ولما أنبته أجابنى بالمثل واهاننى ، وخرج غاضبا مهددا متوعدا كما يفعل امثاله من الفوضويين والهـدامين الذين يحاولون هدم كل الانظمة ، فلا يحترمون كبيراً ولا صغيراً » •

وقد ادخلت في ملفة هذا الشاب على الفور ما يشير الى هـذه التهمة ، فأصبح بعد ذلك أطوع لى من بنانى ؛ اذ صرت أهدده بـما يشير الى هـذه التهمة في كل مرة يبدو منه شيء من العناد وانه لو لم يكن هنالك من يدافع عنه لفصلته حالاً من الخدمة •

وقد غضب عليّ أحد الموظفين المطلعين على بعض اسرار الدائرة فأخذ ينشر عنى المقالات الضافية باسماء مستعارة فاضحاً اعمال الدائرة مبيناً الفرق

العظيم بين الظاهر والواقع ، ويتهمني باستغفال الجمهور والرأي العام،وكان في عمله ذاك قد تناول ما يمس مصالح الكثير من المتنفذين ، فما كان مني الا أن جمعت هؤلاء وشرحت لهم كيف يريد هذا الشاب أن يضرب مصالحهم في الصميم بدعوى الغيرة على القانون والنظام ، بينما يقصد بذلك مقاومة الاقطاعية عدوة الشيوعيين وكابوسهم وبينت لهم الاخطار التي يتعرضون لها من جراء مثل هذه الكتابات والتصريحات • ولما اقتنع الجميع بأن هذا الشاب شيوعي لعين ، نشروا هذه الاشاعة عنه ، واوصلوها الى بعض المتنفذين والوزراء الذين يقبلون من سامعيهم كل شيء بدون تمحيص ، خصوصاً اذا كانوا على مائدة متمول كبير وكان المتمول هو المتكلم •

وقد وجدت فعلاً ان التهمة قد التصقت به ، رغم انفه ، وسببت اخراجه من عمله في أحد تبدلات الوزارة ، فقد أتت الى الحكم وزارة ارادت أن تبرهن على غيرتها وحسن نواياها بمطاردة الشيوعيين والهدامين •

ولكن كلما ازداد الخوف من هذه الشيوعية ، ازداد خطرها ، وكثر المتهمون بها ، ازددت نفوذا وقوة وجاها •

الفصل السادس

اعــداء

« ما دمت قابضا على الصولجان ، فليكثر الاعداء ،
وليكن من بعدي الطوفان »

كنت لشدة انهماكي في العمل ، ولقوة ايماني بخططي واساليبي ، عديم المبالاة بالمحيط ، قليل الاهتمام بالاشاعات ، كثير الاحتقار للرأي العام ، حتى أصبح من أبرز صفاتي السخرية بكلام الناس ، وبالسمعة الطيبة ، وبحسن الاحدوثة ، وما شابه ذلك ، لان الناس كانوا في نظري واحداً من اثنين : عبداً خاضعاً لا يجسر على رفع صوته ، أو سيداً آمراً لا يسأل عما يفعل ٠

وقد كنت موقناً بأن من اسيء اليهم لا يستطيعون ان يفعلوا اكثر من أن يبثوا شكواهم لاصدقائهم والذين يحيطون بهم ، وقد يرفه أحدهم عن نفسه بالشتم والسب ، وكل ذلك لا يضر اذا لم يكن صادراً من شخصية بارزة قوية ، أو يكون على صفحات جريدة رائجة ٠ ولما كنت قد وضعت من الخطط ما يكفل لي السيطرة على هذين الامرين لم أجد مبرراً لاخذ الحيطة ، ومقاومة الاشاعات ، والاهتمام بكلام الناس ٠ وقد كان من الواجب عليّ أن انظر الى الامر نظرة أخرى فيها شيء من التعقل والحذر ، وقد كان من الواجب عليّ ألا احتقر كيد الضعفاء الى هذا الحد ، ولكنها لذة الانتصار قد تنسي الانسان حتى نفسه ٠

وقد بدأت أخيراً أشعر بأن عدد من أسأت اليهم قد ازداد الى درجة خطرة وان هؤلاء كانوا ينتقمون لانفسهم بدون هوادة او لين ، وانهم يعملون

على الكيد لى ، ونشر مساوئى، وفضح خططى ، واعلانها للملأ • وقد استعاضوا عن الجرائد والكتب بالكلام في المقاهى والمنتديات ، وفي مجالس (القبول) والزيارات • وقد علمت كل ذلك من جواسيسي وعيوني ، وليس هؤلاء غير الموظفين الذين تحت أمرتي ، وسرعان ما هجست ان هنالك خطراً يتهددني ، ولكنى اقنعت نفسي بقولى : « ان أغلب زعماء البلاد والشخصيات البارزة هنا مكروهون محتقرون مثلى ، ولكن أحداً منهم لم يصبه شيء من الاذى حتى الآن ، فلماذا أكون أقل جرأة منهم ؟ » •

ولكن ما حدث لى بعد ذلك برهن لى على أن مركزى يختلف كثيراً عن مركز هؤلاء ، وشخصيتي لا تمت الى شخصياتهم بصلة ، فان لهم من النفوذ والاتباع ما يمكنهم من رد الاذى ، ودفع كل عدوان •

فمن هذه الحوادث انني كنت أتمشى يوماً على رصيف النهر بعد العشاء، وقد لذ لى أن أسير وحيداً أفكر بخططى وبمشاريعى وبمستقبلي ، وقد نسيت نفسي ، وقطعت شوطاً بعيداً حتى وصلت تلك المحلات الموحشة القليلة العمران ، ولفت نظرى ثلاثة كانوا يسيرون أمامى ، ثم تلكأوا فأصبحوا ورائي، وعندما مررت بهم عرفت اثنين منهم ، أحدهما ممن أخرجتهم بقانون الذيل الاول فاعادتهم وزارة أخرى ، والآخر ممن حاولوا التوظف في دائرتى فلم يفلحوا • ورآني الاثنان ، ولحظت رغم قلة النور تقطب ملامحهما وعبوسهما• وعندما سبقتهما سمعت أحدهما يقول : « ابراهيم النذل • أتراه كيف يسير وحده غير خائف من عدو ، وما أكثر اعداءه » • ورفع الآخر صوته يوجه كلامه الي قائلاً : « قواد • قواد ، هل لك أن تقف لابصق في وجهك ؟ » •

وخفت ان اقف لارد لهم الاهانة فقد كانوا ثلاثة وكل واحد منهم يستطيع لوحده أن يذيقني ضربا مبرحا ، لذا اسرعت الخطى متجاهلا تلك الاهانات ، وسمعتهم يسرعون خطاهم ورائي وهم يضحكون ويشتمون، وانتهزت فرصة اقتراب بعض المارة فدخلت منعطفاً يؤدي الى طريق آخر

استطيع أن ارجع به الى البيت ، وكان المنعطف خاليا ، فركضت فيه وأنا ألعن تلك الساعة التي خطر لى فيها ان أسير وحيداً •

وبعد هذه الحادثة بأسبوعين حدثت مشادة بيني وبين أحد الموظفين الصغار في الدائرة ، فقدمت تقريرا بحقه لانه تطاول عليّ ، واحلته الى لجنة الانضباط ، فعاقبته بتخفيض درجته ، وتقليل راتبه ، وما كنت أود في الحقيقة ان تصل العقوبة الى هذا الحد ، ولكنى تغاضيت عن هذا الاجحاف ، اذ رأيت ان العقوبة الشديدة خير من العقوبة البسيطة ما دامت الغاية منها التأديب ، واحببت أن يكون ذلك الموظف عبرة لغيره من الموظفين ، فقد شعرت بأن بعضهم قد بدأ يحاول التمرد من يوم أن سمعوا بأنى قد ضربت وأهنت في دائرتى الرسمية •

وبعد هذه الحادثة بثلاثة أيام دعيت أنا وزوجتي عند أحد الوزراء في مناسبة ما ، وعند عودتنا بعد منتصف الليل طلبت منى زوجتى أن تترك السيارة ، ونقطع جزءاً قليلاً من الطريق على الاقدام لنستنشق قليلاً من نسائم الليل المنعشة • وقد كنت ثملاً ، فلم أبال بالعواقب فصرفت السائق والسيارة ، وبدأنا نسير الهوينا في شارع طويل واسع مقفر • وكان خلو الشارع من المارة قد ولد في نفسي شيئاً من القلق ، ولكني نبذت ذلك جانباً ، فاذا كان هنالك عدو يريد ان يسيء اليّ فما ادراه بأني سأسير وحيدا في تلك الليلة ؟ ولم ألبث ان تذكرت بان خبر الدعوى قد راج بين كل الموظفين ، فعادت اليّ هواجسي وبينما انا كذلك اذ خيل الي ان سيارتي التي كانت على وشك ان تغيب عن ناظري وقفت ملياً ، ثم استمرت في طريقها •

وكان الطريق الذى نسير فيه عريضا تقوم على جانبيه اشجار اليوكالبتس الباسقة ، وكانت الاشجار مقتربة من بعضها بحيث تختلط ظلالها في بعض اقسام الشارع فتجعل موقع تلك الظلال في ظلام حالك ، وزاد ذلك في هواجسي ، ولكن خجلي من وزجتي ، وخوفي من أن تتمهني بالجبن جعلاني

احجم عن ابداء مخاوفي • ولما سرنا ما يقارب الاربعين خطوة لمحت اشباحاً تقفز وراء الاشجار ، فوقفت مضطربا ، وقبل ان اتبين ما يجب عليّ ان افعله وثب نحونا من ذلك الظلام خمسة اشخاص ملثمين وكمموا فم كل منا فوراً وشدوا اعيننا قبل أن نصحو من الدهشة ، ثم حملونا بعيداً الى محل مهجور• وابتعد قسم بزوجتي وانكب آخرون عليّ فاشبعوني رفساً وضرباً حتى كادوا يخمدون انفاسي ، ثم لوثوا وجهي وثيابي بالاوحال والقاذورات ولم يتركوني حتى كاد يغمى عليّ • وقبل ان يتخلوا عني رأيتهم يضعون زوجتي بجانبي وهي في حالة يرثى لها من الخوف والفزع •

وكان قيد يدي رخواً فتململت وجاهدت حتى حللته ، ثم رفعت الكمامة من فمي ، وحللت قيود قدمي ، واطلقت زوجتي من قيودها وانطلقنا نركض بكل قوانا حتى وصلنا الى الدار ، وهناك رأيت السائق يتهيأ للرجوع باحثاً عنا بعد أن استبطأنا • ولما رأى ثيابنا قال اسفاً : « لعلكما عثرتما بما عثرت به في طريقي ايضا من هذه القاذورات المنتشرة في اعلى الشارع ؟ » ورأيت من الحكمة ان اوهمه باننا قد عثرنا فعلا بها لم اشأ ان افضح نفسي واطلعه على خبر تلك الاهانة التي لحقتنا •

وقد قررت بعد مداولة مع زوجتي ان اخفي ما حدث لنا على أن تكون اكثر حذراً في المستقبل • وكانت زوجتي هائجة ثائرة فلم تترك صفة قبيحة لم تصف بها العرب فقالت : « انهم وحوش قذرة لا يقلون شراً عن الزبانية والحيوانات الكاسرة » •

وقد كنت مستعداً لتقديم اثمن ما عندي لمن يدلني على من قام بتلك الفعلة النكراء ، او يعلمني باسبابها والدوافع لها • وقد كان شكي يحوم حول ذلك الكاتب الذي خفضت درجته ، وقد استدعيته في اليوم الثاني بحجة سؤاله عن بعض شؤون الدائرة ، فرأيته يبتسم ابتسامة ذات معنى ، ولم ار اثراً يدل على حنقه على ما لحقه من جراء تلك العقوبة القاسية •

ونظرت في عينيه عندما اقترب منى وسألته : « لقد سمعت بأن بعض اللصوص قد سطوا على بعض المارة ليلة البارحة في الشارع (•••) » •

وذكرت له اسم الشارع الذى جرى فيه الاعتداء عليّ فابتسم وأجابني : « لم اسمع بهذه الحادثة ، ولكن الناس يسطون للانتقام في بعض الاحيان ايضا ، وقد يقتلون من يسىء اليهم اذا يئسوا من تحصيل حقوقهم •»

وادركت على الفور ما يعنى ؛ فسألته عن قضيته وعن استئنافه الحكم لدى لجنة الانضباط العليا ، فأجاب باسماً بانه قد فعل وله امل عظيم بالفوز في القضية ، وكان يبتسم نفس تلك الابتسامة الغريبة ثم عاد فقال : « انى اؤمل ان تتدخلوا قليلا في الامر ، وترجعوا الحق الى نصابه • »

وعندما خرج شعرت بالفزع مما يمكن ان يفعله مجنون كهذا اذا يئس ، وعندها رأيت من الحكمة ان أتلافى ما يحيق بى من الخطر بمساعدته، وقد ساعدته فعلا ، فاسترجع راتبه ، واكتفت اللجنة بتوبيخه فقط •

ويظهر ان كثيراً من الناس قد سمعوا بالحادثة التى حدثت لى فقد اصبحت هدفاً لسخرية اعدائي ومقصداً للطعن والغمز واللمز •

ومن ذلك الحين صرت استلم بعض الرسائل التى يهددني فيها اصحابها بالقتل اذا لم أفعل كذا وكذا ، او اذا لم اكف عن معاكسة فلان او فلان ، وما كانت الرسائل تصرح باسماء المشار اليهم فيها بل تنبهني بصيغة عامة لاتستوجب تهمة احد •

وقد اجبرت بعد كل تلك الحوادث على الحذر ، واصطحاب حارس خاص في غدواتى وروحاتي بصفة خادم خصوصي ليمنع عنى الاعتداء ، وكان الخادم مسلحاً في كل وقت ، مستعداً للطوارىء •

الفصل السابع

« انـذار »

« ان هذه الانذارات المخيفة لدليل على تصــدع
البرج وقرب انهياره »

كنت اظن حتى قبيل خروجي من الوظيفة بأني الوحيد الذي يملك مثل هذه المقدرة على التصرف بمقدرات الناس ، ولكنى لم ألبث ان وجدت غيرى من الرؤساء في مختلف الدوائر يسير على نفس الطريقة التى تكفــل راحة الرئيس ، وتقضى على المشاغبين والمتمردين ، ولو انها تكفل القضــاء على الاكفاء ، وذوى الذكاء الممتاز في الوقت نفسه •

اما الحالة السياسية فقد كانت تزداد ارتباكاً ، وتنذر بحدوث ما لاتحمد عقباه ، لقد كان صراع الاحزاب فيما مضى بالشكل الديمقراطي المشوه الذى مر ذكره ، رغم ما فيه من الشعوذة والتضليل ، يكفل التخفيف من غلــواء المتطرفين ، ولا يقضى على آمال ذوى الاطماع بالمرة فقلل بالنتيجة من شدة الحقد والنفور والتباغض • لقد كان الكره حينذاك يسيل بواسطة الاقلام على صفحات الجرائد ويتحول الى شغب او شتم او تشهير ولايزيد على ذلك •

اما وقد اصبحت كل وزارة تبغى الخلود في الحكم ، وتستعمل كــل الوسائل للقضاء على اعدائها ، وتسخر كل القوانين لمطاردتهم فقد سبب ذلك التهاب سعير الحقد والكره والبغضاء في نفوس هؤلاء الزعماء ، حتى غدوا كالاناء المغلق المملوء ماءً وقد شبت تحته وحوله النيران ، فكلمــا زادت هذه النيران سعيراً زاد الخطر من قرب انفجار الاناء وتطاير شظاياه •

لقد اصبحت اعتقد بعد تجاربي في الوظيفة بان العراقي من ذلك النوع الذى لا يسكت على ضيم ، فان منع عن الكتابة انطلق يتكلم ، وان روقب ومنع من الكلام صار يهمس ، واذا منع من الهمس انقلب يتآمر في الخفاء فيهدد بالخطر الماحق ، وان ضويق اكثر من ذلك تحول الى وحش مرعب يقتل ويفتك دون رحمة او شفقة ، واصبح خطراً على اعدائه وعلى نفسه .

في هذا الدور دور الشدة والتضييق صارت الوزارات تتعاقب على كراسى الحكم بسرعة تفوق سرعتها الاولى ، فكان ذلك عكس طموح كل منها الى الخلود في الحكم ، وانعدم المنطق ، وسقطت قيمة الجرائد الى الحضيض ، وصار الرصاص يتكلم بدل الالسن ، واصبح الزعماء من ذوى النياشين والرتب العسكرية ، واختفى كل زعيم وراء عدد من هؤلاء يحركهم في الخفاء لتنفيذ مآربه وتحقيق اغراضه .

صارت الوزارة لا تسقط الا بعدد من الضباط والجنود يحيطون بيت رئيسها ويطلبون منه الاستقالة وايديهم فوق مسدساتهم ، فاذا ما سقطت الوزارة سنت القوانين الصارمة لمقاومة الساقطين باسم محافظة الامن ، ومنع الجيش من التدخل في السياسة ، واعادة الحياة الدستورية ، وانقاذ البلاد من الفوضى ، الى غير ذلك من الاسباب المبررة . في هذا الدور ازداد تدخل الاجانب والالمان منهم بصورة خاصة في شؤون البلاد ، واصطبغت الحركة القومية بصبغة نازية ، وصارت الدعاية الالمانية تتسرب تحت ستارها . وقد كانت هذه الدعاية قوية ومكشوفة فلا تجد مقاومة ما ، ويظهر ان السلطة الانكليزية ارادت ان تلقى مهمة مقاومة الشيوعية في البلاد وجميع الحركات الاصلاحية والتقدمية التي سميت بالشيوعية عن قصد ، على عاتق هذه

الدعايات ، ولم تخف من هذه الدعايات اذ كانت تعلم ان في استطاعتها عند الحاجة ان تضربها مرة واحدة ان ارادت • ولذلك وقفت على الحياد تراقب الحوادث ، وعلى فمها ابتسامة ساخرة •

فيهذا الدور انعمت السلطة الالمانية على كثير من الزعماء الذين يقدسون النازية بالاوسمة ، وصار هؤلاء يضعونه في هذه الاوسمة فوق صدورهم دون خوف او وجل • ونهض هؤلاء الزعماء تحت ستار الدعوة الى الوحدة العربية يطاردون أعداءهم واعداء المانيا باسم مقاومة الشيوعية • وقوى حزب هؤلاء ، ورأيت انى سأكون مهدداً اذا بقيت بعيداً عنهم ، ولكننى كنت أخاف غضب اصدقائي الانكليز فاضطررت الى استشارة المتنفذين فيهم قبل ان ادخل هذه الحلقة الجديدة ، فوجدتهم يحبذون الفكرة على ان ابقى على اتصال بهم ، والا خسرت صداقتهم • ولما أمنت غضبهم انخرطت في السلك الجديد ، وصرت عضواً عاملا في هذه المؤسسة الاستعمارية المستترة وراء بعض المثل العليا والاهداف التى تكاد أن تكون خيالية في مثل تلك الظروف •

ومع كل ذلك فقد ازداد خوفي في هذه الآونة من ذلك الغليان السياسى الغريب • لقد اصبحت الاسس التى شيدت عليها هذه الحكومة الفتية معروضة للتلف ، وقد سقطت بايدى صبيان الموظفين المغرورين الطامعين ، وقد حمل كل معوله ينقر في بنائها ثغرة يضع فيها يديه وقدميه ليصعد أعلى من غيره ، وعلى الرغم من جدة هذا البناء فان عدد الهدامين كان اكثر من ان يحصى ، واصبح هذا العدد يزداد كلما تقدم الزمن ، وكثرت هذه الثغرات والخروق في جوانب البناء وفي اساسه ، ولم يكن هنالك في كل سكان

هذا البرج من يتفرغ لمراقبة هؤلاء الصبيان وردعهم عن غيهم ، واذا حدث ان اشار احد المفكرين الى الخطر المحدق بالبلاد اصابته ضربة من أحد هذه المعاول على ام رأسه فسقط مضرجاً بدمائه •

وبينما كان هؤلاء يلهون في مرحهم الصبياني اذ حدث صدع هائل في الجدار ، فبهت الكل وانتظروا واجمين وقلوبهم تخفق رعباً ، وكان هذا الصدع هو الانقلاب العسكرى الاول • ولما اطمأن الصبيان الى ان البناء سوف لا يسقط عادوا بحماس اكبر الى العمل مرة اخرى ، ولكن الصدوع اخذت تتابع وتكثر في جدران البرج دون ان يعبأ بها أحد •

واخذت بعض كتل هذا البناء الفتى تتساقط •

وتساقط بناؤوه واحدا فواحداً ، هذا يغتال ، وذاك يقتل وآخر يسجن ، وغيره يموت كمدا ويأسا ، وصارت الجرائم السياسية امرا اعتياديا، وتتابعت هذه الاحداث وازداد خطرها •

والتقيت مرة مع موظف كبير في السلك السياسي الانكليزى فسألته عن رأيه في هذه الحالة المخيفة فاجابني مبتسما :

« ان العراقيين يبرهنون بذلك على أنهم غير جديرين بالاستقلال الذى اعطى اليهم ، فها انت ترى كيف منحوا اقصى ما يمكن من الاستقلال والحرية فمضوا يسرقون ما أؤتمنوا عليه ، ويقتل بعضهم بعضا في سبيل الغنائم والارباح • »

فسألته مرعوباً : « ولكن الحالة تزداد من سيء الى اسوأ ، ومصالحكم مهددة • »

فاجاب : « لا خطر مطلقاً على مصالحنا ، واذا ما شعرنا بأن هنالك ما يهددها فعلا فما علينا الا ان نقوم بتدبير جديد لحل هذه القضية ، وقد لا يكون هذا التدبير في صالح الشخصيات البارزة في العراق • »

وفهمت ما يعنى بكلامه هذا ، وشعرت بأن هذا البرج اذا انهار فربما وقع على رأسي بعضه ، وقد شعرت حقا بشيء من الندم فقد كانت لى حصة في هذه الفوضى الضاربة اطنابها في طول البلاد وعرضها ، ولكن لم يكن الذنب ذنبي فقط ، بل هو ايضا ذنب هذه القطعان من ابناء الشعب التي لا تفهم مصالحها ولا تقدر ما بيدها حتى تفقده ، واذا كان الانسان اعمى ضعيفاً الى هذا الحد فهو غير جدير بالبقاء • هذا هو القانون الازلى الذى يسير بموجبه العالم •

وكان خوفي يتمثل في امرين ، اولهما ان يبلغ الحقد في قلب احد اعدائي مبلغاً يدفعه الى الجنون ، فيحمل مسدسه ويفرغه في رأسى بكل برود ، ثم يخرج مطمئناً وكأنه لم يفعل ما يستحق الاهتمام •

وثانيهما ان يأتى الى الحكم رجل يقترب الى الجمهور بتضحية قسم ممن يكرههم هذا الجمهور ، وما اسهل ان يقع اختياره عليّ فقد بلغ عدد اعدائي حداً لا يمكن اغفاله •

اما الامر الاول فقد تداركته بشدة الحذر ومرافقة حارس سرى يصحبنى اينما ذهبت ويحرس دائرتى نهاراً وبيتى ليلا ، ولكنى لا استطيع ان اضمن الخطر الثاني لان الاحداث اصبحت تتابع بشكل غير مأمون العواقب ، وصار يأتي الى الحكم أناس يقفزون فجأة من بين الجمهور ، دون أن يكون هنالك حزب يسندهم ، أو كفاءة تبرر لهم هذه القفزة ، او شهرة او نفوذ يعضدهم ، وكنت اخشى ان يحدث شغب او ثورة عامة تكتسح الاخضر واليابس وتقضى على البقية الباقية من هذا البرج •

واخيرا ايقنت بان ما يتمكن الانسان عليه في مثل هذه الظروف هو الهرب ، ولكن ايمكن ان اترك املاكى ومنزلى وسيارتى وراتبى وذلك المبلغ الضخم المدخر لى عند الحكومة طعاما باردا للغير ؟ ان هذا لا يعقل ، واهون الشرين في اعتقادى ان اخرج بواسطة قانون استثنائي من تلك القوانين التى وضعت انا اساسها ، ومهما كان الامر فعلي" بالحذر وأخذ العدة من الآن.

واسرعت فبعت كل الاوراق والاملاك التي في حوزتى بثمن لا بأس به بحكم وجودي في مركز مهم ، ثم بعت منزلى ايضا ، فعلت كل ذلك دون علم احد لكيلا اثير انتباه الفضوليين الي" . وبقيت اترقب هذه الطوارىء عن كثب ، وقد ابتعدت عنها بعدا كافيا لكى لا اصاب بخطرها .

وكانت زوجتي «جني» تسخر من كل هذه الاحتياطات التي اتخذتها ، فهي تعتز بجنسيتها الانكليزية ، وتدعى انه لايمكن ان يحدث شيء في هذه البلاد ما دامت القوى الانكليزية في الهند ، وما دام هنالك من يمثل السلطة الانكليزية هنـــا .

وكانت تسخر بالحكومة والشعب ، واخذت تبدي آراءها بكل جرأة واستهتار ، حتى اخافنى ذلك الى حد ما .

الفصل الثامن

خاتمة مساعي الدكتور ابراهيم

« وبالكيل الذي تكيلونه يكال لكم ويزداد »

في سنة ١٩٣٨ حدث تبدل في الوزارة ، او انقلاب من تلك الانقلابات التى كثرت بعد الانقلاب العسكرى المشهور ، واتت الى الحكم وزارة تضم عدداً كبيراً من اعدائي ، وبدأ هؤلاء خطتهم العدائية نحوى باطلاق الحرية للصحف للكتابة حول شؤون الزراعة وانتقاد اساليبها بكل صراحة ، وسرعان ما اصبحت تلك الجرائد ، التي كانت تتملقني في سبيل بعض الهبات والاشتراكات او الاعلانات ، عدوة لدودة لى ، فلم تترك مثلبه او منقصة الا تناولتها بالتحليل والنقد والتشهير ، ونشرتها على الملأ ، واستغثت بانصاري القدماء من ذوى الشخصيات البارزة ، فوجدتهم قسمين ، قسم من اعداء القابضين على زمام الامور ، وقسم من اصدقاء هؤلاء المتنفذين وانصارهم الخلص . اما الاولون فقد كانوا معي لاسقاط الوزارة ، واما القسم الثاني فقد تنكر لي وجابهني بمثالبي ونقائصى ، ونصحني ان اعمل على تحسين سلوكي وعملى .

ولم اخش شيئاً في هذه الفترة مثل خشيتي ان يرتفع صوت اعدائي ويشتد ساعدهم . فيتألبوا على ويسقطوني الى الحضيض ، وقد حدث فعلا ما كنت اخشاه ، اذ صرت اسمع الطعن بشخصى واعمالى ومعلوماتي واخلاقي من كل مكان ، ووجدت ان فترة قصيرة من الزمن كانت كافية لفضح كل

خططى واعمالى ، مع انها كانت معروفة قبلا لدى الكثيرين ، ولكنها كانت في منجاة عن المخابرات الرسمية . واحاديث الدوائر العليا . أما الآن فهى شغل الحكومة الشاغل ، وحديث الخاص والعام ؛ فلم يبق هنالك من يجهل شخصية الدكتور ابراهيم واعماله • وفي هذه الفترة ظهر دكتور ابراهيم من طراز جديد ، ولم يكن عمل هذا ينحصر في الدعاية لاصحاب الشهادات ، وطرد من لايحملون شهادة عالية ، بل كان عمله اسهل من عملى بكثير ، واقرب منه الى الصدق والحقيقة • لقد انحصرت كل مهمته في فضح التباين العظيم بين القول والعمل في اعمالى لقد اخذ يشرح منهاجي وخططى ثم يقارنها مع اعمالى الحقيقية البعيدة عن تلك المناهج كل البعد فيطلع الناس على حقيقة من استغلهم مدة طويلة من الزمن •

واردت ان اجمع حولى بعض الكتاب الذين في استطاعتهم ان يردوا عليه ، ويشوهوا اقواله ولكنى رأيت الجميع ينفرون منى . ويبتعدون عنى عندما رأوا ان سلطاني على وشك الانهيار وانى سأجرد من منصبى بعد حين •

ولم أنس اصدقائي الانكليز في هذا الظرف الحرج ، وتداولت كثيراً مع زوجتي قبل ان التجيء اليهم ، فاتصلت هي بهم قبلى ، وجمعتنى بكبار ساستهم ، والمتنفذين منهم في العراق ، وقد علمت من هؤلاء ان العالم على ابواب حرب عالمية طاحنة ، وانه ليس من صالح انكلترا مطلقاً ان تظهر بمظهر المسيء الى الشعب العراقي ، وانه لابد من مسايرة الرأى العام وارضائه ، وان الرأى العام كله ناقم عليّ ، ونقمة الرأى العام لا تعنى نقمة السياسة الانكليزية طبعاً ، وقد صرح لى احد المتنفذين من ذوى الشخصيات البارزة بان خططى وسياستى تعجب الانكليز كثيرا ، ولو كنت انكليزيا لاصبحت ركنا مهماً من اركان الاستعمار ، واشار من طرف خفى الى امكان انضمامى الى الانكليز والتجنس بالجنسية الانكليزية خصوصا وان زوجتى انكليزية من بيت محترم كانت له خدمات عظيمة للامبراطورية •

وبعد هذه المقابلة اطمأن بالى بعض الشيء ، وأتانى الخبر بموت أبـي وتوزيع تركته ، في هذا الظرف لحسن الحظ ، وكان نصيبى منهـا وافراً ، فأوكلت احد المحامين في الموصل لتحصيله ولم اكاف نفسى حتى مؤونـة الذهاب الى الموصل والاشتراك بالعزاء • وقد شعرت بعد كل ما حدث بأنى غريب عن هذه البلاد ، وعن ابنائها ايضا ، وتمنيت من كل قلبي لو تخسف الارض بهذا الشعب ويحيق به الخراب • اما اهلى فقد قاطعتهم منذ مـدة طويلة ، فلم ارهم او يروني ، وقد خدمنى الحظ بموت ابى في هذه الفترة ، وحصولى على تلك الثروة الطائلة من التركة •

ووضعت كل ثروتي في البنوك ولم ابق غير سيارتي وحتى هذه قـد اتخذت بعض التدابير لبيعها باسرع وقت ممكن ، وبقيت اشـاهد سلطاني ينهار ، واخذت اترقب ما ستتخذه الحكومة الجديدة بحقي ، واقصى مايمكن ان تعمله هي ان تخرجنى من وظيفتى بقانون الذيل ، واقل ما يمكنها فعله هو تحويلى الى وظيفة اقل اهمية من وظيفتى ، وكان احسن العقوبات بالنسبة الي الفصل بقانون الذيل لانه يجبر الحكومة على اعطائي ما استحقه من رواتب التقاعد المتراكمة ، ويساوى هذا راتب شهر عن كل سنة • ولما كـان راتبى الشهرى خمسة وسبعين ديناراً يصبح ما استحقه الف دينار تقريبا ، وهو مبلغ لا يستهان بـه •

وخوفا من ان تخفف الحكومة من مقاومتهـا لى ورغبـة في اقصـى عقوباتها بدأت اصرح بعدائي للحكومة بجرأة ، واتكلم عنها بما يشين في كل مكان •

واعترف بأن هذه الحكومة لو كانت دكتاتورية عسكرية بحتة كتلـك التى اتت في الانقلاب العسكرى الاول ، لما تظاهرت بعدائي لها الى هذا الحد ، اما والحكومة الجديدة هادئة مسالمة ، فان اقصى ما يمكن ان تعمله معي هو ان تطبق عليّ قانون الذيل فتكون خاتمتى كخاتمة اولئك الكثيرين الذين

ذهبوا ضحية هذا القانون المشؤوم ، وهذا ما حدث فعلا ، فقد وصل حديثي الى اولئك الذين تهمهم كثيراً سمعتهم لانهم يريدون البقاء في الحكم الى اقصى ما يمكن ، فما كان منهم بعد ان بادأتهم بالهجوم الا ان طلبوا مني ان اكف والا حولوني الى دائرة اخرى بمركز قليل الاهمية يحدد من سلطتي ، ويقضي على نفوذي ، فاستهترت بانذارهم ذاك ، وطلبت منهم ان يفعلوا ما يستطيعون فعلـه .

وكان جوابي شديداً يثير غضب اهدأ الناس واكثرهم حلماً ، وقـد تعمدته لاصل الى الغاية التي اريدها ، وقد وصلت اليها فعلا ، فقـد دعاني الوزير واراد ان يؤنبني فأوقفته عند حده ، واخبرته بأني لا اخاف احداً وليس في نيتي التراجع مطلقاً ، فما كان منه الا ان قال : « ايها الدكتور ابراهيم ، انك تستخف بالحكومة ، ولكنك ستندم ندماً عظيماً ، وسترى الى اي نتيجة سيقودك استهتارك هذا » .

فأجبته مستهزئاً : « اني في انتظار هذه النتيجة التي تستوجب هذا الندم الذي يكثر من ذكره معاليكم . » وخرجت ضاحكاً .

وسمعت بعد هذه الحادثة أن مجلس الوزراء قد انعقد وتداول كثيراً في قضيتي ، وكان من جملة اقتراحاته ان يطردني من وظيفتي فيكون عمـل الحكومة مبرة عظمى تستوجب رضى الكثيرين عن هذه الوزارة ، وبذلـك دعاية طيبة لها ولاقى هذا الاقتراح قبولا عند أغلب الوزراء ، وهكذا قـر قرارهم على أن يطردني بقانون الذيل .

وبعد يوم من ذلك الاجتماع استلمت الامر الوزاري والارادة الملكية بفصلي من الخدمة ، فأسرعت بأمر الفصل الى زوجتي ، وكانت على علم تـام بكل أعمالي ، فسرت بهذه النتيجة سروراً عظيماً وقالت : « أعتقد انك قـد مللت السكنى في هذه البلاد المضطربة ، ولابد أن تكون مشتاقاً الى معيشة هادئة بعيدة عن هذه المنغصات ، وثروتك وافرة الآن يحسدك عليها الكثيرون،

فلماذا لا تحولها بواسطة أحد البنوك الى الخارج ، ثم نسافر لنسكن بلداً هادئاً ، بعيداً عن هذا الجو القاتم الذى يسود العالم وينذر بالاخطار • واذا أردت الاستمرار في العمل ففى امكاني أن أتوسط بأبي وببعض المتنفذين من أصحاب السلطة من الانكليز في ايجاد عمل مناسب لك » •

فأجبتها : « لقد مللت العمل وان ريع ثروتي يكفي لان نعيش عيشة متوسطة هادئة ، واذا استغل هذا المبلغ الضخم بروية فان ما يدره من الربح عظيم جدا يكفي لان نعيش مرفهين مترفهين أينما حللنا • وبما أن العالم يتمخض عن أحداث عظيمة فيها خطر عظيم ، فاني افضل الهجرة الى اميركا لبعدها عن الاحداث العالمية المقبلة حتى تزول العاصفة ، ويهدأ الجو ، وربما انتقلت بعد ذلك الى انكلترا وعملت فيها من جديد » •

ولم أجد صعوبة تذكر في جمع ثروتي وتحويلها الى أحد البنوك الاميركية • وعندما قدمت طلباً للسفر الى الخارج وجدت ارتياحاً كبيراً من قبل السلطة ، فقدمت لى كل المساعدة في هذا السبيل ، اعتقاداً منها بأن سفرى هذا سيخلصها من عدو مشاغب •

ولما تقدمت الى السفارة الاميركية بطلب التجنس بالجنسية الاميركية ، وجدت ارتياحاً لهذا الطلب ايضا ومساعدات ما كنت أحلم بها • ويوم التقيت بك في المقهى وتباحثنا في قضية الدكتور ابراهيم بتلك الصراحة التى استغربتها كنت على وشك السفر ، لذا لم أر محذوراً من اعلان آرائي ونواياى اليك ، وهذا ما دعانى الى أن اصارحك بكل أعمالى في الدائرة بالرسائل التى ستتضع بواسطتها هذه القصة • وقد يستوجب ذلك استغرابك واستغراب الكثيرين غيرك ، اذ لا يعقل مطلقاً أن يفضح انسان أعماله الى مثل هذا الحد • ولكنى سأكون خارج العراق ، وبعيداً جداً عن هذا القطر ، في الوقت الذى ستنشر فيه هذه القصة ، اذا قدر لها ان تنشر •

ولعل تصريحاتى هذه ستكون الخدمة الوحيدة التي اقدمها لهذه البلاد، والتى تقاضيت عوضها ثروة عظيمة سأعيش بها مرتاحا أنا وامرأتي وأولادى كل حياتي،وتحياتي اليك والىجميع هؤلاءالذين يريدون الخيرلبلادهم،وأرجو أن تتوفق في هذه الخدمة ، ولكنى أخشى أن تقدم حياتك وقوت عيالــك وأطفالك ثمناً لذلك ، ولست أنصحك هنا ، ولكني اريك أمورا لم يرها غيرك فلعلك ولعلهم يعتبرون ٠ واذا ما ذكر الدكتور ابراهيم في المســتقبل فسيذكر كرجل فضح طرق استغلاله فقطع على من هم على شاكلته ، أمثــال هذه السبل ، وان كنت قد كسبت كثيراً من اتباعها فلست أحب أن يكسب غيرى من هذا السبيل ، وقد تجد في هذا منتهى الانانية والسلام ٠

الخاتـــمة

رسالة الى الدكتور ابراهيم

« وذكر ان نفعت الذكرى »

سيدى الدكتور ابراهيم

بين يديك هذا الكتاب الذى يمثل قصة حياتك في هـذه الربوع ، أو قصة جهادك وكفاحك ، وأنت في عز شبابك وعنفوان قوتك ، واني لاشكر لك صراحتك المدهشة في رواية أخبار نشأتك وشبابك وكفاحك •

فأما وقد نفضت يدك من هذه البلاد ، بعد أن يئست من امكان البقاء فيها • فلابد لى أن اقدم لك نصيحة قد تفيدك في البلاد الجديدة التى ستتخذ منها وطناً جديداً ، فأكون بذلك قدوفيتك حقك ، ورددت جميل صنعـك بامدادى بهذه المعلومات القيمة التى سأقدمها للجيل الجديد في العراق ، لعلها تكون عبرة لهم ، وربما تبينوا بواسطتها مواطن النقص والضعف في هـذه البلاد ، وعرفوا الضار من النافع ، فكانت خطواتهم أثبت من خطواتك ، ونفعهم اكثر من ضررهم ، ومهما كانت قيمتها بالنسبة اليهم ، فـان الغيورين عـلى مصالح البلاد سيفتحون أعينهم جيداً لتنفذ نظراتهم الى خفايا أعمال موظفيهم ونواياهم ، فيوقفون الشرير عند حده ، ويأخذون بيد المخلص ، ويمكنونه من الاستمرار في البناء الصالح •

أنت من شمال العراق كما علمت ، وفي شمال العراق تسكن فئة تسمى باليزيدية ، لها مذهب غريب ، قد تكون على علم ببواطنه وخفاياه أكثر منى • ان هذه الفئة ، كما لا يخفى عليك ، تعبد الشيطان خوفاً من شره ، لا حبـاً

في خيره ، وتتقرب اليه بالطقوس والنذور ، ولكني أرى أن أقواما ابتدائية كهذه لا تكون لها فلسفة دينية خاصة • وعباداتها لاينفذ تأثيرها الى أعماق نفوس افرادها وسرائرهم ، فهم يقدمون الى الشر ، ولكنهم غالبا ما يتجنبون أساليبه • أما أنت ففلسفة الشر متأصلة في نفسك لدرجة خطرة• قد تكون ذات وبال عليك في مستقبل أيامك •

لقد شعرت من رسائلك بأنك تعتز كثيراً بخطوات النجاح التى نلتها تباعاً في كل نشأتك ، وقد شعرت أيضاً بأنك تعزو ما أصبته من نجاح الى فلسفتك واسلوبك وخططك الهجومية التي لا تعرف قانوناً أدبياً أو دينياً • ومع احترامي لحدة ذكائك ، فاني أرى بأنه قد خفيت عليك أمور كثيرة،أرى من الفائدة أن أبسطها لك ، لعلى أقنعك بخطورة الطريق التى تسلكها ، وتندفع فيها بدون روية ، يحدوك الغرور الى الاستمرار فيها ؛ والانزلاق في مهاويها •

لم يكن لك فخر في نجاحك على رفاق الطفولة كما علمت من حكاية طفولتك ، فلو لم تكن ابن السيد اسمعيل ، لما حزت ما حزت من المركز المهم بينهم • وفيما يخص ارسالك للدراسة ، قد اعترفت بأن للسلطة الاجنبية اليد الطولى في هذا الامر ، ولو لم يكن لهذه السلطة وجود ، لما قدر لك ن تدرس خارج العراق •

وعندما عدت وجدت أمامك زعماء بسطاء تغلب على طباعهم الشهامة والطيبة والرغبة الاكيدة في خير البلاد ، ولكنهم يتخبطون في الطريق التي توصلهم الى هدفهم السامي ، وكان من الطبيعي أن يركن بعضهم اليك مؤمناً بشهادتك ، معتمداً على ذكائك وكفاءتك • وقد شعرت بذلك فغاليت في استثمار هذه الثقة ، والاستفادة من هذه الطيبة ، وقد كانت أنانيتك ، وأنانية أنصارك ، كافية للقضاء على مشاريع هؤلاء وهي في المهد ، وقد كان من واجبك ، وانت رسول العلم الصحيح ، أن تخاطر بكل ما لديك لتحول بينهم وبين السقوط في هذه الهاوية التي انحدروا اليها •

في خلال هذه السنين العشر الاخيرة حدثت في البلاد كما لا يخفى عليك أحداث تؤلم قلب كل غيور على امته مخلص لوطنه ، وقد كانت فاتحة هذا العهد خرق حرمة القوانين والدساتير ، والاستهتار بحقوق الناس ، فخنقت الحريات ، وانعدمت الصراحة ، وساد النفاق والكذب ، وعمت الشرور •

أن كبار رجال هذه الحكومة الفتيه يؤمنون بكل شيء الا اطلاق الحرية للناس ليقولوا ما يريدون ، ويفكروا كما يريدون ، ويعملوا ما يريدون ، وذلك ضمن القوانين طبعاً ، وحجتهم جميعاً في ذلك أن الناس يسيئون استعمال هذه الحرية ، وان الاشرار كثيرون ، ففي استطاعتهم أن يستغلوا السذج ويسوقوهم الى طريق الخراب •

ولكن عجباً لهؤلاء الذين قضوا عمرهم في السياسة كيف خفي عليهم أن ما يخشون منه هو وحده ما سيقعون فيه عندما يؤمنون بالاستبداد وخنق الحريات •

لا أنكر أن الحرية تجعل الشرير يعمل ، ولكنها تجعل الخير أيضا يعمل• أن الشرير يعمل لنفسه ، اما الصالح فيعمل للمجموع ، فالثاني أقوى من الاول • والشرير يعتمد دائما على الحيلة والمكر ، بينما الصالح يستعمل الصدق والحق ، فمنطق الثاني أقوى حتماً من منطق الاول ، واني لعلى يقين بأن انساناً صالحاً واحداً يستطيع أن يقمع شرور ألف خبيث اذا ما اطلق له مجال الكلام• ولماذا أذهب بعيداً ، ألم يكن الانبياء وقادة الفكر من علماء ومصلحين وفلاسفة أفراداً صالحين بين الملايين الطالحين ، فخبرني لمن كان النصر ؟ ولكن لماذا احاول اقناعك ، وأنا أعلم بأنك لا تجهل ما أقول • بل تؤيده بسلوكك ، وببعض ما ورد في سيرتك ، وذلك عندما اقنعت بعض اولى الامر بابدال الحكم الدستورى بالحكم الدكتاتورى • لقد أتيت من بلاد الحرية لتنزرع بذور الطغيان والظلم ، فما أفظع ما جنت يداك !

لقد ذهب عدد من أحسن رجال المملكة ، وأكثرهم كفاءة ، ضحية هذه الخطط المشؤومة التي كان لك بعض الفضل في بذر بذورها ، بينما كان من واجبك أن تقف مسلحاً بعلمك وشهادتك لتلافيها ، ولكنك استخدمت هذا السيف ، ويا للاسف ، لذبح من قلدك اياه .

ومع أنه من الانصاف أن أقول بأن ذنبك أقل كثيرا من ذنب سواك ، ولكنى أعد جريمتك أعظم من جريمة غيرك ، فأنت من الذين يعلمون ، ويعلمون أنهم يعلمون ، ولكنهم يضللون الناس بدلا من ارشادهم الى الطريق السوى .

ومهما كان الامر فان خطتك كما ترى قد عادت بالويل والثبور عليك ، ومع أنك تتبجح بأنك خرجت من هذه البلاد رابحا فاني انبهك الى المثل العامى المشهور (ما كل مرة تسلم الجرة) وأنت ان استطعت أن تخدع شعباً يسود فيه الجهل ، فأنت لا تستطيع ان تخدع شعباً يؤمن بالحرية ، قد أنار العلم عقل أبنائه حتى أصبحوا على بينة من أمرهم ، لا يسهل عليهم أن يسيروا وراء ضلالات مشعوذ شرير مثلك .

وحتى في هذه البلاد الجاهلة ، فان هذه التجارب الطويلة قد نبهت رجال الحكم والشعب الى أن البلاء كل البلاء في الظلم والاضطهاد وخنق حرية الصحافة والرأى ، ولو كانت الحرية موفورة للكتاب والمفكرين ، لوجد من يفضح أعمالك قبل أن تفضحها انت بنفسك ، فتنجو البلاد من شر نتائج افكارك وأعمالك .

أن أصواتاً كثيرة تتردد في هذه الآونة ، تطالب بحرية القول والعمل ، وتهيب بالمفكرين والمخلصين الى الاخذ بالدستور ، واحترام مضامينه ، واعادة الحياة الحزبية والنيابية الصحيحتين ، اللتين ان لم تتوفرا سابقاً ، فستتوفران في المستقبل ، بعد أن كثر عدد المتعلمين والمثقفين المخلصين .

الحرية • الحرية • تلك الكلمة المقدسة التي حارب البشر في مختلف الامم أجيالاً طوالاً لكي يتمتعوا بها ، وما زالوا يحاربون من أجل تصفيتها وتجريدها عن سوء الاغراض والمقاصد الفاسدة ، ليحصلوا عليها بأكمل شكل وابهى صورة • بهذه الحرية سيتبين الخبيث من الطيب ، والحسن من الردىء، والمخلص من الخائن •

انى أرى أن يوماً سيأتى على هذه البلاد تطلق فيه الاقلام من عقالها فتجول وتصول في كل جهة • وفي مختلف المقاصد • أجل لابد أن يسف بعضها ويستسخف البعض ، ويعمل البعض بخبث ، ولكن للحق قوته وروعته، وللفضيلة ميزتها ولونها الواضح ، وللصدق وقع لا يمكن أن يكون للكذب، مهما اصطبغ هذا الكذب بالالوان البراقة •

ولو احترمت الحرية في هذه البلاد لما قدر لتلك الصحف الهزيلة المذبذبة الخبيثة أن تبقى ، كالحشرات تعبث في خرائب قصر شامخ هدمته العاصفة ولم تبق على ساكنيه • ولابد أن يرى رجالنا المخلصون يوماً أن من يقف في وجوههم ليقول لهم : « لقد اخطأتم هنا وهناك » خير من ذلك الذى يراهم ينحدرون الى الهاوية فيترنم بمحامدهم وعظمتهم ، وهو يعلم انهم منحدرون ، حتى اذا ما شعر هؤلاء المغرورون بالخطر ، ومدوا ايديهم يطلبون المساعدة ضحك منهم اولئك الشياطين ، وتركوهم يتحطمون في قاع الهاوية ، فترضى نفوسهم اللعينة ، وتخفق قلوبهم النجسة سروراً •

لقد شعر رجالنا بخطأ الطغيان والظلم وسيعودون الى الحق والعدل ، وسيرون بأنفسهم عظم الفارق بين الطريقتين ، وحينذاك فقط يرتفع لواء الحرية خفاقاً فوق ربوع هذه البلاد الفتية •

آخر ما أريد أن أقوله لك هو أن خططك ان انطلت على شعب ساذج في اول حياته السياسية ، فسوف لا تنطلى على أمة راقية كالامم الاوربية والاميركية ، فحذار أيها الرجل ، والا كان السجن مأواك ، والاحتقار نصيبك والسلام •